مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١ مكتبة الأسرة

فؤاد قنديل

الأعمال الفكرية





صناعة التقدم فى مصر
العوامل والشروط

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى: مصر الحضارة

التقنية: ألوان زيتية على توال

حسن عبدالفتاح

فنان تشكيلى مصرى، يستوحى جل موضوعاته من الواقع المصرى، مستوحياً روح التصوير المصرى القديم، مع توق إلى الحركة الدائبة، وتغلب على حركته السمات الملحمية، من حيث تقسيم الخطوط الرأسية والأفقية فى صياغة محكمة، وسلاسة تقترب من العفوية، تتحرك الخطوط داخل تكوينات مجردة، تشبه إلى حد ما أساليب المنمنمات، ويستمر فى حركة دائرية تحوم حول النقاط الرئيسية، للغوص فى أغوار العمق دون أدنى خلل إيقاعى لتأكيد الوضع والحركة.

محمود الهندى

اهداءات ٢٠٠٢

ا/ فؤاد قنديل

القاهرة

صناعة التقدم فى مصر

العوامل والشروط

فــؤاد قنديــل



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الفكرية)

صناعة التقدم فى مصر
العوامل والشروط
فــؤاد قـنـديــل

الغـلاف
والإشراف الفنى:
الفنـان : محمود الهندى

المشرف العام :
د . سـمير سرحـان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقـافـة

وزارة الإعـلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشـبـاب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها .. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية .. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخًا تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء) .. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

اهـــداء

إلى كل أبناء الشعب الفلسطينى البطل.. الشعب الذى يعيش فترة من أقسى فترات تاريخه الطويل، وهو يجتاز محنة الاختيار الصعب، إذ شاءت الأقدار أن يواجه أسوأ مخلوقات الأرض.. وأن يعانى مرارة التعامل مع تلك الكائنات الحاقدة والمعقدة، وعليه بكل فئاته حتى الرضع والشيوخ والنساء والصبية والأطفال ومن لم يولدوا بعد.. أن يواصلوا ملحمة النضال الباسل، والكفاح النبيل والمقاومة الرائعة من أجل بناء صرح الوطن وإزاحة الواقع الصهيونى البشع، وعدوانه الوحشى الذى يكتسح الأخضر واليابس مدعوما بقوى الشر الأمريكية ذات الوجه القبيح والأيدى المشبوهة.

صبرا آل ياسر، فإن موعدكم النصر والحرية ف. ق.

مقدمة

مصر.. مصر.. مصر

لست أدرى لماذا ترتبط هذه الكلمة فى ذهنى بكل ما هو جميل.. الفن الأصالة. الذوق. الحب. الكرم. التضحية. إنكار الذات.. المجد. البطولة. المقاومة. الشعر. الرقص. السمو. التصوف. الحلم. الإبداع. الخيال. الجمال. الورود. العصافير. النهر. الماء الصافى. هديل الحمام. النجوم. الخضرة. المرأة الفاتنة. الطفولة البريئة. الخيل. الغزال. البرتقال والمانجو والتوت والفراولة. العنب والتين والبلح. القلم. النور. البهاء. الحنان. العبادة. الأدب. العطف.

كثيرة جدا هى المعانى التى تحتشد وتتجمع من كل أطراف الذهن والذاكرة وأعماق الروح والوجدان.. تتصدر واجهة العقل، كلما سمعت اسم مصر أو قرأته، وكم تساءلت بينى وبين نفسى: هل نحن نستحق أن ننسب إلى هذا البلد الذى يمثل مركز الكرة الأرضية.. ويرى فيه الكثيرون حقا وصدقا أنه أم الدنيا، إذ كان قبل أن يكونوا وعاش قبل أن يعيشوا ونال المجد قبل أن يعرفوا منه الفتات؟

قد تكون هى مجرد أحاسيس جياشة لمواطن مصرى تجاه بلده، وكم كان عبقريا ذلك الفتى النابه مصطفى كامل الذى قال بكل فخر: لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا.. أى شموخ هذا وأى إباء؟. أية عزة؟ وأية نخوة.. أى انتماء وأى شمم. إنها والله لأصالة ونبالة نحتاج أن نقترب منها قليلا ونقبس من نورها لنعيد النظر إلى بلادنا بكل الأمل، دون أن ننسى أن الفتى وعباراته كانت ومصر محتلة بمستعمر قاس وعنيد يسوم شعبها شتى ألوان الظلم، أما اليوم ونحن فى بلد حر يتطلع إلى مستقبل مشرق، فماذا ياترى الآن يقول من هم مثل هذا الفتى النبيل الذى اخترمه الموت فى العاشر من فبراير عام ١٩٠٨

يقول الأستاذ أنيس منصور فى عموده بالاهرام «مواقف» المنشور يوم ٢٠٠١/١/٣.

«جلسنا أربعة من المفكرين: السيد يسين ورفعت السعيد وحازم الببلاوى وأنا. وكانت الكرة التى نتبادلها بالرأس والقدم هى هذا السؤال الذى احتفلنا بعيد ميلاده الأربعين: ما الذى يشغل بال المفكر المصرى؟ وهو السؤال الذى أثاره الشاعر الروسى يفتشنكو فى الأقصر، وكنا ثلاثة بلدياتـ: كامل زهيرى ورجاء النقاش وأنا بدعوة من المرحوم أحمد بهاء الدين لمرافقة الشاعر الروسى.

أما السؤال فهو: ماهى القضية التى يتفق ويختلف عليها المثقفون فى مصر؟ وقلنا وقال، وقلنا: لا هو أرضانا ولا نحن. وانتهت الليلة القمرية الساحرة فى زورق شراعى فى نيل مصر، وكان الشاعر الروسى الوسيم بعد أن شرب زجاجة شمبانيا، مستلقيا على ظهره يطالع وجه القمر. ولما وجد أننا مثل بقع سوداء تفسد عليه بدر السماء استدار ليرى ظله على الماء وأشباحنا أيضا. وذهبنا كل فى طريق. لا هو قال ولانحن. ولا وجد حلا ولا وجدنا.

وظل هذا السؤال يزن ويطن فى أذنى:

وحاولت أن أجيب عنه فى ثلاثة كتب لى هى : لو جاء نوح.. وكيمياء الفضيحة.. ثم شارع التنهدات. وقد حاولت أنا أن أجيب لانيابة عن غيرى، ولكن بالأصالة عن نفسى. ولا أزال أشعر بأننى لم أجب.

وسألت هؤلاء المفكرين الثلاثة وكان ردهم جميعا: إنهم لايجدون إجابة شافية. وأن السؤال لايزال قائما والجواب لايزال نائما. وذهب بنا الكلام ملتويا بين مذاهب ومدارس فى السياسة والتاريخ والأدب والفلسفة.. وكنا مشردى التوجهات. وحاولنا أن يكون لنا طريق واحد يفضى إلى فنار فكرى يضئ لنا هذا الضلال الذى استحكمت حلقاته حول أعناقنا وأقلامنا. واكتفينا باستنساخ هذا السؤال فكان لدينا ألف سؤال.. ولاجواب واحد عن كل ذلك.. والسبب هو أن المفكر انسان (سئيل) أى كثير الأسئلة قليل الأجوبة!»

ولقد سبق أن أثار الأستاذ أنيس نفس الموضوع فى اتحاد الكتاب عندما كنا نستقبل وفدا روسيا يتقدمه الشاعر العظيم رسول حمزا توف رحمه الله..

وغضبت يومها منه لأنه قال بأن لاشئ يشغل المثقفين المصريين، وقد يرى البعض أنه على حق، لكن المؤكد أن كثيرين يؤرقهم هذا الكم من القضايا العربية والمصرية، ويكفى في اعتقادى أن ينشغل الجميع بقضية هامة مثل صناعة التقدم الذى أصبح مطلبا أساسيا بل مصيريا يفرض نفسه على كل دولة وكل مؤسسة وكل أسرة وكل فرد.

لقد أضحى المستقبل يشغل حيزا مهما وبارزا فى حياة الإنسان المعاصر، وغدا من العسير تجاهله، ومضى تقريبا إلى غير رجعة ذلك الزمان الذى كان فيه الإنسان مكبلا بيومه، مدقوقا في حاضره، لايكاد يعرف سواهما، وكان ذلك أيام بدائيته التى تواجه فقط ضرورياته دون أن يكون له ماض وليس ثمة خيال يحلق به، ولما غدا صاحب ماض وخيال طور من حاضره اعتمادًا على ماتمده به الذاكرة من أحداث الماضى

ودروسه، ومستعينا بأجنحة الفكر الناضج والخيال المحلق، وهاهو الانسان يقف على ذروة تقدمه وصراعه لايملك إلا أن يفكر فى المستقبل الذى أوشك أن يكون منفصلا عن الماضى والحاضر. فالمستقبل يتلفح بالغموض ويثير الدهشة حينا والرعب أحيانا، ولعلها سنوات قليلة، مضت هى التى فاجأت النائمين وأرقت المستتيمين ودقت الأبواب.

لقد كان الانسان محاصرا بالحاضر الثقيل وتحدياته التى لاتتيح للكثيرين الفرصة كى يرفعوا الرؤوس نحو المستقبل، لكنهم الآن مرغمون على التطلع إلى شمسه الحارقة والاستعداد لغزواته ومفاجآته وعجائبه.. إن المستقبل يطرق الأبواب بشدة ويزلزل الأرض من تحت أقدام الذين استسلموا للاسترخاء.. فماذا هم فاعلون إزاء الغد؟ إزاء الاتفاقيات الدولية، إزاء الشركات الضخمة التى تكاد تبتلع الدول وتتحكم فى الحكومات وتهدد العروش؟ إزاء جنون العلم والابتكار.. إزاء الفكر الجديد - والانسان الجديد بعد أن بدأ العد التنازلى لمحو روح الانسان القديم وسحق أكواخه واقتحام عقله ومحاولة خلقه من جديد أو دفنه كالنفايات التى لاتفتأ تلفظها المصانع والمعامل.

التحديات كثيرة والمصريون يتعثرون فى مشاكلهم الصغيرة والكبيرة وفى آليات حياتهم وبرامج أعمالهم وطرق تفكيرهم وأساليب التعامل مع مستجدات العصر، وفى تراثهم وثقافتهم وعقدهم، وفى الوقت نفسه فإن حالة من الصحوة تلبست القيادة السياسية والفكرية والاقتصادية.. حالة تكاد تستنهض الجميع مشيرة إلى الأفق البعيد والرغبة العارمة تخامرهم فى أن نكون فى مقدمة الموكب، لكنها فى الأغلب لاتزال محض آمال وأمانى لا يحق لأحد أن يكبحها أويحرمهم حقهم الطبيعى فيها.. لكن السؤال : كيف تستقيم الأمال مع الكبوات، والأمانى مع آليات بائدة، والطموحات مع الرضا بالفتات؟ وكيف تتحقق النهضة مع الإهدار، وينال الشعب مبتغاه وسحائب الخدر تخيم على كل ركن؟

ولأن المسئولية تجاه الوطن مشتركة وملقاة على عاتق الجميع، ويتضامن الكل لحملها وآدائها، فإن من حق المصريين أن ينشغلوا بالمستقبل، بل هو واجب وحياة.. من حقهم أن يتساءلوا عن السر فى أن طائرتهم لم تقلع كطائرات الآخرين.. لماذا؟ الأرجل ثقيلة والأقدام لاتنتقل والعجلات تدور فى الرمال، وهم فى ذات الوقت يرون الجميع ينطلقون وشعوبًا كانت إلى عهد قريب محتلة وضائعة المصير أخذت الآن بأسباب التقدم، وامتلكت أدوات المنافسة فى كثير من المجالات ونحن لازلنا فى مقاعد المتفرجين، مع الإقرار بأن جهودا تبذل وأموالا تنفق وتكنولوجيا تستخدم ومناقشات تجرى وحوارات تدور.. لكن النغمة الصحيحة لم نعثر عليها بعد والصيغة المشتركة للزحف نحو المستقبل لم تتحدد بعد.. فما هو السبيل؟.. أحسب أن الجميع مؤرقون، والبعض يشارك بالجدية فى البحث، وهذه الصفحات على الدرب تحاول أن تضع بعض العلامات.. حريصة على أن تكون دراسة ذات طابع غير أكاديمى متسمة ببساطة تسمح لكل فئات الشعب بالتعامل معها والاستجابة لرؤاها مستهدفة بلوغ غايتها لدى الجميع، ونأمل أن يتلقى الكل مافيها من مصارحة دون كدر أو انفعال وإنما تحويلها إلى صيغة وآلية عملية للتطوير والتجويد.

على الله قصد السبيل

فؤاد قنديل

كلمات قليلة.. عن التخلف والتقدم

يذهب البعض إلى اعتبار مصر دولة نامية ويرى آخرون أن هذه الصفة مطاطة وإنشائية، والحقيقة أننا متخلفون، وإن كان أغلب المهتمين بمعايير النهضة فى العالم يحتسبون مصر من الدول التى تأخرت عن ملاحقة التطور لكنها جادة فى السعى إليه، ومن ثم ينظر إليها على أنها دولة نامية، أى متخلفة ولكنها ليست خاملة أو متوقفة إنما هى تمضى نحو الخروج من دائرة التخلف، ويجمع الباحثون فى مجالات التنمية الدولية على أن ثمة معايير مبدئية يمكن بواسطتها التمييز بين مجتمع متخلف وآخر نام، وهذه المعايير هى: المناخ. الوضع الاقتصادى. الموارد. الإطار الثقافى. التركيب الاجتماعى. البناء السياسى. البنية الإدارية ومرونتها.. الخ

ويقيم كل عنصر حسب دوره وحيويته فى خدمة أهداف التنمية، وقد أجمع علماء الاقتصاد رغم تقديرهم الكامل لأهمية الموارد وتكامل البناء السياسى على أن التنمية الحقة ترتبط بالنسق الثقافى والتركيب الاجتماعى للأمة إيمانا بأن الجهود المبذولة لتحقيق النمو الاقتصادى سوف تتحطم دائما على صخور التخلف الذى تتسم به الأطر الثقافية والمنظومة الاجتماعية التى تعتبر هى أسلوب حياة الأفراد من حيث

التنشئة الإجتماعية ونسق القيم ومدى احترام المواطنين له، نوعية التعليم ومدى جديته وحيويته فى تخريج مواطنين تواكب العصر، وسائل الاعلام والمستوى الثقافى.

وإذا كان لعلماء الاقتصاد والاجتماع معاييرهم فى حساب درجة التقدم أو التخلف، فلنا اجتهاد فى ذلك، أتصوره يتمثل فى المؤشرات التالية :

١ – قيمة الانتاج القومى بدون الموارد الطبيعية.

٢ – مدى ظهور الحقائق فى كل الشئون.

٣ – مدى سيطرة القبلية و العاطفية على الإدارة والانتخاب.

٤ – درجة توفر العدالة بأوسع معانيها.

٥ – كفاءة التعليم.

٦ – نسبة البطالة.

٧ – نسبة الأمية.

٨ – دلالات ماتنشره الصحف.

٩ – درجة تلوث البيئة.

١٠ – مدى استقرار القوانين والقرارات.

١١ – القدرة على التصدير .

١٢ – موقف الميزان التجارى.

فمن الذى يحدد الاجابة على هذه الاسئلة أويملك القدرة على الحكم بدقة على هذه المؤشرات؟ أحسب أن ذلك يتم عن طريق اختيار عينة من الشعب يمكن أن تتكون من ستين فردا يمثلون عشرين مهنة، ثلاثة من كل مهنة، أو زيادة العدد إلى مائة (٥ من كل مهنة).

وإذا كانت مصر قد عانت من التخلف الحقيقى فى مختلف مناحى الحياة طوال ألف عام إلا من بعض الفترات المزدهرة كالتى عاشتها مصر إبان عهد محمد على وإنشاء عدد من المشروعات المهمة فى عهد اسماعيل دون أن ينتظم ذلك مناخ تقدمى ونهضة تشتمل البلاد، فإن البحث عن النهضة ظل دائما شاغل المفكرين فى القرنين التاسع عشر والعشرين بدءا برفاعة الطهطاوى وعلى مبارك والأفغانى ومحمد عبده مرورا بسلامة موسى ولطفى السيد وأحمد أمين وطه حسين وغيرهم حتى قامت الثورة فى عام ١٩٥٢.

وليس من شك أن الثورة المصرية المباركة رغم عثراتها وتربص الأعداء بها داخليا وخارجيا وقلة خبرة الذين حملوا راياتها كانت فتحا جديدا أمام المصريين، أتاح لهم التعرف على العالم وما يجرى فيه، كما كانت بوابتهم إلى القرن العشرين واختزلت لهم عدة قرون بما وفرته من التعليم والثقافة والصناعة والكهرباء وتطوير الزراعة واستثمار الكرامة وفتح نوافذ الحرية وإقامة المشروعات الضخمة، ولأول مرة منذ مايزيد على ألف عام يشعر المواطن المصرى أن بلاده عادت إليه.

وإن المتطلع إلى ماتم إنجازه على أرض مصر فى مختلف أنحائها ليشعر بالفخر، إذ أن ماتم إنجازه خلال نصف قرن يتجاوز كثيرا ماتم تحقيقه طوال ألف عام.. وقد توفرت الكثير من الخدمات وارتفع مستوى المعيشة واضطلع المصرى بمهام كبيرة لم يكن من المتاح له أن يقترب منها، وأصبح الآن من حقه أن يتطلع للمزيد من العلم والمكانة والحرية، وأن يأمل فى احتلال الصدارة الحقيقية فى منطقة الشرق الأوسط على الأقل.. آملا أن يتسم وجوده الفاعل بإنجازات بارزة فى مجالات التصدير والتقدم والديمقراطية والثقة فى كل ما يصدر عنه من قول وإنتاج.. مايزال الانسان المصرى يطمح إلى أن يستمتع بحياة كريمة راقية تعتمد آلياتها على الصراحة والصدق والجودة والتسامح والحماية واليسر، ومازال الوطن يبتغى أن يعطيه أبناؤه كل خبراتهم وأفكارهم وولائهم وحبهم ويفتدوه بأرواحهم.

إن مؤشرات النهضة التى أضاءت هنا وهناك على مواقع عديدة من التراب الوطنى لا تحول دون القول بأن الطريق طويل، وأن المطلوب أكثر مما تم، وبأن النهضة ليست فى الأصل ماديات، ولكنها عقول وأرواح وأخلاق وإرادة، وأشهر الأمثلة على ذلك وأقدرها.. اليابان، الدولة التى تحطمت مع نهاية الحرب العالمية الثانية وبعد عشر سنوات تقريبا لفتت الأنظار بتماسكها وإعادة بنائها وبعد عشر سنوات ثانية كانت قد أصبحت قوة إنتاجيه لا يستهان بها، وبعد عشر سنوات غدت ضمن الأربعة الأكبر صناعيا فى العالم، مع الأخذ فى الاعتبار إنها لاتملك أية موارد، لكنها تملك بشرا على درجة عالية من الولاء والعطاء والثقافة والإرادة والتعاون والانتماء. والغريب أن اليابان لاتملك أرضا منبسطة، ليس غير عشرات الجزر، وكلها تحتلها الجبال إلا من مساحات قليلة، يقيم عليها اليابانيون أهم مصانع العالم..

إن التقدم إذن رهن بالبشر.. بشر يفكرون ويشجعون بعضهم ويتيحون الفرص ويتسامحون ويتعاونون ويعملون بقوة ويخلصون ويتقنون ويبدعون ويبسطون الآليات والإجراءات وينطلقون.

أما فى مصر فلدينا تقريبا كل الامكانيات المادية والبشرية من حيث الكم، ويبقى الكيف الذى يحتاج منا إلى إعادة صياغة.. إعادة نظر فى كل القنوات التى نمضى فيها، فى كل الزوارق التى تحملنا، فى كل الأساليب التى نستخدمها فى التعامل وفى الإنتاج.. لأن ما يجرى على الأرض المصرية لايثمر إلا ربعه والباقى مهدر أو منهوب أو مهمل..

إن تأمل شكل الحياة فى مصر يجب أن يحظى بالعناية الدقيقة الجسورة والصادقة وألا تخدعنا التصريحات والأقوال والأمانى والوعود، فالواقع أصدق إنباءً من الكلمات الطيبة والمعسولة التى يلقى بها كل يوم عدد كبير من المسئولين.. ولابد أن يعلم الجميع أن ماتحقق قليل، لأن العبرة بالإنسان ونوع الحياة، فإلى أى مدى تتحقق العدالة ويتوفر له الاحترام فى كل إدارة وكل هيئة.. التقدم ليس على الاطلاق هو استخدام

التكنولوجيا فقط ولكن صنعها وفهمها والقدرة على ترويضها وتطوير أداءها.. ليست العبرة بأن أركب السيارة وأبصق فى الشارع وألقى فيه القمامة وأتجاوز غيرى عبر الطريق الخطأ - وليست العبرة باستخدام المحمول والدش والفاكس والانترنت ولكن العبرة باحترام الآخر والحفاظ على المرافق العامة وأن يتحقق لى العدل فى كل موقف، وتتوقف تماما المعاناة فى الحصول على مستلزمات الحياة..

إن كثيرا من المسئولين يتصورون واهمين أن نشر الكمبيوتر يعنى التقدم أو زيادة عدد أجهزة التليفزيون أو امتلاء القاهرة والمدن بالسيارات إلى درجة الاختناق هو التقدم.. إنه فى احترام التلميذ للمدرس ورعاية الأخير له وأن يكون قدوة فى الخلق والنظافة والديمقراطية والتواضع وحب الجمال والعدل والخير.. ليست العبرة بارتفاع مستوى المعيشة حيث العمارات الضخمة والسيارات الفارهة ولكن العبرة بالضمير والأمانة وتقديس الحرية والإخلاص وحب الوطن.

إن كثيرا من المصريين يأكلون اللحوم كل يوم، لكنهم لايعيشون.. ولايعرفون ماذا تعنى الحياة ولا كيف يحيونها.. إن كثيرا من المصريين لديهم الأموال الزائدة عن حاجاتهم، لكنهم يسيئون استثمارها ولايفقهون سبل الافادة بها بما يحقق لهم السعادة، لأنهم لايعرفون معنى السعادة وسوف يطالع القارئ الكريم في الصفحات التالية.. السر فى أن الكثير منا لايعيش الحياة الحقة وإننا نهدر أعمارنا وأننا نضيع أوطاننا والفرصة المتاحة لنا ليست مفتوحة بحيث تحتمل غفلتنا، لقد فات وقت القيلولة ولم يعد ثمة مجال للاسترخاء.. لقد تبدد زمن طويل، وها نحن على أبواب الامتحان ولم ندرس من المقرر إلا القليل، وأصبح لزاما علينا العكوف على مطالعة المواد والمناهج المنوطة بنا، وقبل أن نضطلع بالمهمة نرجو إلقاء نظرة على هذه الصفحات.. لأنها فى زعمنا «مانيفستو» التقدم وبدون أن نعيها جميعا ونعمل بما فيها جميعا فليس ثمة داع لأن نشغل أنفسنا بغيرنا وتقدمهم، فليتقدموا كما يشاءون دون أن يتوقعوا منا المنافسة، لأننا سوف نكون خارج المضمار.

إن من يطمح إلى دخول الألفية الثالثة والقرن الواحد والعشرين مرفوع الرأس عليه أن يمر من هذه البوابة، ونحن جميعا مطالبون بذلك، لأن العمل يضمنا معا وكذلك الوطن الذى يدعونا للحاضر والمستقبل.. زورق واحد يقلنا فى بحر هائج، يدرك الكل صعوبة الملاحة فيه.. والأمواج المتلاطمة تزداد مع كل يوم عنفا وهياجا، والتحديات من الأعماق والأغوار تتوالى، ولقد حفلت الصحافة المصرية فى السنوات الأخيرة بمقالات ودراسات حول عوامل النهضة ووسائل تحديث مصر وسبل التطوير المطلوبة لتغيير وجه الحياة فيها، وصدرت عدة مؤلفات لكتاب ومفكرين أجلاء، كشفت عن حس وطنى أصيل، كما دلت على أن أصحابها استشعروا الهمة لدى القادة وبعض المسئولين، وخامرهم إحساس عميق بأن ثمة صحوة تشرق على البلاد وتمتد آثارها تدريجيا لتمس كثيرا من الأعضاء الغافلة، ويمضى نورها إلى بعض الأركان المظلمة فيكشف مافيها من تضليل وتخلف وعشوائية.

وهذا كله يعنى دون أدنى شك أننا بالفعل فى نهضة، نحاول صعود الجسر نحو القمة، ويتعين علينا ونحن نتحفز لهذه النهضة أن نعرف حقيقة وسائلها، وأدوات صناعتها وفقه الإقدام عليها، والقواعد الرئيسية التى تمثل نقطة الانطلاق حتى لانعيش نهضة وهمية كلامية خداعة، وكم من مرة فيما سبق من عهود تصورنا أننا نمسك النجوم بالأيدى، فإذا بنا نكتشف إنها ليست نجوما ولكنها بعض الأحجار التى استقرت فى قاع النهر الصغير الميت.

ولقد لمست قوة الأفكار والمشاعر التى حدت بالكتاب أن ينشروا رؤاهم فى الكتب والصحف لنهضة مصرية حقيقية تقف على أقدامها بقوة ورسوخ وترفع رأسها بين الأمم فى عزة وشموخ، ولكننى فى المقابل بعد طول متابعة وتأمل ألفيت أنها مع رصانتها ورشادها، فهى.

أولا : متناثرة كالشظايا الموزعة فى كل الأنحاء أو كشرار آلة اللحام.

وثانيا: يحرص أكثرها على تركيز الرأى حول التحديث والتكنولوجيا وتطوير التعليم، ونحن مع هذا دون ريب، لكننى أتصور المسألة بصورة مختلفة قليلا، إذ تأمل هذه الصفحات النفاذ فى العمق والجوهر لا فى السطح والمظهر.. إن المشروع القومى الكبير الذى يشمل الأمة جميعا ويطمع هذا الكتاب أن يكون دعوة إليه ورجاء إلى كل المصريين للمشاركة فيه، هو إعادة صياغة كل شئ تقريبًا من خلال النظرات التى تم عرضها عبر الفصول التالية.. فليس على البعض أن يكتب بين الحين والحين باحثا ومتسائلا عن غياب المشروع القومى الذى ينتظم فى إطاره الجميع، فها هو مشروعنا الذى يضمنا ويشغل فكرنا.. هذا المشروع هو كيفية تحقيق التقدم فى مصر، وصياغة إنسان مصرى جديد، مع الأخذ فى الاعتبار أن التقدم يتمثل فى المعنويات قبل الماديات.. فى الأخلاق والسلوك والثقافة والوعى والنخوة والانتماء قبل أن يتجلى فى ناطحات السحاب والقطارات الفخمة السريعة والمحمول الذى يعوضك عن كل الأجهزة.

الإنسان المصرى.. القضية والمشروع

لايكاد العلماء يتفقون على تحديد عمر الانسان الحقيقى، لكنهم يؤكدون على أنه يتجاوز ثلاثة من ملايين السنين. ظل خلالها وإلى ماقبل خمس عشرة ألف سنة فقط، يعيش حياة أقرب إلى حياة الحيوانات إلا من بعض السلوكيات التى يبتكرها فكر بسيط للتحايل على الظروف المحيطة، وتوفير الطعام والمأوى والأمن المفتقد بسبب عشرات الألوف من الحيوانات الضارية، على تعدد أحجامها وشراستها.

وخلال مدة تزيد قليلا على عشرة آلاف سنة فقط تمكن الإنسان من البدء فى منظومة ثقافية تراكمية تتزايد وتتطور يوما بعد يوم، ولعل ذلك كان مرتبطًا إلى حد كبير بالزراعة والاستقرار الذى تتطلبه، ويقتضى هذا أن نقدر اكتشاف الإنسان للزراعة تقديرا بالغا، لأن الانسان فى الأصل ليس إنسانا بخلقته وشكله، ولكن بفكره وسلوكه. وهذا هو السبب فى أن الله اختاره خليفة له على الأرض، يعمرها ويطورها ويملأها من نوعه مشمولين بالخير والمودة والسعادة.

والانسان إذا قورن بكل المخلوقات الحيوانية والجامدة هو من غير شك أرقاها وأسماها بفضل ما خلقه الله فيه من الأجهزة، وفى مقدمتها العقل الذى يعد منحة إلهية لا نظير لها على الأرض وربما فى كل الكواكب، وهو

درة الدرر ونعمة النعم، وقد استطاع بإعماله العقل عبر آلاف السنين أن يطور الحياة بدرجة تبلغ أحيانا حدود المعجزات وتتجاوز أحيانا ما اعتقده القدماء أسطورة.

وبالعقل اكتشف الانسان الخالق، واجتهد لتشكيل أساليب التعبير عن ذاته وذوات الآخرين ورغباتهم، حتى توصل إلى لغة تحقق له التواصل مع أقرانه، ومضى فى سلسلة الاكتشافات التى سعى إليها توفيرا للوقت والجهد والمال وتحقيقا للراحة وزيادة الانتاج وتقريب المسافات والأبعاد وتوسيع رقعة الحرية والأمان وأيضا تمكينه من إرضاء الشهوات والغرائز والاستمتاع بشتى ألوان اللذائذ.

ومع العقل زود الله الانسان بجهاز عصبى فريد يتمتع بإمكانات غاية فى السرعة والدقة. وهذا الجهاز يكاد يفوق العقل من حيث الأهمية.. جهاز قادر على التقاط وتمييز كافة أشكال المنبهات، الداخلى منها والخارجى ومؤهل للاستجابة لشتى ألوان المتغيرات، ويتكون من المخ والنخاع الشوكى والأعصاب، ولنا أن نتصور تلك المسارات التى تنقل المعلومات من جميع خلايا الجسم وحواسه إلى المخ، ويقوم المخ بدراسة هذه المعلومات والعمل على إصدار توجيهاته إلى مسارات عصبية أخرى تحمل الأوامر إلى العضلات للتصرف، كما ينظم الجهاز العصبى عمليات دورية بيولوجية أخرى كالهضم والتنفس وتنظيم ضربات القلب، وهو الذى تنبعث منه كل أحاسيسنا وانفعالاتنا وردود أفعالنا، ويتكون من مليارات الخلايا، ويكفى أن نتخيل العمليات العصبية المعقدة إذا لمسنا دون أن نقصد سطحا ساخنا.

وهناك أيضا الجهاز الليمفاوى، ولعل أغلب الناس لايعرفون شيئا عنه، وهو شبكة، من الأوعية الدموية الصغيرة التى تعمل على ترطيب أنسجة الجسم وتغذيتها بالسوائل ثم إعادة المتبقى منها أو الزائد إلى الدم، ولو تركت لأصيب الجسد كله بالتورم، وهذا الجهاز من أهم القلاع التى تحمى الجسم ضد العدوى.

وهناك أيضا الجهاز المناعى وطبعا الجهاز التنفسى والدورى، وكلها أجهزة غاية فى التعقيد، وفى الأهمية، وغاية فى كفاءة الأداء وسرعته وانضباطه، وقد أهلت هذه الامكانات الانسان وجعله محبا للاستطلاع، ساعيا إلى المعرفة خاصة أنه يتمتع بذاكرة تعد من أهم مايمز الانسان، لأنها صاحبة الفضل الأول بعد الأجهزة فى حماية الانسان ودفعه للتطور بتحقيق التراكمية، فهى صندوق المعرفة الحافظ لكل مارأى وسمع وأحس وجرب.. حقا لقد خلق الله الانسان فى أحسن تقويْم.

وإذا كانت قد تعددت تعريفات الانسان عبر الحقب والعصور، فقيل إنه الحيوان العاقل، وأنه الحيوان الضاحك والاجتماعى أو الناطق، فإن المؤكد إنه الحيوان صاحب التاريخ والذاكرة وهو أيضا الحيوان ذو المخيلة الذى يستطيع أن يتخيل ويحلم ويحلق.

هذا هو الانسان الذى علمه الله الأسماء كلها وفضله على جميع ما خلق، واختاره – بناء على مؤهلاته - كى يكون على الأرض الخليفة والسيد، إلا أن الملائكة قالوا:

«أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إنى أعلم مالا تعلمون» البقرة ٣٠.

لكن الله بحكمته، ولأنه خالق البشر ارتأى أن الانسان هو الوحيد المؤهل لقيادة المخلوقات على الأرض، ولذلك سخر له كل شئ وجعله قادرا عليها، وأمره أن يمشى فى البر ويخوض البحر ويصعد إلى السماء، ويكتشف ويتدبر ويتأمل، وله كل الحق فى أن يمضى فى كل الدروب بحثا عن المعرفة لاتحده حدود ولا تعوقه عوائق، وإن ذلك المسعى ليفرح به الله ويباركه.

لقد رأى الله أن الانسان قادر على أن يطور الأرض ويعمرها ويحيلها إلى كيان آخر غير ما كانت عليه يوم تسلمها.

وهكذا يصل هذا الفصل إلى حدود الهدف الأول الذى سعى إليه وهو: التأكيد على أن الانسان سيد المخلوقات وأسماها.. كائن عظيم.. عظيم

من حيث النشأة والخلقة والإمكانات الأسطورية ويتوجب أن يكون كذلك من حيث الأثر والفعل.

لقد أدرك الانسان عظمته مبكرا بالقياس إلى المخلوقات الأخرى، كما أدرك قوة وعظمة كائنات ضخمة، ومؤثرة جدا مثل الشمس والقمر والكواكب وكذلك البحار والأمطار والأنهار والجبال والسحاب، ولم يتوقف عن التفكير فى كيفية التعامل معها والسيطرة على ما يمكنه السيطرة عليه من هذه المراكز الطبيعية القوية ومحاولة استثمارها لحسابه.

وعندما أحس الانسان بعظمته سعى للحفاظ على نفسه، سواء بوصفه إنسانا بذاته أو بوصفه ممثلا للبشر، وهكذا مضت المسيرة الإنسانية تتقدم بخطى مطردة وفقا لجهد الانسان وتضامنه مع أخيه الانسان، لأنه أدرك الأهمية القصوى لوجوده وتأثيره وطموحاته.

لقد ابتغى الانسان سعادة الانسان فى كل فكر وكل سلوك حتى فى العبادة. وبرومثيوس بطل الأسطورة الإغريقية يمثل بدقة ما نود الاشارة إليه، فقد لاحظ أن الألهة غضبت على الناس فقررت حرمانهم من شئ واحد هو النار، فأصاب الناس ضرر بالغ ولحق بهم العذاب الأليم، تجمدوا من البرد وفسدت أطعمتهم وما عادوا يتذوقون لشئ طعما وعجزوا عن مواجهة الحيوانات المفترسة والأعداء، ولم يتمكنوا من صناعة سيوفهم وأوانيهم ومختلف أدواتهم، وما استطاعوا علاج جروحهم ومداواة مرضاهم، لأن كل ذلك لايكون إلا بالنار، عندئذ قرر برومثيوس أن يسرق النار من مصادرها التى تحرسها الألهة، وأمد بها الناس فسعدوا وهللوا وابتهجوا وقرروا اعتبار برومثيوس نصف إله، بينما غضبت الألهة على برومثيوس وأنزلت به العقاب، لكنه كان سعيدا لأنه لم يحتمل أن يرى أخاه الانسان فى معاناة ومثل ذلك حدث فى كثير من العهود.

ليس منا من ينسى شخصية سبارتاكوس محرر العبيد الذى قرر أن يخلص زملاءه المساجين الذين كانوا يلقون صنوف العذاب والذل والقهر،

ويرغمون على قتل بعضهم البعض من أجل متعة الملوك، والفائز منهم عليه أن يلتقى بالوحوش االكاسرة، وتم النصر أخيرا للعبيد بثورتهم التى قادها سبارتاكوس.

وسحقت أقدام التاريخ أسماء الملوك الطغاة وخلدت صفحاته أسماء العظماء الذين خففوا آلام البشر مثل أبو قراط وابن سينا وجاليليو وفلمنج وجراهام بل ومارى كورى والرازى ونيوتن وابن النفيس وجوتنبرج والخوارزمى وابن الهيثم والزهراوى والانطاكى وفولتير وألبرت شفا يتزر.

التاريخ عامر بأسماء العلماء الذين فقدوا أرواحهم لاصرارهم على توفير كل مايلزم حياة الناس من طب ودواء وكيمياء وفلك وفيزياء، يبحثون لهم عن الخامات النافعة للصناعة وكذلك الثوار الذين حملوا أرواحهم على أكفهم من أجل حرية الانسان، وسعى الرحالة وركبوا المجهول واقتحموا المخاطر كابن بطوطة وماجلان وماركو بولو وكولمبوس حتى جاجارين وأرمسترونج من أجل الانسان والمزيد من المعرفة، ومزيد من تمكن الانسان وسيطرته على الأرض وماحولها، ولم تكن جهود العلماء والثوار والبنائين والصناع والزراع هى وحدها التى بذلت من أجل البشر، بل توجت وواكبت كل ذلك إبداعات الفنانين والأدباء وفكر الفلاسفة وعلماء اللغة من أجل تطوير حياة الانسان وتدريب الوجدان والحواس على ممارسة أرقى السلوك، وفهم أسمى المعانى الجميلة والارتفاع بالمشاعر والأحاسيس وإرساء القيم النبيلة التى تجعل من حياة البشر منظومة، إنسانية رفيعة.

وقبل هؤلاء كان الرسل والأنبياء الذين بعثهم الله ليمشوا بين الناس بالهداية ليخرجوهم من الظلمات إلى النور، ولكى يزرعوا فى أرواحهم وقلوبهم حب المقاومة.. مقاومة الشر والنفس الأمارة بالسوء ويرسخوا فيها حب الخير والحق وحسن المعاملة وحماية العدل والحرص على إنسانية الانسان.

ومع ذلك فقد تعرض الإنسان فى كل أنحاء المعمورة لسوء المعاملة على مر التاريخ، سجن وطرد ونفى وجلد، وأعدم وشرد وتمرض للجوع والإذلال من الحكام على كافة مستوياتهم ولأسباب عديدة وبدون أسباب، ولم يكن الجهل الذى تميز به الكثير من الحكام هو السبب أو العقد النفسية أو الرغبة فى الانتقام ولكن كان الخلاف فى الرأى يدفع الطغاة إلى البطش بكل من يحمل رأيا آخر، هذا بالاضافة إلى الحروب التى اندلعت نيرانها فى أغلب مناطق الكرة الأرضية وبعضها لأتفه الأسباب وبعضها مجرد نزوات لحكام لم تختـرهم شعـوبهم، وألحقـوا بالبشـرية أقسى أشكال العذاب والدمار.

ولقد نشط الفلاسفة والمفكرون والأدباء إبان قرون عصر النهضة فى صياغة نظم تعمل على ضبط العلاقة بين الحاكم والمحكوم وتحد قليلا من استبداده واحتكاره للرأى والحكم والقرار، وكان لهذه الأفكار دور كبير فى كبح جماح هوس الحكام والتمهيد لارساء قواعد حرية شعبية تصونها القوانين والدساتير.

لقد أدرك المفكرون أن الانسان عانى أكثر من اللازم وقد آن الآوان كى يعمل ويعيش فى ظل ظروف إنسانية تليق، به ومناخ صالح يلتقط فيه أنفاسه ويعثر من خلاله على سعادته المأمولة، ويتمكن من اطلاق سراح فكره المقموع ويستثمر مواهبه ويستمتع بحرية التعبير عن آماله وأحلامه ومايجيش بصدره من أفكار وخواطر، وأكد المفكرون خاصة روسو وفولتير وهويز ولوك وغيرهم من رجالات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إن الابقاء على حقوق البشر والحفاظ عليها هو الهدف الوحيد من اجتماع الناس، أو الشرط الأول لوجود المجتمعات السياسية والمناطق الإدارية، فلا يعد مجتمعا بحق ذلك الذى تضيع فيه حقوق الناس.

وقرر المفكرون وفي مقدمتهم جون لوك أن المبدأ القديم قد انقضى.. ذلك المبدأ الذى كان يقسم الناس إلى فئتين منفصلتين، لا تداخل بينها.. فئة قدر لها أن تحكم، وفئة كتب عليها أن تخضع، الأولى تتسلح بالكذب

والثانية تدافع عن نفسها ضد الخداع والتضليل. انتهى كل ذلك وأصبح الجميع له حقوق واحدة، وكل فرد له كامل الحق فى أن يشبع حاجاته المادية والمعنوية بحرية مطلقة، وأصبح الصالح العام لكل مجتمع، ليس الحد من ممارسة هذه الحقوق بل فى الحيلولة دون المساس بها.

وبالفعل تحققت للانسان الأوروبى والأمريكى إلى حد كبير هذه الميزات الانسانية الرفيعة، وغدا من اليسير أن يحصل شخص على تعويض مادى كبير من جاره الذى يعلو غطيطه بشكل يؤثر على راحته، بل لقد كسب رجل تعويضا ماليا ضخما لأن غطيط جاره أدى إلى انزعاج كلبه وحرمانه من النوم وتراجع شهيته ولم يعد يقبل على اللعب كما كان، وطلبت المحكمة مشورة الطب البيطرى فقرروا أن الكلب أصيب باكتئاب.

ولم يحدث ذلك لأن الشاكى ابن رئيس الجمهورية أو شقيق رئيس الوزراء.

ونختم هذا الجزء من هذا الفصل بما أورده توماس كارليل فى كتاب «الأبطال»: إن كل ماتراه هو رمز من رموز الخالق، وأكبر رموز الخالق وأعظمها هو الإنسان وإن نفس الانسان هى من نفس الله، والانسان هو مظهر الله على الأرض».

ويستطرد قائلا :

«قال الصالح «نوفيلا»: ليس فى طول الكون وعرضه إلا معبد واحد وهذا المعبد هو جسم الإنسان».

وبعد.. فهذا هو حال الانسان عند الخالق وعند غيره فى بلاد كثيرة فما حاله عندنا؟

ظل الانسان المصرى منذ العصر المملوكى مرورا بالحكم التركى وطوال حكم أسرة محمد على يعانى خللا حقيقيا وصل إلى درجة الشك فى معنى كلمة إنسان، ومرت به فترات تمنى خلالها الموت، وسعى بالفعل لهجر أرضه وبلده طالبا الفرار والاختباء بعد أن تغلغلت التعاسة وضاقت

عليه الأرض بما رحبت، ولم يجد من يلجأ اليه الا الله. وكان السلم الحاكم بدءا من الوالى والخديوى حتى العمدة والخفير مكونا من عشرات الطبقات من السادة والحكام وأولى الأمر يمارسون عليه أعتى أشكال الظلم والاستغلال والبطش، ولايتورعون عن إيذائه فى أهله وماله وعرضه دون توقف، حتى لقد كره الحياة على هذه الأرض التى عشقها أجداده وأباؤه ومثلهم أحبها وانتمى إليها وعانقها حتى فى نومه وصلاته وعمله، وهو الذى لم يعرف - من هوان أمره وقلة حيلته - إلا الأرض فراشا والسماء غطاء.

كانت المعاناة إبان عهود الفراعنة قائمة إلى حد ما، لكن الخير الوفير والمودة والاحترام حالت دون أن يشعر المصرى بالحقد أو الحرمان، وربما شهدت الحياة المصرية عنتا تحت حكم الرومان الذين تميزوا بالغباء والتحكم والاستبداد لكن الاسلام جاء بالنور والخير والعدالة وتنفس المصريون الصعداء وطاب العيش حتى أواخر العصر العباسى وحكم ابن طولون آخر الحكام المسلمين الفضلاء، وتدريجيا شرعت الأحوال فى التردى، وليست شكوى المصرى من الطعام ولكن من الحكام وليست من نقص الملبس الناعم ولكن من سوء المعاملة، وليست من تواضع المساكن ولكن من شدة القهر ونير الطغيان وعموما كان المصريون طول عمرهم أساتذة فى تعذيب بعضهم.

ليس من شك أن الأحوال قد تغيرت بعد الثورة مع أولى كلماتها:

- ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستعباد.

وقد مضى بالفعل عهد استعباد الحاكم للشعب ورفعنا رؤوسنا، لكن التعاسة لازالت تضرب أبواب الناس وتحرمهم لذة الحياة الأمنة والعيش الذى يليق بشعب يعيش القرن الواحد والعشرين، ويبدو أن الاستبداد أصبح من الشعب للشعب لا من الحاكم للشعب.. فمن الاستبداد ماكان مصدره الحكومة أى قراراتها، ومنه ما كان من الحكومة أى موظفيها ومنه

ما كان من الناس للناس. الأمر الذى ننتهى من تأمله إلى غياب المعنى الحقيقى لكلمة إنسان عن كثير من الأذهان، ويتبدى هذا فى مجموعة كبيرة من السلوكيات التى تفتقر إلى الإحساس أو الايمان بأن هذا الانسان أعظم ما خلق الله، وهو على الأقل إنسان مثلك يامن تتصرف إزاءه بحدة وتربص ومحاولة إزاحته وأحيانا البطش به، مع أن الرسول لخص القضية بقوله: أحب لأخيك كما تحب لنفسك، وكانت المسيحية جميعها تقريبا ومن خلال أقوال وأعمال السيد المسيح هى الدعوة إلى احترام الانسان والحفاظ عليه وتقدير مشاعره والتماس الأعذار لأخطائه ودعمه بكل ما تملك ولاتبخل عليه بما عندك وأشدد أزره، وكما يقول المصطفى : انصر أخاك ظالما أو مظلوما، ونصرته وهو ظالم برده عن الظلم وإرشاده إلى العدل والمحبة من أجل سلام الانسان فى كل زمان ومكان.

كثير من القلوب غادرتها الانسانية، والانسانية تعنى الرحمة.. لأن الانسان في الأساس عقل وقلب.. فكر وإحساس ومن فقدهما فقد الإنسانية.

يقول الرسول المصطفى وهو ينظر إلى الكعبة «والله إن خرابك حجرا على حجر أهون عند الله تعالى من ترويع امرئ مؤمن» أى أن هدم الأماكن المقدسة أهون من الاساءة لإنسان أو تخويفه أو تهديده وإقلاقه وبث الرعب فى قلبه ولو لدقائق. ويقول الله سبحانه «من قتل نفسا بغير نفس أوفساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا» فلننظر الفارق الهائل بين دعوة الدين الحنيف وسلوك المصريين، وتترى الأخبار كل يوم عن ذبح الأباء لزوجاتهم وأبناءهم وجيرانهم.. بلا أى رادع من دين أو إحساس أو ذرة إنسانية.

يقول الرسول : إن الله يعطى على الرفق مالا يعطى على الخرق (القسوة والعنف) وإذا أحب الله عبدا أعطاه الرفق، ومامن أهل بيت يحرمون الرفق إلا حرموا محبة الله تعالى، ويقول الرسول: ليس القوى بالصرعة، ولكن من يملك نفسه عند الغضب «فلا يعد قويا من يسرع

بالاعتداء على أخيه الانسان، بل القوى حقا من يصبر عليه فقد يكون له عــذر ويقــول الرســول: والله لايؤمن، والله لايؤمن.. من لايأمن الناس بوائقه» أى من يخافه الناس ويتقون دائما شره.

يكفى أن تطالع صفحة الحوادث لنجد مثلا.. رجلا يخطف طفلة ويستدرجها لاغتصابها فإذا قاومت خنقها أو أحرقها أو مزقها، ومثل ذلك إذا صعد لص إلى شقة ليسرقها، فإذا التقى صاحبها فلا يهرب بل يقتل ويشعل النار في الشقة وصاحبها.

شاب يخطب شابة ويكتب الكتاب، وبعد التعامل تكتشف أنه سئ وتستحيل العشرة معه فتطلب الطلاق.. فيأبى ذلك وتمر السنوات أمام المحاكم ويضيع شباب الفتاة ويذهب هو ليتزوج ويظل يتعنت فى إطلاق سراحها متشبثا هو ومحاميه بالشرع والقانون.. أعرف عدة فتيات جرى لهن ذلك وقضين سنوات طويلة دون أن تتحرك النخوة والانسانية فى قلوب من تزوجوهن، سواء دخل الرجال ام لم يدخلوا بهن.

سيدة تحاول أن تسرق سوارا من يد طفلة، فإذا قاومت خنقتها، دون أن ينبع فى قلبها إحساس بحالة أهلها المساكين.

إن الله نفسه قد كرم الانسان فى قوله:

«ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر».

ومن صور تكريم الله للانسان خلقه على أحسن صورة.

«وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات».

يبدو الانسان المصرى أحيانا فى بعض الحوادث كأنه صرصور أو ذبابة يطيح به غيره ويسحقه ويمضى إلى سبيله دون أن ينبض له عرق أو تهتز فى جسده شعرة.. أب مترف مستهتر يسلم لطفله سيارة حديثة قوية ليقتل بها عددًا من الشباب البسطاء العاملين فى مصنع أو الأطفال الواقفين أمام باب مدرسة، وبكل صفاقة يدافع عن ولده ويعرض بضعة

آلاف من الجنيهات على أهل المقتولين وتنتهى المشكلة، ومثل ذلك فى بعض الأعمال كالبناء وغيرها حيث ينسى المقاول أو المهندس أن بشرا سيسكنون هذه الأماكن، وانظر لمن يغش السلع، إنه يعلم مسبقا أن من يستخدمها ستضره، وأن السلع الغذائية ستفضى بصاحبها إلى التسمم أو الموت أو حتى بالمغص المعوى.. كيف يرضى شخص أن يتألم شخص مثله أو طفل ولو لساعة.. من هذا الكثير للأسف.. وحجم جرائم هذا النوع يصعب حصرها، ناهيك عن تجار المخدرات الذين يمارسون كل وسائل الإغواء لتوزيع بضاعتهم وهم على ثقة أن أحدا لن يسلم منها وأن مصائبها عديدة أقلها ضياع المستقبل وتبديد المال مرورا بتدمير الأسرة وبعض أفرادها.

ينقلنا هذا إلى السؤال الطبيعى أو المنطقى.. هل يتعلم الطفل من صغره كيف يحترم الانسان حتى يعتاد ذلك؟.. نقول : قد يتعلم ذلك فى بعض المجتمعات، لكن مجتمعات أو عائلات أخرى تشهد معاملة من الوالدين للأبناء فى غاية الفظاظة والقسوة، ولن يصلح معهم تعليم فسوف يكبرون وفى النية أن يرتكبوا مثل أو بعض ماتعرضوا له، لأنهم ترعرعوا وفى النفس غصة وكراهية.

إن أطفالنا الذين لايعرفون لعبا أو مرحا أو حبا أو حنانا ولايتربون على حب النظافة والنظام والجمال لن يضيرهم أن يروا ذلك ولن يزعجهم أن يرتكبوا أثاما ضد النظافة والنظام والجمال.. ولنتصور مستقبل الأطفال الذين يتعلمون على يد ذويهم الشحاذة والسرقة والكذب والاحتيال والعدوان وسوء المعاملة.. وكيف يتعلمون السماحة والعفو واللطف وهم لم يشهدوا ذلك أو يعيشوه، بل رأوا من بعض الأباء أسوأ المعاملة لهم ولأمهاتهم، بل ولمسوا سوء المعاملة حتى من الأباء مع الأجداد الذين لم يشفع لهم كبر السن.ونستأنس هنا برأى طبيب فاضل وابن عالم جليل نشره فى جريدة الأهرام وهو الدكتور خليل مصطفى الديوانى، يقول تحت.

«ثمن البشر» :

كم يبلغ ثمن الإنسان فى مصر؟

إن المادة ٢٣٨ من قانون العقوبات تقول: من تسبب فى موت شخص آخر وكان ذلك ناشئا عن إهماله أو رعونته أو عدم احترازه، يعاقب بالحبس مدة لاتقل عن ستة أشهر ولا تزيد على ٣ سنوات.. (فهى جنحة)، وبغرامة لاتتجاوز مائتى جنيه... أو بإحدى هاتين العقوبتين.

وإذا كان متوسط وزن الشخص البالغ هو سبعين كيلو (قائم)، إذن فالكيلو جرام من لحمه.. «يقف» بثلاثة جنيهات فما أرخص البشر.. قانونا!!.

ولذا ترى السيارات تمرق صواريخ فى الشوارع بلا خوف من عقاب رادع وتسمع عن مواطن يغرق فى بلاعة مجارى ويصعق طفل لامس عمود نور أسلاكه عارية، ويغرق مواطن فى بحر هائج لأن المنقذ انشغل بتأجير الشماسى، ويخترق قطار سكة حديد وسط مدينة فيدهس مشاتها فى منظر عجيب، والجزاء... لاشئ تقريبا فالكل، عامل أو موظف أو سائق سيارة مطمئن إلى ان يد القصاص قصيرة وحنون تكاد تربت على كتفيه بعقابه عقابا رمزيا يريحه من عذاب الضمير.. فهو قد تلقى الجزاء الكامل.. بضعة جنيهات، وإذا سجن فإفراج فى أول عيد كبير بعد نصف المدة لحسن سيره وسلوكه ثم يخرج إلى احضان اهله يزغردون.. واهل القتيل فى حزن إلى آخر العمر.

والعيب ليس - بالضبط - فى القانون بحد ذاته وجل من لا يسهو، فقد صدر قانون الأحوال الجنائية الحالى فى عام ١٩٣٧ - منذ حوالى ٦٠ عاما - يوم كانت المائتا جنيه تشترى اكثر من مائتى جنيه ذهب!! لكن المشرع وقتها لم يخطر بباله حماية قيمة البشر من عاديات التضخم، وهذا هو الفارق بين قانون المخلوق والخالق.. المشرع الأعظم، كرم روح الإنسان - أغلى خلقه - وجعلها مايساوى مائة ناقة يعنى حوالى مليون جنيه وتغيير القوانين الوضعية سهل، خذ مثلا قانون ايجارات الأماكن التجارية - اشتكى اصحاب المحال فارتفع ايجارها.. وتظلم المستأجرون فانخفضت الزيادة الشهرية.. ولماذا نذهب بعيدا؟! قانون المرور الجديد

ضاعف قيمة مخالفاته حتى جعل غرامة الركن فى الممنوع وعدم لبس حزام الأمان.. اغلى من تعويض القتل فى حادث سيارة.

لابد من إعادة النظر فى قيمة العقوبات مادية وجسدية فى كل جرائم القتل الخطأ وخصوصا تلك التى تنتج عن إهمال جسيم واستهتار، وفى زيارتى لأمريكا أخيرا وفى يوم مطير وجدت المحلات وقد وضعت لافتة امامها تحذر من خطر الانزلاق وظننتها لفتة انسانية ولكنها كانت خوفا من اصابة احد المارة أمام المحال والتعرض لقضية وتعويض هائل.. فالروح هناك غالية، وروح المصرى ليست أرخص..

القتل العمد عقابه القصاص والموت، أما فى حالة القتل الخطأ.. فهى الدية.. شرع الله.. جربوها ونفذوها وسوف تؤتى ثمارها.. تعويضا.. وردعا.

أصل المشكلة أن معظمنا لم يتعلم كيف يحافظ على أخيه الإنسان ويحترم حريته وحقه، لذلك ليس غريبا على بعض الموظفين أن يمارس عقده على الجمهور، بصرف النظر عن شيخوخة البعض، وحق البعض ومنهم اليتامى والنساء والمحتاجين ومنهم من لايملك وقته، ومع ذلك تجد الموظف لايأبه، قرارات وظيفته من ناحية وطبعه السئ من ناحية أخرى، يتعاونان على قهر الناس وإذلالهم وكأنهم ليسوا بشرا.

ولقد سمعنا عن عالم مصرى يمر بالشارع متجها إلى سيارته، فتدهسه سيارة مسرعة يقلها شاب صغير، أو خبير يغرق فى باخرة نيلية تحمل اضعاف حمولتها، أو شاب طائش ومدسوس يطعن نجيب محفوظ رمز مصر الأدبى من أجل حفنة جنيهات، والأمثلة كثيرة، ومن قبله مات محمد عبدالحليم عبدالله الروائى الكبير ويحيى الطاهر عبدالله القصاص الموهوب فى حوادث صغيرة..

فهل ربىَّ الآباء أولادهم على أن الانسان كائن مقدس جدير بالاعتبار والاحترام حتى لو أخطأ؟ هل يوجه المدرسون التلاميذ إلى أهمية الانسان وعظمته وضرورة رعايته والحفاظ على مشاعره.

هل يدرك المصريون مدى البشاعة الناجمة عن إطلاق الآت التنبيه بشكل مستمر وزاعق تمثل طعنات فى كل من يستمع إليها، وهل يحسون بمدى الجناية التى يلحقونها بالناس عندما يلقون القمامة فى كل مكان، على حين لايحفلون بالزهور ولايلتفتون إلى الجمال ويفسدون الحدائق ويتركونها مهانة بمخلفاتهم.

والحكومة تحتاج إلى كثير من اللوم على حالة المستشفيات ومعاملة الأطباء للمرضى، ونقص الخدمات فى مدن وقرى الصعيد، وسوء حالة الكثير من المدارس والطرق وعدم تصديها للمخالفين والمقصرين فى حقوق الناس.. ولايجد العقاب الرادع من يأكل أموال الجماهير الكادحة. كل هذا يدل على وزن الانسان فى نظر أخيه الانسان، سواء كان الجانى أو المقصر وزيرا أو سائقا..

موجه فى التربية والتعليم، أى يشغل منصبًا أعلى من مدير مدرسة، وهو موجه، أى معلم المعلمين، يشرف بالرأى والمشورة والنصح على عدة مديرين لعدة مدارس يعمل بها ما لايقل عن خمسمائة مدرس.. اختلف مع زوجته فمزقها وألقى كل قطعة فى منطقة وكذلك فعل بابنته.. هذه هى قيمة الإنسان المصرى.. عند أول خلاف يقطع ويمزق ويحرق ويلقى ماء النار على من يختلف معه.. وإذا كان محترما جدا رفع قضية على كل من مسه بكلمة، ويضيع عمرنا فى المحاكم ومعها مشاعرنا وأعصابنا وراحتنا.

أحياء كاملة غارقة فى القمامة، أحياء كاملة غارقة فى الصرف الصحى.. أحياء كاملة بنيت بشكل عشوائى، أين كان المسئولون؟..

ترعة الابراهيمية على طول مائتى كيلو لاتظلل ضفافها الأشجار ولا تقام عليها الأسوار، حماية للجمهور الذى يتساقط بهم كل يوم السائقون المجانين الذين يتسببون سنويا فى مقتل مايزيد على ستة آلاف وإصابة عشرين ألفًا بالعاهات والتشوهات.

آلاف التحقيقات الصحفية حررها صحفيون، أنفقوا فيها أعصابهم وأعمارهم لا تجد من يجيب أو يهتم أو يخفف من آلام الناس إلا قليلا.. والسبب يظل هو السبب.. نحن لانعرف قيمة الإنسان.. وهو نفس السبب الذى اغتال فيه عدد من المتطرفين الأغبياء نحو سبعين سائحا أجنبيا أمام معبد حتشبسوت فى الأقصر.

يجب أن يتحمل الآباء مسئوليتهم وكذلك العائلات عموما والمدارس والمساجد والجامعات والمؤسسات، وينهضوا بمهمة مقدسة تسبق كل المهام وهى التوجيه لاحترام آدمية الانسان ومشاعره بل وطباعه وظروفه.

إن العالم كله يرقبنا باهتمام لأنه يتأمل حضارتنا المجيدة بشغف ورغم أنفه يقارن .. ويتساءل .. أين هؤلاء من أولئك؟ .. أين الحكمة والخير والمحبة؟؟

إذا لم يكن هو هدف كل مشروع، وهدف كل عمل، وهدف كل تعمير وهدف كل قرار، والمقصود من وراء كل تطور وخدمة، فلن يكون هناك تقدم ولا ازدهار .. لأنه فى الحقيقة أهم ما فى مصر .. والإنسان المصرى لو تعلمون أهم من النيل والأهرامات .. لأنه لو كان فاشلا ومحتقرا يمكن أن يجعل هذه الأشياء مصدر تعاسة وخراب وليست مصدرا للخير والزهو.

الحقيقة أن الشمس ليست مركز الكون ولا الأرض ولا النجوم والكواكب .. مركز الكون هو الإنسان .. ومصر مركزها المصريون، وهى هبتهم ونتاج عرقهم وكفاحهم، وعندما يرضى المصرى عن بلده لا يساويه إنسان فى العالم.

الإدارة.. علم الحياة وسر النجاح

دون مبالغة نقول إنه لايوجد أى نشاط على الأرض أو حتى فى السماء فرديا كان أوجماعيا يتم بدون إدارة، وإذا تم أى عمل بدونها فمصيره الفشل، لأن المسألة لا تحسمها البركة أو التوكل ولكن تحسمها الإدارة.

وهذه الصفحات لاتدعى العلم الدقيق بالقدر الذى يدركه ويجيده أصحاب الادارة من العلماء، ولكنها بالقطع تدرك قيمة هذا العلم أو ذلك الفن الذى يلزم لكل سلوك أو مشروع، ونثق أن كثيرا من الناس لايتصورون أهمية الإدارة ويحسبونها فقط مجرد علم يدرس بالجامعات، فما المقصود بالإدارة مادامت بهذه الخطورة والتأثير؟

اجتهد كثير من العلماء لتحديد مفهوم الإدارة، وتعددت المفاهيم، ولعل أبسطها وأشملها هو أن الادارة هى :

الطريقة التى يتم بها استخدام كافة الإمكانيات بأفضل صورة من أجل تحقيق الهدف. ونستطيع أن نتلمس الادارة فى نماذج لا حصر لها فى حياة الفرد والجماعة كل دقيقة وكل ساعة، إذ هى قرين كل تصرف وكل قول تترتب عليه نتائج.

لنتصور مثلا لاعبًا لكرة القدم فى مركز الظهير تسلم الكرة من حارس المرمى وحاول أن يتقدم بها صوب منطقة الفريق المنافس، من هنا تبدأ الإدارة، وعليه أن يجيب بالوعى أو باللاوعى عن السؤال العاجل والمصيرى: كيف سيتصرف فى الكرة فى حدود إمكانياته بما فيها رؤيته للملعب والآخرين بحيث يساهم فى تحقيق هدف.

ليس المدرب هو وحده صاحب الإدارة فى تنظيم وتخطيط وتوجيه حركة اللاعبين، ولكن اللاعب عليه أيضا مهمة إدارة الكرة فى حركتها الجزئية فى إطار الخطة الشاملة التى رسمها المدرب،.والإدارة العلمية تعنى بالقطع النجاح، أما الفشل فهو نتيجة حتمية للعشوائية والارتجالية.

قد يدهش القارئ إذا علم أن صوت المطرب ليس فقط موهبة من الله وثقافة موسيقية، لأنه أيضا وبشكل أساسى إدارة.. يحتاج المطرب إلى خبرة فى إدارة طبقات صوته.. كيفية إصدار وتوجيه النبرات المنبثقة من هذه الطبقات، ولاريب فى أن أداء المطربين الكبار كأم كلثوم وعبدالحليم وعبدالوهاب الذى خلب الألباب وأسر الوجدان كان دليلا على مدى قدرة كل منهم على إدارة امكانيات صوته.. موهبة طبيعية تسلمها صاحبها فأعانها بالثقافة وصقلها بالمران وحافظ عليها من البرد والصياح والأدخنة والثرثرة والمشروبات الروحية.. بالإضافة إلى الادارة الجيدة لنبرات الصوت أثناء الأداء وهى المرحلة الأخيرة التى ينتقل فيها الجمال الفنى إلى الآذان والقلوب.

الإدارة تتمثل أيضا فى تقسيم الطالب لوقت الامتحان على عدد الأسئلة، فليس من الإدارة الاندفاع فى الإجابة على سؤال يستهلك نصف الوقت ولازال هناك ثلاثة أسئلة كما أن توزيع الوقت بالعدل على الأسئلة فى حين أن سؤالا منها يحتاج إلى إجابة مطولة وحاشدة ليس من الإدارة.

ويقال مثل ذلك على سباق المسافات الطويلة فى السباحة أو العدو، فهو يحتاج إلى توزيع الجهد والوقت عليها، ولذلك فلا يندفع المتسابق فى

عـدو المسافـات الطويلة كـالمتسـابق فـى المسـافـات القصيـرة لمائة متـر أو خمسين، لأنها لا تحتمل التوزيع ولا مفر من الاندفاع بأقصى سرعة.

ولعل ميزانية البيت والتصرفات المنزلية عموما مما يحتاج من الزوجين إلى إدارة بحيث توزيع الاحتياجات الأساسية فى نسق متدرج يخدم الأولويات.. الأهم فالمهم فالثانوى وقبل ميزانية البيت يعنينا التنويه بأهمية إدارة الزوج للزوجة نفسها والأولاد بحيث يستطيع أن يهتدى إلى الطريقة المثلى لمعاملتها واستثمار طاقاتها لخدمة الهدف وهو تحقيق بناء أسرى متكامل ومنسجم.

ومن واقع تجربتى فى متابعة هذه النوعية من العلاقات، أستطيع القول إن عددا كبيرا من الأسر المصرية خاصة فى الأجيال الجديدة تعوزها الإدارة السليمة، ومن ثم الاستقرار على نظام ملائم ودائم لعلاقات منسجمة، بدلا عن الخلافات والنزاعات وتدخل الأقارب والجيران أو اللجوء للمحاكم حسب حجم الخلافات وعنف القرارات. المهم أن اختلال عجلة القيادة فى يد الرجل وسوء إدارته هوماينجم عنه معظم النزاعات المنزلية لأن الادارة قيادة تقوم على المحبة أولا وعلى التنظيم وإيجاد صيغة لتشكيل منظومة عملية من الإمكانات المتاحة دون هيمنة واستعراض سلطوى منفر.

ونقترب. الآن من نماذج عملية أكثر تعقيدا مثل إدارة المصانع والمؤسسات والهيئات والوزارات والحكومات، حيث نلتقى بالعديد من صور الأداء غير المدروس ومن ثم الفشل الذى لحق بمؤسسات تدعمها الدولة، وهذا دليل كبير على تردى مستوى الادارة.. مصنع تسانده الحكومة وتمكنه من الحصول على الخامات والتسهيلات وتعينه بالكوادر والأرض ومواقع التسويق وغيرها ومع ذلك يفشل.. هذا ليس له غير معنى واحد، هو غياب الادارة أو سوءها، ومن ملامح سوء الادارة الذى انتشر بين شركات القطاع العام سهولة حصول المسئولين على مال المؤسسة ونهبه، فضلا عن البيروقراطية وتقاعس التوزيع وغياب مراقبة الجودة بالاضافة

إلى عيوب جسيمة أخرى لم تجد من يراقبها أولا بأول وقيام بعض المراقبين بإغماض العيون فى مقابل المنفعة الشخصية.

من ذلك موقف الخديوى اسماعيل الذى أكثر من الاستدانة واستمرأ القروض الأجنبية التى مهدت السبيل لتدخل الإنجليز والفرنسيين ثم الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ .. ونتأمل الأسلوب العشوائى الذى كان يدير به الملك فاروق الحكم حتى لو أخذنا فى الاعتبار المؤثرات الداخلية والخارجية.

وكما كانت معركة السد العالى ناجحة فقد كانت نكسة ٦٧ نتيجة طبيعية لإدارة سيئة شهدت نقصًا فى المعلومات، سوءا فى التنظيم، تخبطا فى القرار السياسى والعسكرى، مبالغات فى الحماسة وتعجل فى الحكم، فى حين نجد أن حرب أكتوبر كانت قمة فى الإدارة العلمية التى تحولت على أيدى القيادة والجيش إلى سيمفونية إدارية على أعلى مستوى، إلا أن إدارة عملية الانفتاح كانت غير منضبطة وغلبت عليها الانفعالية والعشوائية وهى السمات الأولى لكل إدارة فاشلة.

إذا كان الأب هو رب الأسرة، فالمدير كذلك يجب أن يكون رب أسرة المصنع أو الشركة أو الهيئة، وإذا لم يكن الأب مديرا للأسرة يمضى بزورقها نحو الهدف ونحو حياة سعيدة بمشاركة كل الأفراد فى منظومة منسجمة بفضل حسن المعاملة والقرارات السديدة فى وقتها المناسب ودون أن يوقع الزورق وركابه فى مواقف مصيرية تعسة أو مفترق طرق يفضى إلى التمزق، فذلك يعنى فشله وضياع الأسرة.

أذكر أنى كنت فى صغرى أعجب للمثل الشعبى الذى يقول: بيت المهمل خرب قبل بيت الظالم «وكنت ومازلت أكره الظلم كرها لامزيد عليه، وكان لى أستاذ أحترمه، يضيف إلى المثل قوله : بيت المهمل حتى لو متدين يخرب قبل بيت الظالم» وتزداد دهشتى، ويقول الأستاذ:

- إن الصلاة والحج والزكاة وغيرها لاتمنع من الانتباه لأمور الدنيا ولا تحول دون الحرص والحذر، والطيبة لا تعنى الغفلة، واذا كان الرجل تقيا

ورعا ولكنه نسى غلق محله فهو عرضة للسرقة، أما الظالم مادام يحسن إدارة ماله فسوف يربح.

تشتمل الادارة على عدة عناصر أساسية هى التخطيط.. أى تحديد الهدف ووضع الخطة التى يمكن فى حالة تنفيذها بلوغ الهدف المنشود.

ثانيا : التنظيم ويقصد به وجود تشكيل محكم لاستثمار الامكانيات وطاقات الأفراد والموائمة بين متطلبات العمل وحاجات العاملين.

ثالثا : التنسيق : توفير الانسجام بين شتى الوحدات وعمل آلية للقضاء على المعوقات تقوم على المرونة والتوجه مباشرة نحو الهدف وخلق مناخ مشجع على كفاءة الأداء.

رابعا : الرقابة ومتابعة النشاط والأداء فى مختلف مراحله وتحديد أية انحرافات عن معدل الأداء الموضوع مسبقا فى الخطة.

وإذا حاولنا الاقتراب أكثر من الهيئات والمؤسسات الحكومية التى نزعم أن معظمها يفتقر إلى أبسط قواعد الإدارة، مما يترتب عليه أضعف النتائج المادية والأدبية سواء فى القطاعات الخدمية أو الاقتصادية بدءا من المدرسة الابتدائية إلى مشروع توشكى فسوف يحتاج الأمر إلى التوقف عند المحطات التالية:

◆ يبدأ العمل فى أى مشروع بتعيين مسئول يناط به كافة العمليات الإدارية التى تتلخص أساسا فى تنفيذ العناصر السابق الاشارة إليها من أجل الوصول إلى الهدف، ولذلك حرص أساتذة الادارة على تحديد الصفات الرئيسية للمدير المسئول عن انجاز أى مشروع أو مؤسسة وتشغيل مالديه من إمكانيات وكوادر وظيفية وتحريضهم على العمل فى نسق إنسانى محقق لأكبر كم من الانتاج السلعى أو الخدمى بأقل التكلفة وأقل الجهد والوقت، ومن صفاته :

١ ـ العلم والخبرة.

٢ - قوة الشخصية.

٣ - الموضوعية.

٤ - الجدية وتحمل المسئولية.

٥ - حسن المعاملة، واستثمارها فى خلق مناخ منتج.

٦ - الإخلاص والأمانة.

٧ - الخيال والقدرة على الابتكار.

٨ - الوضوح والثقة بالمرؤسين.

٩ - الفهم الدقيق لدوره فى المشروع.

١٠ - القدرة على إصدار القرار المناسب فى الوقت المناسب.

١١ - التفرغ التام للمؤسسة.

وتجدر الاشارة أن نجاح مشروع ما لايتطلب حصول مديره على الدراسة العلمية الجامعية فى نفس مجاله، وإن كان يفضل ذلك، فالخبرة إذا توفرت بشكل طيب وكبير يمكن أن تعوض النقص الدراسى، وإن كان فهم أصول الادارة هو الأساس فالمحاسب يدير مستشفى والضابط يدير مرفق مياه، والطبيب يدير مؤسسة ثقافية.. المهم توفر عناصر الادارة.

والآن حان أن نسأل أنفسنا، ولابد أن لكل منا معرفة أو دراية ومواجهة مع بعض المديرين المسئولين فى عدد من الواقع: هل هم جميعا كانوا يتصفون بالصفات التى سبقت الإشارة إليها؟

إننا نقرأ عن إنجاز المديرين المرموقين وعن فشل آخرين عاجزين، وإذا استعرضنا حالة الكثير من المؤسسات التى عجزت وخسرت وضلت الطريق سنجد عيبا إن لم يكن عيوبا تتكرر. فأحيانا لانجد قوة الشخصية وأحيانا تغيب الأمانة والاخلاص، أو ينعدم الخيال وقد لا يمنح المدير كل وقته للمؤسسة سواء برغبته وانشغاله بمصالحه أو بتكليف من جهة عليا..

وكم فى مصر من مديرين يتولون الاشراف على ثلاث وأربع جهات غير العضوية فى مجالس الإدارات.

البداية إذن هى اختيار المدير، ومع هذه البداية تواجهنا مشكلة، إذ أن أغلب المديرين يتم اختيارهم على أساس الواسطة أو المعرفة والعلاقات الشخصية، وكم من زوجات قمن بإصدار أوامرهن الكريمة للأزواج أصحاب النفوذ لتعيين مديرين فى مناصب معينة، والمسألة ليست قاصرة علي الزوجات بل على القريبات والصديقات والعشيقات أيضا يمكنهن التأثير بقوة على صنع القرار، لأن كثيرا من المسئولين فى بلادنا طيبون ومشغولون وحسنو النية ومجاملون ويسعدهم أن يكونوا سببا فى فرح القوارير، وإذا لم يكن ذلك كذلك فما سر وجود كم كبير من المديرين غير المؤهلين فكريا وشخصيا ومهنيا، فهذا ابن اخت عضو مجلس الشعب، يوضع على الكرسى فجأة ويزاح عنه رجل خبير أو عالم، وهذا ابن خالة سكرتير الوزير، يظهر فجأة ويشغل المنصب الكبير بدلا من سيدة فاضلة صاحبة خبرة والكل يعلم أنها هى التى حملت وتحملت أعباء الادارة سنوات.

وهذا قريب من بعيد لسائق مدير مكتب رئيس الوزراء.

ولاتحسبن عزيزى القارئ أن المشكلة انتهت هكذا بأن أصبح هو المدير وشكرًا لصاحبة العصمة وشكرا لصاحب النفوذ.. لا.. فلو كانت هذه هى نهاية المطاف فليست هناك مشكلة، لأنه لو كان جاهلا تعلم بمرور الأيام، ولو كان ضعيفا أعانه مساعدوه، ولو.. ولو.. لكنه عندما يشرع فى الاستفادة من منصبه ومص دم المؤسسة فلن يلومه أحد على ذلك ولن يحاسبه، ومن هو الذى يجسر على محاسبته؟ ومن هو الذى تسول له نفسه أن يذكر النسيب والحسيب بصفة سلبية.

وعلى فرض وجود هذا الشخص المارق الجسور الذى يذكر الصفات السلبية فى المدير أو يستمع إليه ومن يبحث فى حقيقة ما يقال، وما قيمة كل ذلك والظهر المكين سيتصرف، وإذا لم يستطع فإنه يستعين بمن يتصرف، والمستعان به يمكن أن يلجأ إلى الأعلى ليتصرف..

هل ياترى نستطيع بعد هذا تصور حجم الخسارة والفشل الذى يمكن أن يحيق بمؤسسات من وراء سوء اختيار المديرين؟

لقد اختزل الرسول الكريم علم الادارة فى عبارة.. قائلا :

«كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»

◆ المحطة الثانية تتناول أحد عناصر الادارة وهى : العمل على تحقيق التفوق والتميز فى استثمار كل الطاقات الخلاقة سواء بشرية أو تكنولوجية.

مساكين علماء الإدارة.. ليس لديهم فكرة عما يجرى فى مصر.. أى تفوق وتميز..وهل هناك أداء عادى لكى يكون هناك تفوق.. التفوق يتأتى بلوغه من المتابعة والمراجعة والمراقبة والتجويد وسياسة الثواب والعقاب والتشجيع والقدوة والمشاركة فى العمل والاطمئنان على العاملين.. إلى غير ذلك من تفصيلات وجزئيات طبيعة عمل المدير ولا أحسب أن منها شئ يتحقق.. هناك اعتماد على مساعدين.. أو على تقارير.. وكلاهما مشكوك فيه إلا قليلا، فقد تشوبه المنفعة والأغراض أو يؤثر فيه التحيز لنفر دون آخر أو ينحرف به الترتيب للمؤامرات.

ويقول علماء الادارة: ضرورة استثمار الطاقات الخلاقة سواء البشرية والتكنولوجية.. وأقترح أن يذهب علماء الادارة إلى بعض المؤسسات ليشهدوا بأنفسهم كم الآلات والأجهزة الحديثة المكومة فى مخازن وأفنية هذه المؤسسات الحكومية التى أنفقت الدولة من مال الشعب لإحضارها مئات الملايين، منها المتروك فى العراء يأكله الصدأ أو يستولى عليه اللصوص قطعة بعد قطعة.

وحسن قيادة الكوادر واستثمار مواهبها لابد أن تدعمه آليات للثواب والعقاب، وللاسف فإن منظومة الجزاء بشقيه فى مصر مضطربة، فربما نزل عقاب شديد بشخص قليل الخطأ وقد يثاب مخطئ كبير وقد يلقى آثم كبير عقابا بسيطا، وقد يغيب التكريم عن الموهوبين والأفذاذ فى حين يتمتع به وبسرعة المنافقون والأتباع.

◆ معيار مهم من معايير الادارة هو رضا العملاء.. لو كان هذا المعيار مهما لما وجدنا سلعا من إنتاج شركات القطاع العام ملقاة فى المحلات لايقترب منها عميل لأنها سيئة التعبئة والتغليف، ولأنها غير مطابقة للمواصفات أو غالية الثمن.. وإذا تم تصديرها عادت أو أهملت ولم يتجدد الطلب عليها، أما عن الخدمات فلاتسأل.. لأن المواطنين يعانون معاناة لامثيل لها فى بعض قطاعات الخدمات والبيروقراطية تقوم بالمهمة المقدسة فى الاساءة البالغة للناس وتبديد أعمارهم ووقف أحوالهم، والموظفون فى كثير من الجهات لايتحركون ولايهتمون لأنهم غير مبالين، والصحف تنوء بملايين الشكاوى التى لايتحرك أحد لحلها أو قراءتها أو فحصها والرد عليها.

◆ من معايير نجاح الادارة حسن توزيع الانفاق على مختلف عناصر الانتاج، لكن الادارة فى مصر تبدأ في العادة بإنفاق مبالغ طائلة على تأسيس وتأثيث مكتب المدير وتغيير الديكورات وشراء سيارات جديدة ونشر الإعلانات عن التهانى والتعازى والمجاملات، والإنفاق الحكومى بالذات على مكاتب المسئولين وما يلزمها كبير جدا جدا ولايتناسب مع دولة تسعى للنهوض.

◆ الادارة الناجحة تحرص - كما يقول علماؤها - على القدرة التنافسية وزيادة معدلات نموها وكفاءتها فى الاستجابة السريعة لمتطلبات السوق، ولاتكاد تبدو ثمة علاقة بين الادارة فى مصر وهذا الكلام النظرى.. فمدير المؤسسة لا تعنيه هذه القدرة التنافسية، ينافس من؟ وكيف ينافسه؟ إنه معين بقرار وزارى أو رئيس وزارى، فمن يخلعه إذا أخطأ أو سرق أو بدد.. هذه مؤسسة حكومية رسمية، لاتقبل الحكومة نفسها ولا تسمح للمسئولين فيها بأن يكونوا مقصرين وهى تعلن دائما - بصرف النظر عن الحقيقة - إنهم فوق مستوى الشبهات، وسوف تكسب المؤسسة رغم أنف الجميع ولو أدى الأمر إلى اغلاق محلات المنافسين من القطاع الخاص أو سد الطريق عليهم أو وضع العقبات فى طريقهم.. أما

فيما يختص بالتصدير أو الحصول على الخامات أو تقييدهم باللوائح والقوانين المعوقة أو بالضرائب أو المفتشين التجاريين، هناك ألف طريقة لجعلهم يندمون على المناطحة.

❖ من معايير الادارة الناجحة، إصدار القرارات المناسبة فى الأوقات المناسبة.. والحق أن موضوع القرارات فى مصر يحتاج إلى كتاب مستقل، لأن طريقة إصدار القرار لها سمتين، إما أن تصدر القرارات بأسرع مما يتخيل الانسان أو يفكر، أو تصدر القرارات ببطء السلحفاة بعد أن تكون مالطة قد خربت. ومن أمثلة هذا و ذاك..

قرار إلغاء السنة السادسة من التعليم الابتدائى.. قرار عجيب صدر فى عجلة.. وكيف صدر ولماذا؟ قرار يمثل استهانة بالغة ليس فقط بالمصريين ولكن بعلماء الادارة وصناع القرار.. تصوروا يا علماء الإدارة قرارًا بإلغاء سنة تعليمية، كأنه قرار بإزالة كشك وضعه صاحبه على الناصية فى أحد الحوارى.. كان الله فى عون هذا الشعب الذى تعود أن يرى ويسمع عن العجائب.. وأيضا يعاينها. فهى كلها تلف تلف وتقع فوق رأسه فتحرمه النوم والطعام وتسد نفسه عن الحياة.

والغريب أن الرد الذى أجيب به عن أسباب الالغاء هو قلة عدد فصول المدارس الابتدائية.. أنها مصيبة بكل معنى الكلمة لكن نتخلص من الأزمة الناجمة عن قلة فصول المدارس الابتدائية، نسرع بنقل تلاميذها إلى المدارس الاعدادية، وكأنهم هناك سيجلسون فى الأفنية، ونسرع بنقلهم إلى المدارس الثانوية، ثم دفعهم وهم لم ينضجوا بعد إلى الجامعات ومن بعدها إلى سوق العمالة.. لأن سوق العمالة لاتجد عمالا ولا موظفين، ونحن نستورد العمالة من الخارج، ولذلك نتعجل تقديم قوى عاملة للحياة الاقتصادية المزدهرة ونخفف عن المدارس الابتدائية.. وإذا تخرج كل هؤلاء؟ فإنهم يريدون أعمالا وشققا وسيارات وشوارع وخدمات وزوجات وينجبن أولادا.. لأننا بلد قليل السكان..

وقيل مما قيل إن ذلك حدث لأسباب اقتصادية.. ولاتعليق.. المهم أن عشر سنوات على الأقل من التخبط أصابت مراحل التعليم فى مصر بسبب قرار متعجل كلف ميزانية الدولة مليارات وتأثر به الاقتصاد تأثرا بالغا.. أسوأ ما فى الأمر يكمن فى الأجابة على السؤال الآتى: أين كان أعضاء مجلس الشعب؟.. أين الحكومة.. أين الصحافة.. أين علماء التربية أين خبراء التعليم.. أين.. كل أينات الدنيا والأجابة واحدة.. إنها فكرة عبقرية.. من أين جاءت؟. وكيف غابت عنا على أية حال لقد عدنا مرة أخرى إلى ماكنا عليه وأرجعنا السنة السادسة.. ويبدو أن ذلك تم بعد إصلاح الاقتصاد.

نموذج للقرار البطئ الذى يعانى ولادة متعسرة منذ ربع قرن هو القرار الخاص بإيجار المبانى القديمة التى كانت الدولة قد أصدرته قديما وحاولت عن طريقه كبح جماح أصحاب العمارات فى اغتيال السكان بإيجارات عالية فشكلت لجانا للتقييم وتحديد الإيجار تحت مسمى لجان الإيجارات.. فما موقف شقق إيجارها جنيهان وثلاثة وعشرة وإلى جوارها شقق إيجار الواحدة خمسمائة.

صديقى لديه عمارة بها عشرون شقة، يتقاضى عن كل شقة سبعة جنيهات، ١٤٠ جنيه من عمارة، أرضها وحدها تساوى مليون جنيه.

إن إصدار القرارات فى مصر كارثة إدارية يجب تداركها، فهو فى الغالب يصدر فى ثوان دون دراسة كافية وبناء على وجهة نظر فرد، أو بناء على وجهة نظر مجموعة من المنافقين أو المتحيزين.. بل إن شخصا واحدًا من المجموعة قد يجرهم جميعا تجاه رأيه.

قرارات تفتقد العلمية والموضوعية والدرس المتقن للأسباب والعواقب والآثار.. وكثير منها متضارب ويمتلئ بالثقوب.. والأغرب من هذا جميعه أن بعضها لايسمح للمواطنين أو الموظفين بالإفادة بما تخوله لهم أو تقرره

من مزايا أو حقوق، إذ يقف ضدها بعض المسئولين، ولاينالها أصحابها إلا بعد مقاضاة الجهة ورفع دعوى والمثول أمام المحاكم لطلبها، والأدهى من ذلك أن الحكم لصالح الأفراد لايستطيعون تنفيذه، فكم من مديرين رفضوا تنفيذ القرارات والأحكام تحيزا للبعض ضد البعض وتعنتا ولددا فى الخصومة وعنادا فى الرفض وإصرارا عليه.

ومن عيوب المسئولين الشهيرة فى مصر مايلى :

١ - عدم الاهتمام بوجود تنظيم للعمل.

٢ - الغموض والارتباك فى المسئوليات والصلاحيات.

٣ - التأثر بالمنافقين.

٤ - التوجه نحو المصلحة الشخصية.

٥ - المدير هو الكل فى الكل ورأيه معمول به حتى لو خطأ.

٦ - إهمال التدريب ورفع الكفاءة للعاملين.

٧ - التغيب كثيرا عن العمل وتعطيل مصالح المواطنين.

٨ - عدم الثقة بالمرءوسين.

٩ - إهمال الأسلوب العلمى فى التشغيل أوالتغيير.

١٠ - الافتقار إلى العمل بروح الفريق.

ليس جديدا القول بأن مصر تحتشد بالثروات البشرية والمادية وكذلك المواهب والخبرات التى تتخطف بعضها الدول الكبرى والصغرى، لكن سوء الادارة الذى يتجلى فى غياب الموضوعية، وتغليب الهوى الشخصى هو الذى يجعل هذه الثروات تتحول إلى مشكلة، نتعثر فيها، وإذا بنا نواجه مشكلة، سكان، ومشكلة عجز تجارى ومشكلة خريجين وبطالة، ومشكلة، إدارة محلية، ومشكلة، فى استثمار الطاقات مثل وضع بحيرة ناصر والمنزلة وادكو.. وحالة هذه البحيرات جميعها تدل على أن مصر ليس فيها شخص واحد يعرف ماذا يجرى بها ولايفهم أ. ب الادارة.

هناك عجز فى المدفوعات وهناك عشرات المليارات تنفق فى الاستيراد وتخبط بين الوزارات ونزاع بين المؤسسات وازدواج فى الادارات وقضايا بين الأفراد والحكومة.. كل هذا وعندنا علماء فى الإدارة وخبراء أصحاب نظريات وأفكار عبقرية.. فما السر؟ المسألة تظل فى مصر مسألة أشخاص وليست أنظمة أو معايير.. لننظر إلى مؤسسة فاشلة ومضطربة والعاملين فيها كارهون لها وعندما يتم تغيير مديرها، ويأتى آخرتدب فيها الحياة وتتحسن الأحوال ويقبل العاملون عليها حبا وعطاء وفخرا، وتتألق المؤسسة وتزدهر وتلفت الأنظار.

الإدارة: تخطيط وتنظيم وتنسيق واستثمار ومراقبة.. وهدف.. إذا حددنا الهدف ولم تتوفر الوسائل التى تشكل المنظومة التى تتوجه نحوه وفى مقدمتها المدير وآليات الأداء فلن يكون هناك نجاح بل فشل ذريع، ذلك لأن البيروقراطية هى أكثر الأخطار التى تهدد الادارة فى مصر وتتفاقم كلما كانت القيادات قديمة ومسنة وثقيلة الحركة، استمرأت قعود الفكر وآمنت بأنه ليس بالإمكان أبدع مما كان.

القاهرة.. مشكلة مصر الأولى

تعد عاصمة جمهورية مصر العربية واحدة من أكثر عشر مدن ازدحامًا فى العالم بعد نيو مكسيكو وطوكيو ونيودلهى وبيونس أيريس وغيرها، وعندما نتحدث عن القاهرة فإن ذلك يعنى ضمنًا الحديث عن مدينة الجيزة وليس محافظة الجيزة، وعلى هذا فإن القاهرة التى نقصدها وتشغل حيزًا عمرانيًا واحدًا ومتلاحمًا يبدأ من أول طريق مصر الإسماعيلية شرقًا حتى أول طريق مصر إسكندرية غربيًا ومن وادى حوف ومدينة ١٥ مايو جنوبيًا حتى مدينة السلام والمرج شمالاً وهى مساحة تتجاوز ثلاثة آلاف كيلومتر يسكنها نحو خمسة عشر مليونًا من البشر.. أى ما يقرب من ربع سكان مصر جميعًا وحوالى ٢٨٪ من مجموع الشعب المصرى، إذا أضفنا عدد المتعاملين فيها ومعها خلال النهار الذى لا يقل عن ثلاثة ملايين مواطن.

والقاهرة مدينة قديمة كما كان لها وجود تاريخى لم يتوقف عنده الكثيرون، وبدأ صيتها مع دخول عمرو بن العاص فاتحًا مصر واستقراره فى حى مصر القديمة (الفسطاط سابقًا) ومع أهمية مصر التاريخية بوصفها منطقة جذب وتأثير وإشعاع فى المنطقة منذ آلاف السنين صعد نجم القاهرة كعاصمة للدول التالية فكانت تسمى «العسكر» فى جزء

جديد منها ثم «القطائع» إلى أن سميت باسمها الحالى مع قدوم الدولة الفاطمية التى اتخذت من القاهرة الإسلامية فى المنطقة الواقعة بين العتبة والإمام الشافعى والدراسة حتى باب الشعرية مقرًا لها وكان الأزهر منارتها والقلعة حصنها وتاج أسوارها التى أقامها القائد المظفر صلاح الدين بعد إطاحته بالدولة الفاطمية وتأسيسه الدولة الأيوبية.

تقع القاهرة بالنسبة لمساحة مصر وجغرافيتها على رأس نخلة الوادى المعمور وقبل سعفه (الدلتا).. فالوادى الممتد من حدود السودان إلى البدرشين والحوامدية على شكل نخلة سامقة تميل بجذعها قليلاً من طول الزمن وعمق التجربة عند محافظة قنا، والقاهرة تقبع فى قلب جمار النخلة قبل أن يتفرع منها سعفها الكثيف فى اتجاه الشرق والغرب والشمال، مطلاً باتساع نسبى على أمواج المتوسط، وهى أكبر مدينة فى أفريقيا والشرق الأوسط.

القاهرة مدينة كوزموبوليتانية عالمية معقدة، تراكمت فى طياتها طبقة فوق طبقة وتجمعت فى أحضانها مختلف الجنسيات والأعراق وانصهرت العديد من العناصر والأجناس، وفضلاً عن ذلك فهى خلاصة مصر، استطاعت على مدى سنوات طويلة أن تجتذب أبناء الوطن من كل الأطراف ليقيموا فيها وينجبوا الذرية ليتشكل خليط جديد من كل عناصر الأمة، فهى إذن المزيج الكلى الخالص لكل ما هو مصرى.. وليس غريبًا لذلك أن يسميها كل سكان الوطن مصر.. فساكن الواحات يسميها مصر، كما يسميها السيناوى والمنياوى والمنصورى والسكندرى والريفى والحضرى، هى الأم والوطن والعاصمة والحضن والرئاسة والأمر والنهى والنور والمجد والقدوة والحرية، وهى الأمل، والقادم منها مكروم ومفضل، ومحسوب ومحسود.

وإذا كانت القاهرة فى ملامحها الآنفة هى القاهرة فى ثوبها الشاعرى الجميل، وبهاءها المشع وأثرها الساحر والآسر وهى تطل من

بللورتها المتوهجة بالجمال والألق، فما هى القاهرة الجسد والمادة.. الحقيقة والحجم والأبعاد.. المكان والسكان.. الحدود والوجود.. العمل والإنتاج.. السلطة والنفوذ.. آليات الحياة.. فعاليات الحاضروالمستقبل، وحقيقة كونها تمثل لباقى الأقاليم ما تمثله أمريكا بالنسبة للعالم، كما يقول البعض، والحق أن العلاقة أكثر تعقيدًا والتحامًا، وإلى أى مدى توحى بأنها وأبناءها القابضون على كل الخيوط، المتمتمون بكل المزايا.. لهم البطولة، والآخرون الكمبارس.. وفى كل الأحوال وضعية مركبة وملتبسة تحتاج إلى تأمل عميق وتحليل موضوعى تدعمه الرؤية المستقبلية، بعيدًا عن رؤية المصالح وسيطرة الحاضر.

القاهرة.. سيدة مكافحة وكريمة أعطت الكثير عبر تاريخها وتحملت الكثير فى حاضرها، وقد أنهكها القرن العشرون بأحداثه الجسام ولكن التاريخ كله والنصف الأول من القرن العشرين لا تمثل عبء سنواتهم ما جرى لها خلال النصف الثانى من القرن الماضى، فقد ثقلت الأحداث وعلت مكانة القاهرة سياسيًا وإعلاميًا ودوليًا وأصبحت محط الاهتمام العالمى بعد قيام ثورة يوليو وتأميم القناة فى ١٩٥٦ ثم الوحدة مع سوريا عام ١٩٥٨ ومجانية التعليم والازدهار الصناعى المناسب للفترة التاريخية والشعبية والسياسية، وتضاعف الاهتمام بها بعد حرب أكتوبر المجيدة عام ١٩٧٣ اندفع نحوها الباحثون عن المال والشهرة والرزق والخدمات الجيدة من كل أنحاء الوطن مع سياسة الانفتاح، وحاجة رجال الأعمال وطالبى الوظائف إلى الاتصال بمراكز السلطة والقرار وأصحاب المشروعات الكبرى ووسائل الإعلام والبنوك، الأمر الذى علا معه مؤشر المركزية رغم محاولة الدولة تشجيع اللامركزية فى التصرف السيادى والمالى وإن كان لا يزال فى حدود كابحة.

تضخمت القاهرة فى ربع القرن الأخير بشكل مخيف، وجذبت إليها الملايين سواء للسكنى والعمل بها أو العمل فقط، وتشكلت فى خلال سنوات قليلة نحو مائة منطقة عشوائية تشغل حيزًا عمرانيًا كبيرًا ويمثل

سكانها ٤٠٪ من سكان مدينتى القاهرة والجيزة.. ومرة ثانية نقول إن العشوائيات تضم ٤٠٪ من سكان المدينة المتضخمة القاهرة بقسميها شرق وغرب النيل.. إذ القاهرة تشغل كل ما هو شرق النيل بما فيه الجزيرة، والجيزة تقع وتشغل كل ما هو غربه.

وعلاجًا لذلك أنشئت مدن جديدة كثيرة، وأضيف نصف القاهرة على الأقل إليها خلال الأربعين سنة الأخيرة، وتم القضاء على عشرات الألوف من الأفدنة الزراعية الممتازة ومن المتوقع المزيد من إهدار الأرض بعد امتداد الطرق الدائرية.

القاهرة باختصار ودون أية درجة من التشاؤم.. لم تعد تحتمل نفسها، وقد أجريت لها فى العشرين سنة الأخيرة العديد من عمليات التجميل والإضافة والحذف، واستبدال الشرايين لكى تستطيع تحمل:

١٨ مليون مواطن
٨ مليون قوى عاملة
٥ مليون تلميذ (مدارس وجامعات)
١ مليون سيارة خاصة وأجرة وميكروباص
١٥ ٠٠٠ منشأة صناعية
٥ ٠٠٠ مسجد
٢٠٠ كنيسة
٢٠ ٠٠٠ ورشة حرفية
١٥٠ فندق
عشرات الفنادق النيلية
مئات المطاعم، وآلاف المقاهى
آلاف الأكشاك
٣٠٠ ناد رياضى ومركز شباب
٣ ٥٠٠ مخبز
٦ ٠٠٠ مدرسة

نصف مليون معوق

٦ جامعات

٣٠٠ كلية ومعهد

ملايين من أطنان القمامة سنويًا

خمسين ألف سيارة نقل وأتوبيس

ألف مستشفى

٣٥ محطة مياه للشرب

١٥٠ محطة صرف صحى

٢٥ محطة كهرباء

مئات الكيلومترات من الكبارى والأنفاق

١٠٠ سنترال تخدم ٣ مليون خط

عشرات المتاحف.

نصف مليون شحاذ

- عشرات المسارح ودور السينما.
- عشرات المراكز العلمية والمعاهد الثقافية.
- مئات السفارات والقنصليات والمنظمات الدولية
- مئات البنوك.
- بها أكبر المصانع فى مصر (حلوان وشبرا).
- بها تقريبًا كل وسائل الإعلام والصحف قومية ومعارضة ووكالات الأنباء.
- أكبر المطابع.
- مئات الملاهى.
- عشرات المراكز التجارية الضخمة.
- بها طبعًا المقر الرسمى للحكومة ورئاسة الجمهورية.. الوزارات والهيئات العامة ومكاتب لجميع الشركات حتى العاملة فى الصحراء، فضلاً عن المجالس النيابية والمؤسسات الرسمية والشعبية والاجتماعية والتموينية.
- أكبر الحدائق العامة فى الجمهورية (الحيوان والأورمان وغيرهما).

- أكبر نسبة تلوث فى الشرق الأوسط وثالث نسبة على مستوى العالم.
- أكبر نسبة كثافة سكانية فى الوطن العربى فى الكيلومتر.
  تتم بها أكثر من نصف تجارة مصر..
- تلتهم القاهرة ما لا يقل عن نصف المخصصات لمختلف المحافظات فى ميزانية الدولة.
- تدخل القاهرة كل صباح آلاف السيارات الخاصة والنقل قادمة من المحافظات المختلفة لإنجاز أعمالها الشخصية والحكومية.
- يضيع على مصر يوميًا ما قيمته أربعين مليون جنيه من تبديد الوقت فى حركة السير والمرور بالمدينة (٨ مليون عامل × ساعة × ٥ ج متوسط).

ماذا يعنى ما استعرضنا فى السطور السابقة؟..

إنه يعنى الكثير جدًا جدًا وبأكثر مما نتصور.. إنه يعنى فى أحسن الحالات كارثة لا تحيق بالقاهرة وحدها ولكن بالأمة جميعها وليس فيما أذهب إليه تحريض على اليأس أو الأسى، وليس فيما أذكره أية إشارة عن مستقبل أسود ينتظر الجميع، لكن الدلالات ثقيلة والتعرف عليها يسير، ودقائق من التأمل تكفى للإحساس بحجم ما سينتهى إليه حال القاهرة وأهلها، وأيضًا كثير من المناطق فى الجمهورية خلال مدة لا تتجاوز عشر سنوات..

والآن إلى صورة القاهرة فى السنوات القادمة..

من خلال إحصاءات الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء.. نعرف أن عدد سكان مصر عام ٢٠٠٢ هو ٧٠ مليون، ومن المتوقع أن يكون فى عام ٢٠١٠ نحو ٨٠ مليون مواطن.

وسوف أتحدث عن الوضع الحالى، لا عن المستقبل.

تشير إحصاءات الجهاز المركزى إلى أن:

٣٠٪ من سكان مصر تحت ١٥ سنة

و ٢٠٪ من سكان مصر بين ١٥ ـ ٢٠ سنة
و٤٠٪ من سكان مصر بين ٢٥ ـ ٦٠ سنة
و١٠٪ من سكان مصر فوق الـ٦٠ سنة

أى أن القوة المنتجة وهى الواقعة بين ٢٥ ـ ٦٠ = ٤٠٪.

والذين يحتاجون إلى إعالة هم ٦٠٪ تحت الـ٢٥، وفوق الستين، ولو أرجأنا الحديث عن الذين تجاوزوا الستين فسوف نلحظ أن ٥٠٪ من الشعب بدون عمل لأنهم أطفال وشباب فى المدارس والجامعات ومؤكد أن من بينهم من تسرب فى الطريق والتحق بالعمل.. أى عمل..

إذن فهناك على الأقل ٤٠٪ من الأطفال والشباب الذين يعالون وهم يمثلون نحو ٢٨ مليون نسمة من مجمل سكان مصر،

أما القاهرة فعلى فرض أن سكانها ١٥ مليون، فيكون عدد المعالين فيها ٦ مليون نسمة، وهم يحتاجون بدءًا من الآن وخلال عشر سنوات ما يكفيهم من المساكن والوظائف والتليفونات والسيارات ومختلف الخدمات كالكهرباء والمياه والصرف الصحى والطرق والمستشفيات والأندية.

هذا العدد من الشباب والشابات يحتاج على الأقل إلى ثلاثة ملايين شقة.. هل يمكن تصور ذلك على أى نحو؟!.. أى مائة خمسة وعشرون ألف عمارة من ستة أدوار (١٢٥,٠٠٠ عمارة) كل منها مكون من ٢٤ شقة.

ولو فرضنا أن العمارة تحتل خمسمائة متر مربع، فإن هذه العمارات تحتاج إلى ٦٠ ألف كم^2 للعمارات فقط عدا الشوارع والحدائق والمدارس والمستشفيات والجسور ومبانى الخدمات و.. و..

أى أن المطلوب أضعاف القاهرة.. فهل سنسمح للقاهرة بالامتداد حتى ممر متلا شرقًا وواحة سيوة غربًا والمنيا جنوبًا!!

هذا من حيث السكن، فماذا عن العمل؟

فإذا كان هذا العدد يسكنون القاهرة (المقصود بالكلام الـ ٦ مليون طفل وشاب) وعندما يتخرجون يحتاجون للعمل، بوصفهم مستقبل مصر وقواها العاملة فهل يمكن إنشاء ستين ألف مصنع وشركة ليعمل بها كل منها مائة خريج.. تصوروا أن يكون المطلوب بناء وتأسيس هذا الكم الهائل من المصانع والشركات (٦٠,٠٠٠) في زمن الخصخصة.. وأن تكون هذه المصانع - حتى لو كل منها يشغل غرفة واحدة - فى القاهرة.. فهل تحتمل القاهرة أن تكون من جديد ودائمًا مكانًا لسكنى وعمل ونزهات وحركة وانتقال هذه الملايين..

إنها الآن لا تحتمل، فكيف هو حالها بعد سنتين وبعد خمسة، فإذا لم نستطع - وهذا ما سوف يحدث بالفعل - أن نوجد كل هذه الأماكن للسكن، وكل هذه الأماكن للعمل.. فماذا سيفعل هؤلاء الشباب؟ مع مراعاة أن الموقف الآن (عام ٢٠٠١) يكشف عن خطر شديد وما يحدث من جرائم وانتهاكات وتجاوزات وأخطاء أقل بكثير مما يتعين أن يكون فى ظل بطالة وعشوائيات.. زحام.. أثرياء لا يعرفون معنى الرحمة أو الدين ولا يقدرون الظروف، ولا يساعدون المحتاجين، ولكنهم ينفقون باستعراض ويقتحمون الشوارع بسياراتهم الفارهة، ويكسرون القوانين ويغيرون أى شىء يتعارض ورغباتهم ورغبات أولادهم..

فى الشوارع الآن مائة ألف طفل متشرد يجوبون طرقات وحوارى القاهرة ويناموت تحت كباريها وفى حدائقها ويقومون بكل الأعمال الرذيلة والمتدنية من السرقة إلى النصب إلى التسول والاغتصاب والشذوذ والتدخين وتعاطى المخدرات والضرب والتشويه والقتل.

إن سكان القاهرة الآن لا يستطيعون الإقرار بأن حقوقهم متوافرة.. فالنقص يهدد كل الخدمات.. يكفى الإشارة إلى المدارس على فرض أن هناك تعليم، فهل هناك أنشطة رياضية وفنية..؟؟ لا يوجد فى الأغلب شىء من هذا، ولا توجد حدائق كافية ولا شوارع أو جراجات لوقوف

وانتظار السيارات، وبعض الأحياء العشوائية بلا مرافق ولا خدمات، والصورة عمومًا لا تنبئ بمستقبل طيب فى ظل النقص الحالى، ليست الظروف القائمة الآن بقادرة على إنتاج مواطن صالح فى المستقبل يليق بما ينتظره من تحديات رغم الكم الهائل من الأعمال والجهود والأموال التى تبذل من قبل الحكومة.

هل خريج هذه المدارس قادر على المنافسة بتركيبته العلمية والتربوية والمعلوماتية وثقته بنفسه ومهاراته ومواهبه وآماله وطموحاته لنفسه ولوطنه؟ لا أحسب أن المتاح من التعليم والتربية والقدوة والخدمات والآفاق يسمح بأن يستشعر الشباب الأمل فى المستقبل خاصة أن ساكنها حاليًا مرهق ومضغوط ومتوتر وبالكاد يستطيع أن يؤدى عمله بنصف رأس ونصف قلب فى ظل زحام وتلوث وأمراض واستهلاك، فضلاً عن هزال الدخل.

ليست المشكلة فى أن يأكل الأبناء ويشربوا ويشاهدوا التليفزيون، وهو ما يتصور الكثيرون أن هذا هو الضرورى وهذا ما يتم توفيره بالفعل بنسبة كبيرة، لكن المطلوب للعصر وخاصة للأطفال أصبح مختلفًا، فالمهم الكمبيوتر والمعلومات والألعاب الحديثة والحدائق والغابات للترويح وبرامج المسابقات الشبابية والانطلاق فى معسكرات للتجول والتخييم خارج المدن وتوفير غذاء فنى وثقافى من إنتاج الفنانين والمفكرين المصريين.. إنتاج وطنى، وإلا فالغرب يكسب ويحتل ويؤثر ويجذب ويصبح القدوة والمثل.

مطلوب مدارس قليلة الكثافة وشوارع فيها أرصفة، بعد أن اختفت من القاهرة أو كادت.. مطلوب حجرات للموظفين ومكاتب لأن كل مكتب يجلس عليه أربعة.. مطلوب نوادى ومراكز شباب ولنا أن نتصور وجود مركز شباب لكل مائتى ألف نسمة.. نصفهم على الأقل من الشباب والأطفال الذين يحتاجون الرياضة والحركة والتدريب والمنافسة، ويظل السؤال الساذج: أين يتنزه المصريون فى القاهرة؟

بالقاهرة ٢٦ مكتبة عامة ومثلها فى قصور وبيوت الثقافة أى حوالى ستين مكتبة تخدم اثنى عشر مليون قارئ على الأقل، هذا يعنى أن لكل ٢٠٠,٠٠٠ قارئ مكتبة.

هل يتصور مخلوق أن خمسة عشر حيًا من أحياء القاهرة لا يوجد بها قصر أو بيت ثقافة، ويسكنها نحو ثلاثة ملايين مواطن، من هذه الأحياء عابدين وشبرا.. الزيتون. البساتين. دار السلام. الوايلى. مصر القديمة. الزاوية الحمراء. السيدة زينب. الزمالك.

أما مناطق عين شمس والمطرية وحلوان فلكل نصف مليون مواطن بيت ثقافة واحد.

يحسب البعض أننا دخلنا القرن الحادى والعشرين مادام هناك المحمول والسيارة والفياجرا وبعض أجهزة الكمبيوتر.

إن القاهرة بحالتها الحاضرة لا تعوق حركتها وحدها ولكنها لأسباب عديدة تعوق حركة مصر كلها، بحكم امتلاكها للسلطة والقرار ورئاسة كل المشروعات.. فما الحل إذن؟.. الحل.. عاصمة جديدة، تعمل على استدراج السكان والقوى العاملة بعيدًا عن القاهرة وإعلان القاهرة، مدينة مغلقة، غير مسموح لأحد بالانتقال إليها للعيش فيها غير سكانها الأصليين لمدة عشرين سنة على الأقل..

لا أمل إلا فى عاصمة جديدة تنتقل إليها الحكومة والوزارات والمجالس السياسية والبرلمانية، وأقترح أن تكون غرب المنيا بالقرب من الواحات البحرية. فلماذا هذا الموضع؟

١ - لأنه بعيدًا عن الأطراف والحدود.

٢ - لأنه لا يضر بأى أرض زراعية.

٣ - لأنه بعيدًا عن العاصمة الحالية فلا يعد امتدادًا لها.

٤ - الاقتراب فعليًا بالسلطة المركزية من المناطق التى تعد مستقبل مصر.

٥ - لا يوجد مكان يصلح للعاصمة فى الصحراء الشرقية أو سيناء.

٦ - الاختلاف فى الطقس عن الموضع الحالى طفيف.

٧ - الموضع المقترح يعد قلب مصر، أما العاصمة الحالية فهى تقع فى الخمس الشمالى من البلاد.

٨ - فى الموضع المقترح تكون العاصمة على بعد واحد تقريبًا من كل البلاد.

٩ - هذا الموضع يبتعد عن خطوط المواجهة مع العدو الصهيونى.

١٠ - يساعدالموقع المقترح على استصلاح مناطق جديدة من الصحراء الغربية وجذب السكان إليها.

١١ - الموضع المقترح يساعد على إعطاء أهمية لمحافظات الصعيد التى طال حرمانها وتم تعويضها مؤخرًا بالقليل.

الموقع المقترح يبتعدعن القاهرة حوالى أربعمائة كيلو، وعن المنيا حوالى مائتين من الكيلومترات فى اتجاه الغرب.

إننى لا أبالغ إذا قلت إنها إهانة لنا أن نبقى جميعًا فى نفس المساحة التى تعادل ٣,٥٪ من مساحة مصر، ونتلاحم جميعًا بعضنا فوق بعض ونرضى بنقص الخدمات نظير البقاء فى هذه المساحة المحدودة جدًا والتى يشغلها المصريون منذ آلاف السنين.. وإن الثورة العالمية فى التكنولوجيا والاتصالات والحاجات والطموحات تقتضى بالضرورة ثورة فى التفكير والإدارة والتنفيذ.

من الثمار التى يمكن أن نجنيها من وراء نقل العاصمة، ما يلى:

١ - فك العقدة الخاصة بالتركيب الديموجرافى لشعب مصر.

٢ - تخفيف العبء الحالى عن القاهرة وإنقاذها من العبء المتوقع.

٣ - تتحول القاهرة إلى مدينة سياحية عالمية تصلح للمعيشة وللتنزه والمعرفة وقضاء الأيام والليالى دون إزعاج، ومن المتوقع أن يرتفع عدد السياح فى هذه الحالة إلى ما يقرب من عشرة ملايين للقاهرة فقط.

٤ - كسر المركزية القاتلة للقاهرة.

٥ - الإسراع فى عمليات التنمية.

٦ - توفير الخدمات العصرية.

٧ - توقف النزيف المالى الذى تلتهمه القاهرة فى الكبارى والأنفاق والصرف الصحى وغيرها.

٨ - تحسن الأداء فى معظم المحافظات التى كانت مصالحها تختنق فى القاهرة، حيث أن الموقع الجديد للعاصمة سوف يسهل كل الأمور.

٩ - استصلاح أراضى صحراوية حول القاهرة الجديدة لخدمتها غذائيًا.

١٠ - بيع الأماكن المشغولة بالحكومة وتحقيق إيرادات ضخمة تعادل أضعاف تكلفة العاصمة الجديدة.

١١ - تخليص مصر من الإرهاب وتقليل حجم الجرائم والتجاوزات.

البعض يتحدث عن تكاليف إقامة العاصمة الجديدة وإنها ستكون عبئًا على الميزانية..

ونقول إن العاصمة الجديدة لن تتكلف ما تتكلفه القاهرة فى مجال واحد فقط.. وهو الكبارى والأنفاق والطرق.

إن حركة المال والأعمال داخل القاهرة تختنق فى الشوارع، ولكن المؤكد أن هناك من يقف بقوة وسوف يقف ضد قرار النقل من منطلق شخصى وحرصًا على المصالح.. وهذه العوامل هى الكفيلة بقتل كل فكر وكبح كل تغيير ومنع أى ترشيد وتطوير.. وقد أضحى جليًا على مستوى العالم أن التقدم منوط بالتفكير فى المصالح العامة، والقيادة الحقيقية الناجحة هى التى لا تعرف المصالح الشخصية..

إن قرار نقل العاصمة معناه تنظيف وتنقية كل عروق مصر، وسوف يساعد على جريان الدماء وإعادة الفتوة للجسدالمنهك، ويجدد الخلايا، وأهم من ذلك فتح باب الأمل أمام الشباب، وأخشى أن يكون تفكير القائمين على الأمر كما كان دائمًا، تحت الأقدام ولا يستشرف المستقبل.

إن قرار نقل العاصمة لا يقل عن قرار حرب أكتوبر ٧٣ من حيث الأهمية.. لأن نقل العاصمة معناه إنقاذ الأمة جميعها وإنقاذ مستقبلها وتوفير ما يلزم الناس كى يعيشوا العصر، ولا يظل الحال على ما هو عليه، وهو لن يظل كما هو، بل سيزداد سوءًا بسرعة، أكثر من السنوات الماضية، وسوف تكون شراسة الاعتراض والخلاف والسخط بحجم الاختلاف القائم بين الجيل الحالى والأجيال السابقة، بحجم الفروق التى تفصل الآباء عن الأبناء.

إن القاهرة تحاصر مصر من كل الجوانب.. وتكبل المستقبل فضلاً عن الحاضر، و٥٠٪ على الأقل من أبنائها يكتنف مشاعرهم اليأس والقلق وفى نقلها عودة الحياة إلى صعيد مصر جميعه لينطلق ويتألق ويجذب.. فالمستقبل كله كما كان فى الماضى سوف يكون على أرض النصف الجنوبى من مصر، فأعدوا للمستقبل عدته من الآن بعد أن تأخرنا.. ولو غفلنا عدة سنوات أخرى فالله وحده أعلم بالعواقب. لأن إنفاق مليارات من الجنيهات وصعود الكبارى فوق بعضها إلى السماء وحفر الأنفاق تحت بعضها إلى سابع أرض لن يجعل من القاهرة مدينة صالحة للحياة.

الكرة الآن فى ملعب القيادة السياسية، ونثق تمامًا أنها تغلب دائمًا المصالح الوطنية على المصالح الشخصية، ونطمئن إلى انشغالها بهموم المواطنين وتفكيرها المتواصل فى حاضرهم ومستقبلهم وكيفية التخفيف من معاناتهم وتوفير الرخاء لهم.

الإرادة.أولى عتبات النهضة

الإرادة أداة لازمة وأساسية من أدوات التقدم وتحقيق خطوات بعيدة ومؤثرة على طريق النهضة والازدهار، وبدونها لا أمل فى أن يتم إنجاز أى خطة أو بلوغ أى هدف، والإرادة فى المادة لا تتوفر أو تستنفر إلا بالإيمان والانتماء.. الإيمان بالهدف وبالوطن الغالى وبالأسرة التى يتعين رعايتها وتوفير حاجاتها وفتح أبواب الترقى والرخاء أمامها.

وإذا كانت هناك نماذج مصرية رائعة ضربت وتضرب أروع الأمثلة فى الإرادة والتحدى فى كافة المجالات، فإن هناك الملايين ممن يفتقرون إلى الإرادة والإحساس بأهمية الكفاح والمثابرة من أجل العمل بشرف، ومحاولة تحقيق منجزات إنسانية مهمة ولافتة ومن أجل الحفاظ على القيم وتلبية نداء العلم والمجد.

إن الإنسان فى حد ذاته نموذج فذ للإرادة وهو مجهز بعقل وجهاز عصبى يعيناه على ذلك، فقد وثق به الله، عارفاً بقدراته التى يعتمد عليها الإنسان فى خلافة الله على الأرض وتطوير الحياة، فكيف سيعمرها بلا إرادة، وإذا استنام للراحة، واستسلم للظروف وافتقد الإيمان بنفسه وبالهدف فسوف تقف الحياة فى موضعها لا تريم ولا تتحرك، لكن الإنسان مع القرن العشرين وما بعده زادت ثقته بنفسه وزاد إيمانه بقدراته

وانتماؤه للحياة ومن ثم تضاعفت إرادته وشحذت همته ليواجه تحديات الطبيعة والمجهول، وإذا لم تكن ثمة تحديات فهو يخلقها خلقًا لتظل الإرادة بكل أنواعها ومستوياتها مستنفرة، فالمقابل الوحيد لتوقف الحياة هو الموت، وغياب الإرادة لا يعنى شيئًا أيضًا إلا الموت، بل أحيانًا يكون الموت أفضل لأن افتقاد الإرادة يعنى تهيئة مناخ للعجز والمذلة والهوان.

الإرادة هى المصدر من الفعل يريد.. يريد بقوة واهتمام وإصرار.. إذا الشعب يومًا أراد الحياة، كما يقول الشابى - فلابد أن يستجيب القدر..

ولابد لليـــل أن ينجلى .. ولابد للقيـد أن ينكسر

فهل نحن حقًا نريد شيئًا بقوة وإصرار؟ أحسب أن الإجابة ستكون فى الغالب بالنفى، لأن الإجابة بالإيجاب سوف يعقبها سؤال، هو.. ما بالنا نخسر كثيرًا فى المنافسات والمشروعات ومختلف التحديات؟

وما بال آمالنا وطموحاتنا تظل فى مرحلة الأمانى؟ وتظل طيورًا راقدة على الأرض أو تشبه طيورًا مكسورة الأجنحة تسقط بعد قليل من الطيران، ولا تملك القدرة المادية أو الروحية على تكرار المحاولة. ذلك لأنها تفتقر فيما تفتقر إلى الإرادة، ومن تغيب إرادته عن عمله، يصبح من المنطقى الشك فى درجة إيمانه بما يستهدف.. ربما نقص الإيمان بالهدف أو بالقيادة، بالآليات والأدوات، بالبدايات.. بالنتائج أو بروح العمل وطاقته البشرية.

وإذا رغبنا حقًا لعمل ما أن يفلح، ولجهد أن يكلل بالنجاح، فلابد من توفير الأسباب التى تخلق جوًا محفزًا للإرادة، مثيرًا للتحدى، محركًا للطاقات مستنفرًا للعزيمة والإصرار والمثابرة بحيث يتفوق على نفسه كما يقال، أى أن يقدم من الفكر والإخلاص والطاقة أكثر مما تعود أن يقدم، ومن قبيل ذلك مسألة ضرب الرقم القياسى، والأمثلة الشهيرة لذلك هى نتائج الألعاب الفردية كالسباحة وألعاب القوى، وعلى مستوى الإنتاج الفردى هناك أفضل منتج للقمح والأرز والذرة والفراولة أو الموز والمانجو وغير ذلك.

وعلى مستوى الشعوب هناك أرقام قياسية للتصدير أو الإنتاج أو سرعة الإنجاز، ولا يتحقق المستوى العالى إلا فى ظل مناخ متكامل يستطيع من خلاله العاملون فى مشروع استنفار إرادتهم وفتح شهيتهم للعمل وتحدى العقبات وتجاوز العوائق.

ويقصد بالمناخ المتكامل للعمل، أن يصبح فى حالة تجعله أحق الكيانات بالانتماء إليه، بحيث يؤمن العامل أو الموظف بمؤسسته إلى الدرجة التى تجعله يضحى فى سبيلها ويمنحها روحه، وينسى من أجلها أهله ووقته وهمه الشخصى.. فهل هذا هو السائد فى مصانعنا ومؤسساتنا ومواقع العمل المختلفة؟.. أكاد للأسف أقول إن أغلب ما يجرى هو العكس بسبب المناخ الذى يسود معظم المواقع الحكومية ولا يشجع على العطاء.

وأضيف إلى ذلك إن عدد الأبطال فى مصر قليل، والأبطال هم المبرزون فى كافة المجالات.. وتميز البعض محدود وأرقامه الدقيقة متواضعة، فعلى مستوى الألعاب الرياضية ما هو وضعنا على مستوى العالم سواء من خلال الدورات الأوليمبية أو غيرها، وفى الصناعة والسياحة والزراعة والأدب والسينما ونحن روادها وفى المسرح وفى التجارة وفى العلم.. قد يكون المعروفون قلة، وهناك الكثير ممن لا نعرف.. ولأننا لا نعرف، هذا يعنى أن المناخ به قصور، أو يتضمن نقصًا ما وعلينا جميعًا الكشف عن المواهب وإعطاءها الفرصة، وأن يكون واضحًا لدى الجميع أن الإرادة أهم من كل العوامل، ولابد من المساهمة فى تعبيد الطرق وإشاعة مناخ تنمو فيه الإرادة وتتألق، وكما قال أحد المفكرين الأمريكيين: «سوف نبحث عن الموهوبين فى كل مكان حتى ولو فى صناديق القمامة ونقدمهم إلى العالم، لأننا شعب قادر على تقديم إنجاز رفيع».

وأقول له: «ونحن لسنا أقل منكم وسوف نبذل جهدنا ونضع نصب أعيننا السعى إلى أداء جيد جدًا وممتاز، ولكن الإرادة هى المشكلة فهل من

سبيل لخلق مناخ مشجع؟ أزعم أننا جميعًا خاصة القيادات على مختلف طبقاتها مسئولة عن توفير هذا المناخ بالمعاملة الحسنة والتشجيع وتذليل العقبات واعتماد جوائز، وفتح باب الأمل أمام كل موهوب.. بل أمام كل إنسان.. نريد أن نخلق دنيا جديدة تليق بالشعب المصرى وحضارته وطموحاته وطاقات أبنائه غير المستغلة أو المحبطة والمهدرة. نريد أن تنتشر فى كل البلاد والمؤسسات وسائل تنشيط للإرادة، دعوة مستمرة فى كافة المجالات للتنافس، أهداف بعيدة تلوح وتجذب من يستطيع.. ليكن الجميع مشجعًا للجميع بفتح الأبواب وتخصيص الاعتمادات وإقامة احتفالات التكريم لكل صاحب إنجاز وليست الحفلات فقط لفنانى المسلسلات..

قلبوا المياه الراكدة وأعلنوا عن المسابقات العملية والعلمية والأدبية والترفيهية، وما أجمل أن تكون خارج القاهرة.. أشعلوا نار الحماس فى الأطفال والشباب لتظهر المواهب وتستنفر الإرادة، فالإرادة تبدأ فى السنوات الأولى وتستمر إلى نهاية العمر فهى الوقود الذى لن يدور المحرك بدونه.

استخدام العقل

العقل هو الميزة الأولى للإنسان على غيره من المخلوقات، وهو الجوهرة التى منحها الله له تكريمًا وتعظيمًا، فضلاً عن صورته الجميلة التى تتسم بالرشاقة والتماسك والانسجام، والقدرة على امتلاك القوة البدنية.

العقل.. ذلك المهندس العظيم الذى يستطيع به الإنسان أن يفكر ويتخيل ويبتكر ويحلم دون أن تحده أية حدود.

يستطيع به أن يصنع ما يشاء، من أى مادة.. واحدة أو عدة مواد.. يستطيع به أن يحرك الأشياء العملاقة حتى لو كانت بعيدة عنه بآلاف الكيلومترات، بل استطاع بالفعل صناعة إنسان مثله ينوب عنه فى القيام بالعديد من الأعمال، ولا ينقصه غير الإحساس أو الروح، ويكفى شرفًا للإنسان أنه بالعقل صنع الكمبيوتر الذى سيظل بإمكانياته الخارقة معجزة بكل معنى الكلمة لعشرات السنين، ومن المؤكد أن ما يمكن أن يبتكره العقل بعدها سيكون من وحيها ومن بنات أفكارها وقدرتها الفريدة.

الإنسان بدون العقل ليس أقوى الكائنات الحية؛ لأن فأرًا يخيف بعض بنى البشر، والقطة والكلب والثعبان تفعل ذلك، فما بالهم بالأسود والنمور والجاموس الوحشى والقطط البرية.

ومادام الإنسان بدون العقل لا حول له ولا قوة، فإن من الطبيعى أن تكون هناك دعوة دائمة ومستمرة تطالب هذا المخلوق صاحب التفضيل الربانى والتكليف بالخلافة، على الأرض.. هذا المخلوق الذى ستتحدد بناء على سلوكه مصائر بشر آخرين فيحكم عليهم بالتعاسة والشقاء أو السعادة والهناء.. كان واجبًا دعوته إلى استخدام العقل، السلاح الأول الذى لا بديل عنه والذى واجه به فى مقتبل سعيه على الأرض تلك المخلوقات التى هددت حياته وطاردته طويلاً وأبقته زمنًا غير قادر على الاستسلام للنوم الهنىء.

لقد أشفق الله على الإنسان الذى غلبه الشيطان واقتاده للسير فى دروب الضرر ومهاوى الضياع، وبعد ردح من الزمن بدت السيطرة فيها للشيطان قرر الخالق أن يبعث بالهداة من الرسل والأنبياء لاستنقاذ الإنسان، ودفعه للمسير فى طريق النور والتيقظ لإغواء الشيطان المتربص.

كان الغرض من كل هذه الرسالات والكتب التأكيد على أن الله مع الإنسان، وإذا كان الإنسان مع الله فلن يهمله، بل سيعينه، وهذا يعنى أولاً الإيمان بالله بوصفه الخالق والقاهر والرب الأعلى والمعبود الأول الذى لا إله غيره. والتعبير عن ذلك الإيمان بالعبادة، ومع النضج النسبى الذى أحرزه البشر دعتهم الرسالات المتأخرة إلى مرحلة أعلى من المهام الإنسانية، وتتمثل فى استخدام العقل وحسن المعاملة.

حسن المعاملة يقوى رابطة الإنسان ببنى جنسه، واستخدامه العقل يعينه فى تحصيل رزقه وتعمير وتطوير الحياة، وبدون العقل لن تعمر الأرض ويظل الإنسان لقمة فى فم الحماقة والطيش والأذى والتدمير.

هذه هى رؤية الدين للعقل ودوره، والغريب أن هناك من يحاول الترويج لفكرة أن نفى العقل من مهام الأديان، أو كما قال البعض: لقد حرصت الأديان على أن يسلم الإنسان نفسه للنصوص الجامدة، وألا يكون

هناك فرصة كى يفكر أو يعمل عقله خارج ما ترسمه الكتب وما يقول به الأئمة والعلماء.

وفضلاً عن ذلك فهو قول بعيد عن الحقيقة، لأنه ينطوى على ظلم ثقيل لرسالة الأديان ودورها فى دعم مسيرة الإنسان ومؤازرته فى صراعه مع قوى الشر عامة، وكانت الدعوات دائمًا لتنشيط العقل والفكر وتأمل الأمور والنظر فيها بكل الجوارح.

ويكفى أن نستعرض سور القرآن الكريم لتطالعنا عشرات الآيات التى تتضمن دعوات واضحة للتفكير والتدبر، وتتجاوز الكلمات المحرضة على ذلك مائة وخمسين كلمة، بصيغة الأمر مرة وبصيغة السخرية والتعجب مرة مثل قوله تعالى: «أفلا يتدبرون، أفلا يعقلون، لعلهم يتفكرون، لعلهم يعقلون»، مناشدة كثيرة لأولى الألباب وأولى النهى.

وفى أحاديث الرسول ﷺ قوله: «إعقلها وتوكل».

إذا واجهت المرء مشكلة فعلية بأن يبدأ بسؤال العقل فهو الأجدر بأن نقلب فيه بحثًا عن الإجابة.

وضرب لنا الرسول العديد من الأمثلة، والسلوك العقلى، ومنها ما حدث فى موقعة بدر، عندما طلب أن يعسكر المسلمون فى موضع بعينه، فسأله أحدهم:

- أهو موضع أنزلكه الله أم هى الحرب والخديعة، فرد الرسول ﷺ:

- بل هى الحرب والخديعة.

قال الرجل:

- إذن فليس هذا هو الموقع الذى يعيننا على النيل من العدو، أما المناسب فهو أن نجعل البئر وراءنا.

وقبل الرسول.

ويمتلئ التراث العربى بالحِكَم والأقوال المأثورة والأمثال والأشعار التى حذرت من الحماقة ومن مصاحبة الحمقى.

فقيل «عدو عاقل خير من صديق جاهل».

وقال الشاعر: لكل داء دواء يستطب به إلا الحماقة أعيت من يداويها.

وقال آخر: ولئن تمادى عاقلاً خير من صديق أحمق.

والحماقة ليست الجنون، ولكنها إهمال العقل وتجنب الرجوع إليه فى مختلف المواقف، وخاصة عند مواجهة الاختيار أو الوقوف على مفترق.

ولعل النظر إلى الكثير من سلوكيات العرب عامة والمصريين خاصة يروعنا اعتماده التعجل والانفعال وسرعة القرار وكراهية سؤال العقل.

وقد يدهش القارئ أو لا يدهش إذا ذكرنا أن البعض يحسب الركون إلى العقل فى درس الأمور ضعف وخور ودليل جبن، وأفضل من ذلك الإقدام بشجاعة والاندفاع فى اتخاذ القرارات التى تضرب على الحديد وهو ساخن وفى اللحظة الحاسمة.

كما يرى البعض أن سؤال الآخرين المتمتعين بالرشد رأيهم والمشورة عجز وقلة حيلة وكشف للسر وفضح للخصوصية، وقد يكون داشًا للعقد أو مثيرًا لكوامن الغيرة، والحق أن الشورى هى فى الأساس دعوة للعقل، لأنها محاولة للاسترشاد بما وهبه الله للآخرين، وعقل المرء وحده قد يتعذر عليه استيعاب كامل أبعاد قضية ما، وقد يغفل عن آثارها أو مراميها وقد يرفعها فوق قدرها أو يهون من شأنها، وقد يحدث مثل ذلك حتى لمن امتلك الرؤية الثاقبة، وكان حتمًا إذن اعتماد المشورة سبيلاً لرجاحة الرأى وسداد القرار.

والحال فى بلادنا العربية عامة يشهد نقصًا شديدًا فى استخدام العقل، والأمثلة كثيرة أفدحها غزو العراق للكويت، فهل ثمة ذرة من عقل سبقت الإقدام على هذا السلوك الوحشى الأخرق، وما يجرى فى الجزائر من قتل يومى لعشرات الشباب ومنهم الفنانين والصحفيين والشعراء والمثقفين، هل له أدنى علاقة بالعقل؟

أما فى حياتنا المصرية فالعشوائية أكثر صفة ترافق معظم السلوكيات العامة والخاصة.. الرسمية والشعبية.. عشوائية فى السلوك والمعاملة، والبناء والعمل وتسيير شئون الحياة، ولا أبالغ إذا قلت إن نصف ثرواتنا يذهب هباء وهدرًا بفضل تلك العشوائية.

وإذا كان الحد الأدنى لاستخدام العقل يدعونا كما يقول المثل إلى اتقاء الوقوع فى الخطأ مرتين «لا يلدغ المرء من جحر مرتين» فلن يتعذر علينا لقاء من يقعون فى نفس الخطأ ويلدغون مرات من نفس الجحر، وبعض من ذلك حدث فى قصص الناس مع شركات توظيف الأموال برعاية الحكومة وتحت نظرها، والذين يتزوجون أربعة أو ثلاثة، أليست هذه فى معظم الحالات حماقة، والذين يقتلون بعضهم بعضًا من أجل خمسة وعشرة جنيهات.. بماذا نسمى شجاعتهم؟ وماذا نقول عما نطالعه فى صفحات الحوادث وهى تعرض علينا فى كل الصحف عجائب وغرائب.. وهو المنشور فقط وليس كل ما جرى من سلوكيات، مع أن المثل الشعبى يقول: قبل ما تفصل قيس.

وقد نجد بعض المصريين يؤمنون بالعقل ويرون أنه الجدير بالاحترام والأحق بالاستعانة به فى كل الأمور، لكن المرء ليدهش إذ يجد هؤلاء الناس عند البت فى المواقف والحسم فى التصرف يغلبون قوى أخرى، فتفاجأ بأن موقفًا مع الأخ والصديق غلبته العاطفة وسيطر الاندفاع فجأة وبدون مقدمات وتوارى العقل تمامًا.. ويروعك أن صاحب العقل فضّل الطمع والجشع والأنانية وغيب العقل، وآخرون انحازوا للغضب والتسرع، وكان يتعين سؤال العقل والتمسك بالحلم.

والبعض قد يغلب الغرور باسم عزة النفس والكبرياء ويتخلى عن العقل، وقد يغلب البعض حب التملك أو المظهرية أو كلام الناس، وقد يغلب البعض فى كثير من الحالات الغرائز، فبطنه أهم من شرفه أو من سمعته أو جاره، وكذلك الجنس والنزوات قد تستدرج الكثيرين إليها ويجنبون العقل بعيدًا عن التأمل والنظر.

فلماذا نتخلى عن صداقة العقل بسرعة، مع أنه هو الغطاء الحقيقى وهو المأوى والملاذ والهدى والمعين بعد الله؟.

لقد نهض العرب والمسلمون حين اعتمدوا العقل سلاحًا وأداة ووسيلة، وسادوا العالم ثمانية قرون من القرن السابع إلى الرابع عشر الميلادى.

استعانوا بالعقل فكان بوابتهم إلى النصر والعلم والعبقرية، دانت لهم البلاد ورحبت بهم الشعوب، لأنهم قدوة تحتذى وأمثلة تقتدى، ولو كان الدين الإسلامى مجرد عبادة بدون عُبَّاد عقلاء، وعلماء ومفكرين لما انتشر على هذا النحو، بدليل أن الإسلام هو الإسلام، بل زادت كتبه وشروحه وتفاسيره، لكن عندما فقد رجاله الذين يمثلون نماذج للفكر والسلوك والعلم والجدية لم تتحمس بعض الشعوب لاعتناق الإسلام بل قاومته، وتخلصت من قيادته وما عادت تدين للخلافة فى بغداد، وسقط العالم العربى خاصة مصر منذ نحو ستمائة عام ويزيد فى قبضة الحكام الأجانب والمستعمرين، فذاقت الشعوب أشكالاً مختلفة من الظلم والعسف والاستبداد والنهب والتجويع والمذلة، أدت فيما نحسب إلى تراجع العقل، ولابد أن الناس تساءلت عن جدوى قدح الذهن وبماذا يفيد وصولاً إلى الرأى الرشيد، والحاكم مستبد لا يقبل بغير رأيه.. لذلك تدهور العقل واعتاد الخمول وما عاد له دور، فذبلت القدرات الفكرية من طول الإهمال، واحتلت العقول عناكب الخرافات والكسل والاستسلام، ولعل هذا ما وجدنا أنفسنا فيه مع تقدم الحملة الفرنسية.. على أن ما تحرك منا خلال القرنين التاسع عشر والعشرين كان قليلا..

لقد كانت الجمعيات والقادة والمفكرون يدعون إلى الحرية والوطنية ومقاومة المستعمر، وسعوا لبناء الجامعات وتعليم البنات ونشر الصحافة وتشجيع الفنون والآداب، لكن ذلك جميعه بقى أيضًا فى إطار يحدده المستعمر ويحاصره، وأتيحت الفرصة بعد ثورة ١٩٥٢ للعودة إلى العقل وإعلاء النزعة العلمية، ورغم ذلك فقد كان قاصرًا ولم يهيأ له المناخ الذى يصبح معه ذلك عملاً متواصلاً تتسع دوائره لتنتظم فئات الشعب كافة.

وهكذا لا نستطيع أن نحكم على تصرفات شعب مصر بالعقلانية، ولو كان حكمنا إيجابيًا لصالحه، فما السر فى ملايين القضايا التى تتكدس فى قاعات المحاكم، وما السر فى الاضطراب الشديد فى الخطط والقرارات وسرعة نقضها؟

القضية أساسًا تكمن فى الفلسفة السائدة، ولا نستطيع إلا أن نسميها الفلسفة العشوائية، وهى ليست بالطبع فلسفة، لكنها تكاد تكون كذلك من كثرة تمثلها فى سلوكيات الأفراد، متعلمين أو مثقفين أو جهلة، رجالاً ونساء، شبابًا وشيوخًا وأطفالاً..

هذه السمة العامة للسلوك أو الفلسفة التى نضطر لتسميتها كذلك تتجلى فى الإقدام على التصرفات والإجراءات بشكل غير مدروس، ولا ينهض على نظام أو احترام الآخر أو الوعى بالقواعد والأعراف، أو الأخذ فى الاعتبار النظرات الجمالية أو الإنسانية أو الدينية أو المستقبلية.

اندفاع أعمى نحو الغرض دون النظر إلى الأبعاد والنتائج.. مع أن العقل هو الملك وهو السلطان، وهو الذى يتعين أن يحكم ويتحكم فى مختلف الأمور، وهو مصدر الفكر المشترك والرأى المنسجم أو المتسق وكما قال أحد الفلاسفة: «العقل هو أعدل الأشياء قسمة بين الناس» ولكن العبرة باستخدامه، ولو استخدم فسوف تكون الفوارق ضئيلة.

ماذا نتوقع أن يحدث إذا قام صاحب زورق حمولته ٢٥ فردًا تعودأن ينقلهم من ضفة إلى أخرى أو يصطحبهم فى رحلة ثم سمح بركوب خمسين بدلاً من العدد المقرر؟ ماذا نتوقع من فقير جدًا ينجب عشرة؟ ماذا نتوقع من سائق يجرى بسيارته بسرعة تزيد على مائة كيلومتر فى طريق مفرد ضيق جدًا؟ ماذا تنتظر من عامل مزلقان يسمح لنفسه بأن يسهر إلى ما بعد منتصف الليل أمام التليفزيون وعليه أن يتسلم ورديته فى الصباح الباكر؟ لابد أنه سينام فى كشك المزلقان وليحدث بعد ذلك ما يحدث..

ماذا تتوقع من خفير يعد الشاى وسط مئات من بالات القطن؟ وماذا يحدث لو ألقى سائق بعقب سيجارته فى محطة البنزين أو مخزن ورق أو خشب.

رجل فى الثلاثين يغتصب طفلة فى الخامسة.. مدير شركة ينهب ببساطة عشرات الملايين من المؤسسة التى أؤتمن على إدارتها، ومنح كافة الصلاحيات ليطورها ويدفعها للأمام ويزيد انشطتها ويروج منتجاتها، ويرفع من كفاءة العاملين فيها.

لم يسأل هذا الخائن نفسه، ماذا سيفعل بهذه الملايين؟.. لابد أنه فى حاجة ماسة إلى فيللا وسيارة، ولعله يحلم من زمن أن يتزوج من أربعة نساء على الأقل، ولا بأس من عمارة.. بماذا كان يحلم أيضًا ويتمنى؟ أم تراه كان يحاول تحقيق آمال كل أقاربه فى الثروة والشرف والبذخ.. وعلى فرض أنه بلا ضمير، وهو دون أدنى شك لم يسمع عنه، وطبعًا لم يخطر بباله لحظة أن الله مطلع على أفعاله، ولست أحسب أن أحدًا يمكن أن يتصور أن أسرته أتيح لها الوقت كى تربيه على الحق والخير والأمانة والصدق.. لابد أن ذلك كله لم يتوفر له.. لكنه خلق وفى رأسه ـ رغمًا عنه وعن أهله وعن المؤسسات التعليمية التى قضى فيها سنوات طويلة ـ عقلاً ككل بنى البشر.. إذا كان منهم.

أليس هناك فى رأسه مثل هذا الشىء الذى خلق ليفكر.. ويجيب على الأسئلة، أو حتى يسأل فقط، وأول الأسئلة، لماذا.. لماذا كل هذا؟. وإذا امتلكت ما تشاء دون وجه حق، هل ستفلت تمامًا من العقاب؟.. أليس فى مصر رجل أمين واحد يمكن أن يحذره من سوء عاقبة اللصوصية وتجاوز الحدود واغتيال الحقوق؟.. أهذا رأيك فى المصريين حتى لو أطعمت جميع الأفواه التى تمر بها وأنت فى طريقك محملاً بجوالات البنكنوت.

أما عن القمامة فأسمع عن مشروعات للاستفادة بها على مدى أربعين عامًا، وحتى الآن لا جديد، ولا يزال التصرف فيها طبقًا للفلسفة المصرية الشهيرة عشوائيًا، مآسى كاملة فى كل بقعة من الوطن الغالى لا تجد أصحاب العقول الذين لا يطلب منهم أن يفكروا فى ابتكار طريقة، ولكن يكفى أن يختاروا طريقة من الطرق..

استخدام العقل بلا حدود، يبدأ من سلوكيات بسيطة حسب خبرة وعلم ونية صاحبه فى استثمار قواه الفكرية، وتتصاعد عمليات الاستثمار والاستفادة من طاقات العقل، لتصل إلى آفاق لا نهائية إذا جاز أن يصل الإنسان إلى آفاق لا نهائية.

يبدأ استخدام العقل بمجموعة من السلوكيات والأفكار البسيطة، فى مقدمتها النظام وترتيب الأولويات، والمسألة لا تحتاج إلى عبقرية، وليس عسيرًا على أحد أن يدرك أن كثيرًا من حياتنا على مستوى الجماعات والهيئات والأفراد تفتقر إلى هذا القدر الأولى من استخدام العقل، وهوالحرص على النظام، وسبب ذلك سيطرة الفلسفة العشوائية على كل سلوكياتنا، ومنها أن رغبة البعض فى احترام النظام ومساعدته والقائمين عليه حتى يتم تطبيقه تدهمها مسالب أخرى فى حياتنا وطباع دخيلة فى تركيبتنا النفسية والاجتماعية، وهو ما سوف نتناوله صفحات أخرى، أى أن النظام يمكن أن تضربه العاطفية أو غياب الموضوعية فإذا أنت نفسك أعلنت عن طريقة للحصول على سلعة معينة، أو رتبت حقوقًا

معينة على وجه ما من الوجوه ويلزم لها توفير أوراق محددة، ونفذت النظام ومعاونوك بكل دقة لمدة معينة، فلن يستمر ذلك لأنك ستلتقى بقريبك وجارك ورئيسك وخال رئيسك الذى ينكسر بهم النظام وتختل القواعد بأوراقهم الناقصة و.. و.. العشم.. وهو سوس ينخر فى جسم الوطن.

ومن أبسط أشكال استخدام العقل تقييم المواقف والنظر إليها من كافة الجوانب قبل اتخاذ أى قرار.

موظف يعمل فى هيئة بجوار بيته فى الفيوم ويتقاضى ٢٠٠ جنيه، يتركها لينقل إلى القاهرة ويسافر ليتقاضى ٣٠٠ جنيه، ومثله من يحصل على ٣٠٠ جنيه ويعمل ويسكن فى حلوان يرحب بالانتقال إلى مصر الجديدة ليعمل بها لقاء ٤٠٠ جنيه. وهكذا يدوخ كل منهما السبع دوخات.

كل هذه السلوكيات ليست إلا تفكيرًا عشوائيًا ومثلها المدن الجديدة التى يتواصل كل عام مدها وبناءها حول القاهرة.

إن استخدام العقل غائب فى مصر لدى الكثيرين، وهو لم يسلب من المصريين غيلة، ولا أظن أن الحكومة أصدرت قرارًا بوقف العمل به، ولم يحرمه الدين، ولم ينصح الأطباء بتحاشى استخدامه حفاظًا على الصحة ولم يقم أحدهم بإجراء عمليات لإزالته أو انتزاعه أو بيعه للأجانب، ولم تظهر أية أبحاث أو تحليلات تشير إلى أن العقول المصرية مشوشة أو مصابة بأى مرض، ولكن المصريين أنفسهم وهم فى كامل قواهم العقلية قرروا عدم استخدام قواهم العقلية.. فبمنتهى الرغبة الخالصة والعميقة مع سبق الإصرار والترصد قررت الأغلبية التفريط فى هذه الجوهرة.

البعض يرى أن أحكام العقل معظمها كئيب، والبعض يرى أنه يمارس قيدًا على الحرية وقد ضاق بالقيود، وآخرون لا يلمسون فيه إلا الواعظ والمرشد، وهم سئموا المواعظ والإرشادات ويميلون لعالم المرح والنكتة

والانطلاق وخليها على الله ومشيها بالبركة.. والبعض حاول أن يمسك عقله ويمنعه من العمل أو المشاركة بالرأى فى أى مشكلة، ولما وجده يرغم الأوامر يتدخل، اضطر لاستخدام المخدرات متدرجًا من واحدة إلى أخرى حسب مشورة الخبراء، إذ كان حتميًا طرد المحتل، وهذا المحتل الذى يعكر صفو حياتنا هو العقل، وكيف يستقيم ذلك مع المثل الشعبى الذى يقول: قلة العقل مصيبة.

ويعزى بعض الباحثين انتشار الفلسفة العشوائية للأمية المتفشية، ويصدم هؤلاء الباحثون عندما يعلمون أن معظم التصرفات العشوائية مصدرها متعلمون ومثقفون وأساتذة وخبراء ومسئولون وقيادات كبيرة، فضابط يسرق، وآخر يتاجر فى المخدرات ووكيل نيابة يقتل ومحامى يزور وقاضى يسرق، ومهندس يرتشى، ومدير يقتل جاره وطبيب يخنق ابنته.. وخريجو الجامعات بكافة التخصصات هم الآن نجوم الجريمة فى مصر.. الاغتصاب والتزوير والقتل والسرقة، والتشويه بماء النار وغيرها.

معظم الموظفين وأغلبهم على غير قدرة مالية كافية ولكنهم رغم ذلك يشترون السيارات والتليفزيونات ومختلف الأجهزة المنزلية الحديثة والمحمول والدش بالتقسيط ثم يتصرفون فى السداد.. كيف؟

يضطر الموظف أن يسرق أو يختلس أو يرتشى.. إذا لم يكن من سبيل لهذا كله يتجه إلى الأهل.. ويضرب أمه أو أباه طلبًا للمال فيأخذ أى شىء حتى لو كان أسورة فى يد الأم تحميها من الزمن، أو يطردهما من الشقة ويبيعها، وكل هذا يصب فى المحاكم فضلاً عن المآسى الأسرية وعواقبها، وإذا لم يسدد فتحال الكمبيالات إلى البنوك ثم المحاكم والهروب والكذب والشجار والمشاكل ثم المحاكم. عشوائية تنتج عشوائية وتحضن العشوائية وتربى العشوائية وتتراكم العشوائية وتتضخم.

نعود فنؤكد على أن نفى العقل وإلغاء دوره وقمعه ليس نقصًا فى القدرات الذهنية للمصرى قديمًا وحديثًا، لكنها مسألة إرادية ومقصودة

بدليل إنه فى حالات عديدة يجيد استخدامه، بل يجيد جداً لدرجة الإعجاز، والشواهد كثيرة مثل ابتكار وإبداع المصرى فى البلاد الأجنبية، ومواقفه فى الأزمات الشديدة، ناهيك عن براعته فى جرائم التزييف والتزوير والسرقة والغش والاحتيال وغيرها مما يكشف عن ذكاء عال.

إننا إذا كنا نطمح أن نكون دولة متقدمة وأن تكون بلادنا قادرة بإمكانياتها المادية والبشرية والإدارية، التنظيمية على مشاركة الدول الأوروبية والآسيوية المقتدرة مواجهة اتفاقيات الجات وتوابعها التى يرجح جداً ومن الآن أن تكون ثقيلة، وأن تزلزل الدول فى الصميم خاصة الفقيرة والنامية، فإن علينا أن نبدأ من الآن جميعًا وعلى كافة المستويات التسليم بأن استخدام العقل هو السبيل لكل نجاح وبدون مشاركته فى كل الأمور فسوف نحقق مزيداً من التراجع وتتكدس العشوائيات، ولن نجد منفذاً للخروج من هذا النفق.

وعلى القيادات المختلفة فى كل موقع أن تعلم أن أوروبا لم تبلغ ما بلغته، وهى التى كانت تعيش متخلفة تمامًا حين كان العرب هم السادة علمًا وحكمًا وسياسة، إلا باستثمار قوى العقل وإعماله فى كل صغيرة وكبيرة، ولم تكن النهضة التى بدأت منذ القرن السابع عشر وتأكدت فى الثامن عشر واستمرت بقوة إلى الآن إلا تلبية لنداء المفكرين والفلاسفة باعتبار العقل هو السيد والقائد.. واحترمت الشعوب مفكريها من أمثال مونتسكيو وديدرو وجان جاك روسو ولوك، وديكارت وفولتير وهوبز وميكيافيللى وغيرهم وبدا جليًا تأثيرهم، وكشفت مسيرتهم عن استجابة واضحة لأفكار وتوجهات ودعوات مفكريهم.

أما نحن، فبرغم مفكرينا وعلمائنا والصحف والكتب والخطب المنبرية صباح مساء، ودعوات السياسيين والثوار فإننا تعودنا أن نقاوم العقل، ولقد ذهبت الجهود هباء على مدى مائة وخمسين عامًا من محاولات التنوير، ولايزال الكثيرون منا يفتقرون إلى نور هذه المنحة الكبيرة من منح الخالق سبحانه.

إن العقل الذى استيقظ فى أوروبا وأمريكا وظل متيقظًا إلى الآن هو الذى يصنع الحضارة والحرية والقوة والتكنولوجيا، ويبدع كل يوم جديدًا إثر جديد، وقد يحسب البعض أن البلاد العربية ومن بينها مصر قد حصلت ما حصله الغرب من التكنولوجيا، فعديد من المؤسسات تستخدم التكنولوجيا بما فيها الانترنت، ويستعمل كل أبنائها المحمول والفاكس والتلكس ويركبون السيارات على أحدث الموديلات مجهزة بأفخم وسائل الترفيه، ويشاركون فى بورصات العالم ثانية بثانية، ويتابعون ما يجرى على القمر مثل من وصلوا إليه.. بل من شباب السعودية من صعد إلى القمر.

لكن ذلك محض وهم، لأننا للأسف الشديد لازلنا لا نعرف شيئًا عن هذا العالم ولا نستطيع أن نصنع حتى «الماوس» للكمبيوتر، ولا ترموس الشاى، ولا ماكينة الحلاقة، ولا مشاية الطفل، ونستورد كل شىء حتى أقلام الرصاص وعلب الكبريت..

إننا نعيش فى وهم حقيقى وليتنا نملك شجاعة الاعتراف بذلك. والعكس هو الذى لايزال يتصدر إعلامنا وخطبنا من أننا أصحاب حضارة وبلدنا هى أم الدنيا.. كان هذا فى الماضى، فما حالنا اليوم؟!

إن هذه المظاهر التكنولوجية لا تخدع من يفكر بجدية فى وضع البلاد وهى عبء وليست ميزة، والأهم من هذه الأشكال المختلفة من التكنولوجيا النظر إلى موقفنا من الوقت.. الوقت بوصفه أحد الأسس المهمة فى استثمار العقل لأنه رأس مال من لا رأس مال له، بل هو رأسمال الجميع، ومن لا يفيد منه فلن تنفعه أمواله وسلطاته، وأعتقد أن وضع العقل فى مواجهة الوقت.. والعلاقة الجدلية بينهما سوف يسهل على القراء تصور حجم المصيبة ومدى التبديد والإهدار الذى يلحق بهذا الوطن. فملايين الساعات تقضى أمام التليفزيون الذى لا يعمل إلا لحساب الإعلانات ورجال الأعمال لمزيد من الاستهلاك والإهدار.. لأن

الإذعان والانبطاح أمام التليفزيون ساعات طويلة إهدار للوقت واستلام قائمة السلع المراد إهدار كل قرش فيها، وعلينا أن نتصرف لجلب المال الذى سينفق فى شراء ما يعلن عنه الجهاز الوطنى.

ملايين الساعات على المقاهى وملايين فى المواصلات وملايين فى الثرثرة، وملايين غيرها فى الأسواق.. والنظر إلى ما نقول على أنه مبالغة يعد إهدارًا لطاقة العقل.. لأن ساعة واحدة تضيع من ثلاثين مليون فرد، نفترض أنهم الطاقة المنتجة معناه ثلاثين مليون ساعة، تصوروا شعب يضيع عليه إذا بدد كل فرد ساعة واحدة فقط بلا إنتاج أو ثقافة أو راحة مثل النوم الكافى يساوى مليون وربع يوم أى ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة تصوروا: ساعة واحدة تافهة فى أى مكان تساوى تبديد ٣٥٠٠ سنة من عمرنا.

لابد أن نواجه بعد استعراض الحالة الجهات التى كان يتعين عليها أن تقوم بدور فى مواجهة هذا التراجع العقلى مثل أجهزة التعليم والإعلام والثقافة، ونخص التعليم فى البداية.. فهل النسق الذى تؤدى به المناهج التعليمية نسق يعين على استخدام العقل وعلى تقديره، وهل تسهم المواد التى يتلقاها الطالب كيفًا وكمًا فى أن يتعود النظر إلى كل الأمور بمنظار عقلى وتأمل فكرى حر، أم أن كل شىء يتم بصورة تلقينية تستهدف الحشو فقط، ودفع كل ما على الورق للمرور إلى رأس الطالب بكل الوسائل حتى لو لم يفهم منها شيئًا. المهم أن نعمل ما علينا أو على الأقل نبدو كذلك.

كنت أتوقع أن يقوم الإعلام وخاصةالتليفزيون بوضع سياسة تقوم على فكرة التحريض على استخدام العقل بوصفه مهندس الحضارة فى كل عصر، وتقليل نسبة الفاقد فى الطاقة والوقت الذى يهدر فى مشاهدة مسلسلات معظمها يكرس للبلاهة والسخافة والعشوائية بل والعدوانية، ولا يكف الجهاز العجيب عن استدراج الجماهير بكل الوسائل ليقبعوا

أمامه ويسقطوا فى غرامه ليلتهم أعمارهم بغير طائل إلا قليلاً.. فالفكر قليل والفن نادر، والعلم محدود، والإنصاف يدعونا للاعتراف بأن ذلك أمر طبيعى، فمعظم معدى البرامج والمذيعين لا ثقافة لديهم ولا يستطيعون إجراء حوار علمى أو فكرى معمق، ومع ذلك فكل منهم مادام يظهر على الشاشة يتصور أنه عبقرى، وهو فى الحقيقة جاهل يجيد الابتسام وارتداء الأزياء اللافتة وصديق للممثلين والممثلات، ويحسن سؤالهم عن آخر ما قدموا ومثلوا والمواقف التى مرت بهم وتتميز بالطرافة.

الأعجب من هذا أننى سألت بعض المصريين عن السر فى غياب البرامج العلمية والفكرية الجادة قيل إن هناك توجيهات عليا بالتخفيف عن الناس، أو الاكتفاء ببرامج المرح والتسلية وعشرات الأفلام التى تعرض يوميًا، مما يجعلنا نتصور أن الجهاز الشعبى الذى يمتلك القدرة على الحوار مع كل المصريين حتى المقيمين فى الصحراء غير قادر على أن يواكب العصر، وعاجز عن القيام بدوره فى استدراج الجماهير للتعرف على ما يحدث حولنا وفى كل المجالات من أجل تطوير حياتنا.

أنا لا أبالغ إذا تصورت أن التليفزيون يمكن أن يكون قوة ضاربة للجهل والتخلف وطاقة جبارة مشاركة بقوة نحو مستقبل أفضل تبدأ منظومة انطلاقه من استخدام العقل.

الإخلاص وتقديس العمل

الإخلاص هو حالة من العطاء الكامل (نفسًا وعقلاً وجسدًا) لما نؤمن به ونثق فيه سواء كان عملاً أو مبدأ أو شخصية، وهذا الإخلاص أو هذه الحالة التى تتلبس الصوفى، والعابد لفرط ثقتهما بالله وإيمانهما اللانهائى بوجوده وقدراته وبديع تجلياته، حتى لكأنه بالنسبة لهما هو كل الوجود.

وهذه الحالة من الإخلاص هى التى تدفع الفنان الموهوب لتسليم جماع ذاته لفنه، فلا يرى غيره ولا يحس إلا به، ويعتبر نفسه وجسده وفكره مجرد أدوات تقربه من الفن. وهى نفس الحالة التى تصيب بعض الأطباء الملهمين، فيهب نفسه لمحاربة المرض ولا يجد سعادته إلا فى شفاء المرضى، والشاعر الذى لم يعرف صديقًا غير شعره، ولم يعرف جليسًا إلا الكتاب أو زميله الشاعر، وهو لا يدرى كم قضى من الوقت هائمًا على وجهه فى إثر قصيدة من الشعر على هيئة فراشة يلفها السحر وتحلق على أجنحة الحب والجمال.

إننا قد نلقى الإخلاص لدى الإسكافى، وقد نصادفه لدى المعلم الذى قرر أن يبذل قصارى جهده شاحذا كل فكره كى يصب فى عقول التلاميذ ألوانًا مختلفة من العلم والثقافة والتربية، مؤمنًا بأن العلم أقدس

الرسالات، ومثل ذلك الفلاح الذى يعشق أرضه ويتعامل معها على أنها أخته أو زوجته، والشأن ذاته مع بعض العمال فى المصانع حيث يتعاملون مع الآلات بحرص وحنان ومحبة، ويقلقون إذا أصابها مكروه أو صدر عنها ما ينم عن معاناتها.

الإخلاص فى اللغة يعنى الصفاء والتصفية، أى الفراغ للشىء أو الموضوع ويعنى أيضًا الخلو من الشوائب، وأخلص فلان لفلان، أى خلت نفسه من أى شائبة تجاهه أو رياء أو سوء ظن أو شك أو غير ذلك من الشعور الخبيث ومنها المخالصة أى تصفية ما بين الدائن والمدين أو عدد من الأطراف.

وهذه التصفية والتوجه ناحية المبدأ أو الشخصية أو الهواية أو العمل لا تكون إلا بعد تمام الإيمان به والثقة فى جدوى التقرب إليه، والاستعدادلقبول وتحمل ما قد يكابده المخلص من مشاق أو عنت.

ومن تكن العلياء همة نفسه فكل الذى يلقاه فيها محبب

ويستلزم الإخلاص الجدية، لأن الإخلاص التزام، ويقتضى عملاً جادًا وعطاء وافرًا بل وإجادة وتحسين دائمين، ولو لم تتوفر الجدية والإجادة تيسر التشكيك فى درجة الإخلاص.. ومن ثم لابد من توفر المثابرة والعطاء دون أن تتوقف محاولات التجويد.

وهكذا نتصور الإخلاص كأنه بللورة رائعة من الأداء الإنسانى الذى يبدأ بالإيمان العميق، ثم يتحول هذا الإيمان أو الإعجاب الشديد إلى محاولة الالتحام وذلك يتطلب تواصلاً واقترابًا فيما يعد مهر الإخلاص وإحسانًا وإتقانًا وتفرغًا بالكلية.

ولا يذهب الإخلاص هباء أبدًا، فله مردوده الذى يفوق فى العادة ما بذل فيه، خاصة إذا كان المخلص له يستحق جهد ا لمخلص.

أول الإخلاص وأقدسه هو ما يتعين أن يكون لله، لأنه هو الأول والآخر، لذلك فإن المؤمنين به إيمانًا صادقًا، حقيقيًا وليس شكليًا لابد أن يؤكدوا دائمًا معرفتهم لذاته وإخلاصهم بالتوحيد الذى لا يقبل أدنى مشاركة.

وإذا كان القرآن الكريم الذى يحوى ١١٤ سورة، لكل منها اسم يستمد من متنها، فإن سورة الإخلاص هى الوحيدة التى لا تتضمن الكلمة ذاتها ولكنها تحتوى دلالتها، ونص السورة:

«قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد»، وهى السورة التى تعلن أن الإخلاص لله يكون بالعبودية له وحده، وقد قيل فى إحدى الروايات عن الرسول (ص) أنه قال: إنها تعادل ثلث القرآن، ولعله بهذا يشير إلى أهميتها بوصفها شهادة بالإخلاص والإخلاص أساسه الإيمان وتترتب عليه التزامات تصل فى أعلى ذراها حد الفناء فى المحبوب أو المخلص له. «ألا لله الدين الخالص» الزمر٣.

«إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين» الزمر٢

«واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصًا وكان رسولاً نبيًا» مريم ٥١.

والإخلاص يقتضى - كما سبقت الإشارة - الإتقان والإحسان والتفنن والإبداع، وبذل الوقت والجهد والفكر من أجل إنجاز أفضل إتقان ممكن.

لن يتقدم فن أو مهنة أو حتى دين إلا بتحسين الممارسة، والإخلاص لها بشكل يطورها ويرفع شأنها، لذلك قيل فى المثل الشعبى «صاحب بالين كداب».

وفى الإتقان ملمح أساسى من ملامح أداء المسلم، فيدعوه الله لذلك قائلاً للمؤمنين: «وأحسنوا إن الله يحب المحسنين» البقرة ١٩٥. «إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها» الإسراء ٧.

وقد يكون معنى الأولى، التصدق، وهو فى هذه الحالة يعتبره المولى إجادة للتدين وإظهار مدى الإقبال على الله، بالإقبال على عباده، وهذا ما صرح به الله أيضًا فى أكثر من حديث قدسى.

ويذكرها الرسول المصطفى بالحرف قائلا:

«إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»، وهذا الحديث وحده مع التطبيق الدقيق يدفع أى أمة متخلفة إلى الأمام خطوات واسعة ويضمها إلى كوكبة المتقدمين.

يقول الله مؤكدًا: وهل جزاءالإحسان إلا الإحسان؟.. لن يضيع جهد بذله صاحبه فيما يهوى، والحب دليل، حب الله يكرمنا وحب الأهل يدعمهم ويدعمنا، وحب الأحبة يبهجنا ويسعدنا، وحب العمل يجلب الربح والخير، وحب العلم مجد، والإخلاص للعلماء لحاق بهم، والإخلاص للوطن شرف، والتضحية فى سبيله رفعة له ولنا.

يقول رب العزة فى سورة الكهف: «إنا لا نُضيع أجر من أحسن عملاً»٣٠.

والنماذج العربية والمصرية من العلماء ورجال الدين والفكر والمؤرخين والفنانين تدل بما لا يدع مجالاً للشك أن المجد صنو العطاء والشهرة ثمرة الإخلاص والتاريخ لا يسجل فى دفاتره إلا من منح بلا حدود، وقدس عمله وعشق فنه وعكف على بحثه ولم يبدد وقته فى الثرثرة على المقاهى، أو التسكع فى الشوارع أو القعود أمام التليفزيون يتقلب على شاشات القنوات العديدة.. المجد ليس لعبة أو رشوة أو علاقات، حتى لو حدث هذا فهو بناء هش، وأما العطاء الجاد والبناء فهو يقيم صرحًا لا ينهدم، وإلا ما احتفظت لنا الذاكرة بأسماء أعلام مثل العقاد وطه وعلى إبراهيم وأم كلثوم والريحانى وجبران وأبو سيف وعبدالناصر وسعد وهبة ومحفوظ ومشرفة ومصطفى كامل وعبدالحليم وعبدالوهاب ودرويش

ويوسف شاهين ومن قبلهم خالد بن الوليد وصلاح الدين وقطز والظاهر بيبرس والرازى وابن سينا وابن الهيثم وابن النفيس وابن خلدون وعشرات من المخلصين الجادين.. لم يسمحوا لأنفسهم أن تتخلى عما تحب.

«وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يُرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى وأن إلى ربك المنتهى» النجم٤٢.

وجاء أوان السؤال.. هل الإخلاص والإتقان والجدية متوفرة بشكل يجعلنا ضمن أفضل ثلاثين دولة؟. هل يمكن أن نكون مثل البرازيل والبرتغال ورومانيا والفلبين وماليزيا وسنغافورة أو بولندا وأيرلندا وتايوان وكوريا، فهناك صف أول يضم أمريكا وروسيا واليابان وألمانيا وفرنسا وكندا وإنجلترا وصف ثان يضم دولاً مثل إيطاليا وأسبانيا والسويد والدانمرك والصين وهولندا وسويسرا والنمسا واسكتلندا وما شابه ثم الصف الثالث الذى نأمل أن نكون ضمن دوله وقد سبق ذكرهم.. ومما يؤسف له أن حالتنا لا تسمح بأن نلحق بهذه المكانة أو المرتبة.

هل يرضى مصرى على نفسه أن يقال صناعات كينيا وبنجلاديش أفضل من الصناعات المصرية. هل يقبل مصرى أن تكون صادرات إسرائيل خمسة أضعاف صادرات مصر؟

يقول بومونت وفليتشر فى مقدمة كتابهما «نصيب الرجل الأمين» «لا تجشم نفسك مشقة البحث وراء نفسك، فيها كل شىء والإنسان نجم نفسه»، ولماذا نستمرئ الاقتباس بأقوال الآخرين ولدينا قول الخالق واضح ومحدد «وفى أنفسكم أفلا تبصرون».

إن النجاح لديك وكذلك الفشل، لو امتلكت الروح الواعية بنفسها وتنبهت هذه الروح لإمكاناتها ومكانتها لتغير الحال وأخلصت العمل.إن إخلاصك لعملك يجعلك مميزًا ومختلفًا، ولكن بعمل غيرك تضل وتضيع وسط القطيع، ويذكر غيرك.. هذا هو عماد النهضة لأن العظمة تنظر إلى المستقبل وترفض التبعية للغير.

يقـول إمـرسـون: «إن التـاريخ كله يرتد بأسـره وبسـهـولة إلى سـيـرة مـجـمـوعـة الأشـخـاص الجـادين» أي أن الدنيـا كلهـا صنعـهـا عـدد من المخلصين.

ويقول: إن الدنيا أحيانًا تتآمر على أن تشغلك بتوافه ليس لك عنها محيص.. يطرق بابك الصديق والعميل والطفل والمرض والخوف والتسلية والحاجة فى وقت واحد وتقول لك: أخرج إلينا.

عندئذ الزم حالتك، فهدفك كبير وسوف يفيدون منه، لا تخرج إلى ما يضطربون فيه، إن القوة التى يمتلكها الناس إنما أعطيهم إياها بضعف فى نفسى هو حب التطلع، ولا يستطيع أحد أن يقترب منى إلا عن طريق ما أعمل، إننا نملك ما نحب، ولكننا بالاشتهاء نحرم أنفسنا مما تحب».

إن نظرة شاملة للأداء المصرى فى كافة المجالات من واقع القراءات المستمرة والمتابعات والشكاوى المحلية والدولية والإحصاءات ومتابعة الصحافة تخلص إلى أننا بشكل عام نتحرك فى مجال أرضى قعيد، فى مستويات من العمل والفكر متواضعة نتأمل ما تحت أقدامنا، ولا نفكر فى التحليق ولا فى العبقرية البناءة، وتشغلنا المكاسب السريعة كنتاج لعمل تافه وغير نبيل، وقليلة هى تلك الأعمال المظيمة سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات أو على مستوى الأمة.

والسبب فى رأيى هو أن معظم المصريين غير مخلصين لأعمالهم ولبنى وطنهم ولا للمبادئ والقيم، وثمة نفعية ومادية تسيطر فى الغالب على التوجهات والسلوك.

أما عن الجدية فهى بالتأكيد مفتقدةإذ نأخذ كل شىء تقريبًا بنصف اهتمام وبكثير من اللامبالاة، ولا يشغل البعض النجاح، ومن يحفل بذلك يفضله عن طريق أعمال سريعة العائد غير مرهقة أو مكلفة.. وثمة حالة شبه عامة من الاستهانة والاستهتار بالأمور.

إن الروح المصرية التى ارتبطت بالفكاهة والسخرية لا تزال تعمل عملها بقوة، وتضحك من كل شىء ولا تعير الأمور التفاتًا اعتمادًا على أن الدنيا لن تتهد ولن يتغير الحال، وربما كان ذلك مقرونًا بمسحة من اليأس، لكنه فى كل الأحوال وضع مرفوض وباب رئيسى للتخلف.. وفات على الكثيرين أن حياة كلها فكاهة وسخرية لم تعد تصلح، لأن الإيقاع والحساب أصبح عسيرًا وتغيرت إدارة الدنيا وظهر أناس جدد وأنظمة جديدة لا ترحم، وتقودها الشركات متعددة الجنسيات وعابرة القارات وهى التى تتحكم فى العالم اليوم ولن تعرف «ياامه ارحمينى» أو «معلهش النوبة» أو «سامحو» أصله يتيم».. كل هذا أصبح عملات فقدت صلاحيتها وغير قابلة للتداول، إن حياة الكثيرين منا قد تناسب أو تصلح للثلاثينيات أو الأربعينيات فى أحسن الأحوال.. أما حياة اليوم فى العالم فهى تطالبنا بسرعة التصرف واستبدال آليات حياتنا جميعها لكى تتلائم مع روح هذا العصر.

هل يمكن أن يصلح لهذا العصر حال السكك الحديدية أو أسلوب الزراعة أو الغش فى الصناعة أو وضع التربية والتعليم أو الثقافة، أم يا ترى يصلح وضع الشباب أو وضع القرية المصرية أو حالة الصعيد كله الغارق فى الظلم والظلام والإهمال.

قديمًا كانوا يقولون: كله عند العرب صابون، أى أن كل شىء يتساوى.. المجتهد مع الكسول، المجد مع الخامل، المهتم مع اللامبالى، هذا جميعه يرجع إلى عدم جدية كثير من القيادات والمديرين والآباء.. فلابد فى كل الأمور من توفر القائد والمتبوع والقدوة، الذى يتطلع إليه الجميع ويقلدونه ويسيرون على دربه.

الجدية سمة ضرورية للعمل والعطاء والإنجاز وبدونها لا أمل فى إتمام أى مشروع بالصورة اللائقة، وكم لدينا من مشروعات مرت عليها عشرات السنين دون أن تكتمل وكم من قضايا تحاصرنا وأوجه نقص

تعوقنا، وتحديات تواجهنا ولا نمتلك الجدية اللازمة للمواجهة والحسم، رغم وجود الدراسات المعمقة لكل ما نعانيه.. لكن غياب الجدية معول كبير يهدم ويحطم.

أما تقديس العمل، فمن كانوا يقدسون العمل انتهى عهدهم، ومعظم العمالة الحكومية بين المقاهى والأسواق وفى الشوارع وأمام التليفزيون.

لقد زرت العديد من الدول فلم أجد فى أى منها نظامًا للعمل مثل النظام المصرى.. فى الصين مثلاً يخرج الجميع من السابعة إلى العمل ولا ترى بعد ذلك مخلوقًا فى الشارع قبل الخامسة حيث يخرجون جميعًا وينامون فى التاسعة وتغلق المحال والمقاهى فى الثامنة مساء، وكذلك فى أمريكا.. العمل من السابعة إلى السادسة.. عمل متواصل لا حوار فيه، ولا ضيف، ولا تليفون إلا للعمل ولا راحة إلا نصف ساعة ويتمتعون بأجازاتهم مساء السبت وطوال يوم الأحد ومثل ذلك فى أوروبا وشبيه به ما يجرى فى البلاد العربية كدول الخليج وشمال إفريقيا.. إلا مصر.. تبديد للوقت وغياب وإجازات وترك العمل وقت يشاء الموظف ما عدا المصانع والقطاع الخاص ففيهما جدية والتزام.

لاحظنا إذن أن كم الساعات التى يمنحها الموظف والعامل لعمله قليلة، فماذا عن الكيف؟. إنه فى نظرى وفى نظر القراء قبلى ودون الدخول فى جدل مجانى غاية فى السواء.. والأمثلة بلا حصر، سواء على المستوى الفردى أو الجماعى، ولننظر أولاً إلى موقف العالم من المنتجات المصرية، هل تحظى بإقبال شديد ويبحثون عنها فى الأسواق ويتسابقون للحصول عليها؟ وإذا احتاج مواطن فى أى دولة من العالم سلعة ما، هل يقول بالصوت الحيانى: أريد المصرية الإجابة طبعًا بالنفى المصحوب بالأسف، فالمعروضات المصرية أولاً: قليلة جدًا فى الأسواق الخارجية والمعارض المؤقتة والدائمة، وثانيًا: سيئة التغليف وثالثًا: غير جيدة من حيث الخامات والصناعة ورابعًا: غالية السعر، حتى المعلبات التى تحتوى

العصائر والمواد الغذائية، وكنت أتصور أننا نحسنها لكنها لم تكن بأفضل حالا من غيرها.

قد تكون هناك سلع مثل السيراميك أو السجاد، لا بأس بذلك ولكن هل هذا هو حجمنا أو نصيبنا فى التجارة العالمية، ومن أين سنسدد ثمن الواردات إذا لم تكن صناعاتنا ومنتجاتنا من الجودة بحيث تنافس الراسخين فى البيع والتسويق، المسيطرين على مساحات التصدير لكى نوازى فقط ما نقوم باستيراده.

هى يرضى مصرى عن نفسه عندما يعلم أن ٦٪ فقط من إنتاجه يصدر، وعندما يعلم أن سنغافورة تصدر ما يساوى كل صادرات العرب.

ولنسأل بعد ذلك عن السبب.. إنه بلا لف ودوران.. ميل بعض المصريين للغش.. أو بمعنى آخر نظر المصريين للمكسب لا للجودة، للربح لا للسمعة للأنا لا الوطن.. لذلك تجد الكثير من الخدمات سيئة وضارة وقصيرة العمر، ومثال ذلك السباك الذى يقضى على ميزانيتك ليصلح ماسورة أو سيفون، ما إن يمر يوم أو يومان حتى يغرق حمامك ولا تستطيع أن تجده بعد ذلك، ومثله الميكانيكى.. يسلمك السيارة دائرة، لكنها فى اليوم التالى تقف بك لنفس السبب.. الخياط يود أن يسرع خلال ساعة بالانتهاء من القميص ويلقيه إليك تخلصًا منه.. والأزرار تبدأ فى السقوط وكذلك نقودك لأن الجيب مقطوع، عبرته الماكينة.. الغش والإهمال يصاحبان كل سلعة وكل خدمة.. الغش فى الدواء والجبن والطوب والحديد واللبن والشيكولاته، بل وفى الحب كما هو فى المبيدات الحشرية وسوائل التنظيف.. ليس المهم فى نظر الكثيرين جودة العمل لأن العمل نفسه ليس هدفًا.. الهدف هو ما نجنيه من وراء العمل.. «إرم بياضك»، «ولا يمنى على الفكة».

هكذا نرى أن تقديرنا لأهمية العمل تقدير متضائل، والفلسفة التى تكمن وراء هذا التقدير لا تعيره إلا القليل من الالتفات، فمعظم من ضمن

رزقه أستنام وخلد للراحة، أما الشباب فمعظمهم يكاد يكره العمل الذى يحول بينه وبين استمتاعه بالحياة، وإذا كان يطلب العمل فبسبب ما سيكتسبه وهو غير متحمس لاكتساب معرفة أو خبرة، لأنه لا يؤمن بالعمل أصلاً، وقد يكون المناخ العام الذى صور له إمكانية كسب مبالغ كبيرة بعمل قليل قد ساعد على ذلك، لكن المنظومة بكاملها لا تفضى إلى تطور أو الأمل فى تحقيق إنجاز مرموق، مالم يكن تقديس العمل فلسفة وإيمان راسخين بصرف النظر عن العائد، لأن انتظار العائد والعمل على أساسه يعنى أمرين، أولاهما تذبذب درجة الاتقان حسب طبيعة الأجر واختفاء العمل التطوعى الذى لا غنى عنه فى كثير من المجالات.

فى المستشفى الحكومى لا يخصص الطبيب لها عشر الوقت المطلوب، وإذا حضر فهو لا يسلم عقله كله وخبرته، بل أقل القليل، لأنه يرى أن البشر نوعان: نوع جدير بالإهمال هو الذى يحضر إلى المستشفى ونوع جدير بالرعاية والابتسام والمداعبة والاطمئنان الكامل على ما يخصه وهم المرضى الذين يذهبون إلى عيادته، متغافلاً عن مهمته فى تدريب الأجيال الجديدة من الأطباء، ومستخفًا بمهنته كوسيلة إنسانية لتخفيف عذابات البشر.

إذا كان المرء لا يقدس العمل، فهو بالقطع يود أن يعترف بعدم جدواه هو، إنه لو كان ذا جدوى لجعل العمل موضوعًا جديرًا بالاهتمام، وجعل مكان العمل جذابًا، وأجرى عليه التطوير الملائم وحببه إلى نفسه بحيث يهفو إليه ويسعد ببقائه فيه ومع المتعاملين معه.

المصرى عامة لا يتحرك إلا تحت ضغط، ولا يتحرك من نفسه، وإنما بالأمر وخشية العقاب ولا يمضى نحو هدف كبير إلا نادرًا، وهذا وضع لا يتناسب ودولة تتوق للتقدم، ومعظم الصفات السابق ذكرها للأسف هى من صفات العبيد (العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الإشارة).

إن أغلب الأخطاء القاتلة التى تطالعنا كل يوم على صفحات الصحف من سائقى الأجرة والأتوبيسات والقطارات والعمال فى المهن المختلفة، والشرطة والمهندسين وغيرهم تكشف عن توجهات نفسية وعقلية لا تقيم وزنًا لقداسة العمل ولا تكن له احترامًا، كما أنها دلالة بالطبع على تحقير الإنسان وعدم الاعتداد به، فليس مهمًا أن يشرب السائق الكحوليات أو يدخن الشيشة وهو سائق، وليس مهمًا أن ينسى الطبيب الفوط فى بطن المريض، وليس مهمًا أن يطمئن بنفسه على كل شىء، وليس مهمًا أن يراجع المهندس خامات البناء ويتأكد من ضبط الكميات وكفايتها ونوعها، ولا أن يدقق فى استلام الشقق أو المبنى.. سور السلم غير المتماسك وسور الشرفة المخلوع والسباكة الفاسدة والمواسير التى لم يحكم تثبيتها وتهدد أكثر من نصف عمارات مصر.. لا يهم، المهم أن يقبض ويوقع، تنفيذًا لأحد شعارات الانفتاح الشهيرة «إخطف واجرى».

إن احترام المهنة يعنى تجويدها وتطويرها والابتكار فيها فضلاً عن حبها وحب العاملين بها والمتعاملين معهم، وسائقو الميكروباص مثال لذلك، وأغلبهم سبة فى جبين البشر.

إن الأداء الجيد يقتضى نضالاً وحماسة وجدية ومحاولة للتميز، وكيف يتحقق ذلك ومعظم من يسعون للمسئولية وتولى المناصب يفكرون فيها بوصفها مفاتيح للثروة والسلطة والنفوذ و«الهبر» ومن ثم فلا تتاح الفرصة للتميز.

التميز صفة يرضعها من الصغر أطفال الدول المتقدمة، وشعارهم لابد أن نتفوق.. كل شىء متوفر، فما الذى يجعلك إنسانًا عاديًا، ولمن الصدارة والمقدمة إذن؟!

إن المجتمع الذى يحتقر التميز فى الميكانيكا بوصفها نشاطًا متواضعًا، ويتسامح مع التفاهة فى البحث العلمى بسبب أنها نشاط مرموق سوف ينتهى به الأمر وهو لا يملك ميكانيكا جيدة ولا بحث مفيد،

والمجتمع الذى يتجاهل مخترع ناشئ ويقبل إيد ممثلة كومبارس، سوف يفقد الاثنين معًا بالاهمال للأول وتشجيع الغرور للثانى، بل سيفقد أجيال تبحث عن القدوة فسوف تجد بين أيديها أمثلة فاشلة.

المفترض أن ينضوى تت راية التميز كل مجيد مهما كان مجاله، ومطالعة موسوعة جينيس دعوة للمتفوقين وتشجيع كبير لهم.

يقول وليم جيمس منذ مائة عام:

«إن العالم بدأ يدرك أن ثراء الأمة يتكون قبل كل شىء من عدد المبرزين على أرضها».

فبقدر ما بالأمة من موهوبين ومخلصين فإنها تقترب من آفاق الرخاء والازدهار، ولابد لكى تكتمل المنظومة من أن يكون هناك:

موهوب + مناخ + اكتشافه ⟵ صقله ⟵ تشجيعه + تمويل + فرص لعطائه ⟵ تقدير وأضواء.

فى كل مرحلة من المراحل نحن فى حاجة إلى أناس جادين، رعاة ملتزمين يتعهدون الموهبة بالدعم والرعاية والتوجيه والتثقيف، وبالبحث لها عن فرص وتشجيع للحفز على الإبداع.

ونحن - فيما علمت ورأيت وتابعت بنفسى - نبذل كل جهدنا لإهدار المواهب وتجاهلها أو التخلص منها ومحاربتها، لأن الأنانية هى الغالبة وليس الجماعية، الأثرة وليس الإيثار.. هل يمكن أن يحدث فى العالم ما حدث فى مصر.. تلك الواقعة عن تقدم صبية موهوبة فى الرسم بعدة لوحات - للاشتراك بها فى مسابقة دولية، وتعجب بهاالمديرة المسئولة عن المسابقة، فتقرر رفع اسم المشتركة ووضع اسم ابنتها عليها، ولحسن الحظ فازت اللوحات بجوائز أولى على العالم وأقبلت وسائل الإعلام المصرية والعالميةتشيد بابنة المديرة وتعرض اللوحات عبر شاشاتها، وهناعلمت

الفتاة المظلومة بالخبر وأدركت اللعبة، فصرخت.. من قلب قلبها.. المسكينة صرخت .. هذا العمل لم يكن الوحيد ومؤكد مثله العشرات، والجامعات تشهد بذلك.. فما أثر ذلك فى نفوس الفتية والفتيات، والشباب والشابات والأجيال الجديدة؟.

ما أروع أن يحس كل فرد بقيمة إنجازه، بل ما أروع أن يحرص كل فرد وكل مؤسسة على أن يكون هناك إنجاز صادق وشريف، جيد جدا ومتميز لابد أن تتغلغل كلمة التميز فى كل طفل وشاب ومواطن.. التجويد والإتقان إلى درجة التميز.

ما رأى القارئ الكريم فى هذه المفارقة:

السويد عدد سكانها ٨٫٥ مليون.

إنتاجها ٢٣٠ مليار.

ومصر عدد سكانها ٦٥ مليون.

وإنتاجها ٨٠ مليار.

نصيب الفرد فى كوريا من الدخل كان عام ١٩٦٢، ٨٧ دولار أصبح الآن ١٠٠٠٠ دولار.. كان الناتج القومى عام ١٩٦٢، ٤ مليار. تضاعف ١١٥ مرة فأصبح ٤٥٨ مليار، واستطاعوا أن يصدروا ١٧٣ مليار من الدولارات كل عام وفى الوقت نفسه أصبحت نسبة الأمية صفرًا.

وهبط النمو السكانى من ٢٫٦٪ سنويًا إلى ٠٫٨٪.

يقول جون جاردنر فى كتابه «الموهبة والقيادة»: إن أحسن سر مكتوم فى أمريكا «هو أن الناس يفضلون أن يكدوا فى العمل فى سبيل شىء يؤمنون به على أن يعيشوا حياة لهو لا هدف لها».

لذلك أتصور أن وسائل الإعلام ووزارة التربية والتعليم ومراكز الشباب عليها أن تكثر من البحث عن الموهوبين والمتميزين وتشجعهم بعلانية ودوى، وأن ينتشر شعار أن مصر تمضى بخطى واثقة نحو المجد،

ولن يتحقق هذا إلا بالطفولة والشباب المتميز.. كانت مصر عبر حقب كثيرة نجمة العالم المعمور آنذاك، ولقد خلقنا من قديم للمجد، لكن ذلك كان فى الماضى ونحن بحاجة إلى استعادته، تجديد العقد مع التفوق والتميز، فقد خلقنا له، والشخص العظيم حقًا هو الذى ينجز الشأن العظيم.

ولكى يتم ذلك لابد من أن نوجه أولادنا للنظر إلى السماء والتطلع للنجوم ونطمح للمعالى ونعانق الأعمال الكبرى ونقدس العمل ونجوده ونبرع فيه ونمنحه كل حياتنا، ونترفع عن المشاكل الصغيرة والتفاهات والسخافات والشهوات العارضة والنزعات المغرضة والأحقاد.. نحن بحاجة إلى السمو.. ولذلك فلابد من تصفية القلوب والعقول للأهداف الكبرى والآمال العظيمة، أما ما يجرى من مواقف تافهة وأشكال مختلفة من التبديد فهى البئرالتى نسقط فيها ونبتعد عن نور الحياة.

الموضوعية

لعل من تحصيل الحاصل القول بأن من القواعد الضرورية والمهمة لبحث أى قضية البدء بالاتفاق على معانى الألفاظ بحيث تكون صورتها ودلالاتها واحدة وواضحة لدى الأذهان.

والموضوعية صفة للأسلوب أو الطريقة التى يتعامل بها الانسان مع الحقائق بعيدا عن مشاعره أو ميوله، وهو منهج يترفع على العواطف والمصالح الشخصية وفى مقابله «الذاتية» أو «العاطفية». وهى الأسلوب الذى يتأثر كثيراً بذات الانسان ونفسيته وأطماعه وعقده ومزاجه الشخصى.

هذا يعنى أن الموضوعية لاتعترف بمكانتك أو ثراءك أو سلطاتك لكنها تحترم فقط ما لديك من أدلة وبراهين تدعم بها رأيك، وحبذا لو كانت عملية وعلمية وليست فقط نظرية، أو منطقية، وهى أيضا تعنى استخدام الحوار المتوازن بين كافة الأطراف فى مدارسة أية قضية كوسيلة راشدة ومحددة لبلوغ النتيجة الصحيحة أو اتخاذ القرار المناسب، وهى تعنى قبول الرأى الآخر برغم الاختلاف، والرضا بغلبة الفكر المخالف وأحقيته بالاعتبار والتنفيذ، ومن دلالاتها أيضا احترام القانون واللجوء إليه لرد الحقوق أيا كان نوعها.

أما الذاتية أو العاطفية فقد تدفع إلى الانفعال والاستبداد بالرأى أحياناً والغضب وتوابعه، واعتماد أسلوب الانتقام أو الرد العنيف منهجا فى إقرار العدل أو استرداد الحق.

إن الأصل فى تسمية «الموضوعية» هو الموضوع Object، أى التركيز فقط على ما يخدم الموضوع أو القضية، والتقدير كله يتعين توجيهه نحو الموضوع ومن أجله، فإذا كانت مؤسسة ما بحاجة إلى مهندس قوى، فإن المسابقة التى ستنظمها المؤسسة تحدد مواصفاته، وليس من المعقول أن يتم تعيين مهندس مبانى بدلا عنه ولأنه قريب أو نسيب المدير العام أو رئيس المؤسسة، فهذا يعنى أن عوامل أخرى غير الموضوع (مواصفات المهندس) هى التى حكمت وبذلك يتراجع ملمح مهم من ملامح الموضوعية هو وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب، ولايتعين أن تمثل حيثية المدير أى شكل من أشكال الضغط أو التوجيه.

ومن المفترض أن حوارا جرى بين رئيس المؤسسة والمدير الفنى أو رئيس العمال فيما يخص الآلات، فإن المنصب لايرجح رأيا فى هذا الخصوص، بل الخبرة والعلم، وليس من الموضوعية فى شئ أن يصر الرئيس على رأيه لمجرد أنه الرئيس، بل لايصح أن يتفق مع جهة دون الرجوع إلى المتخصصين.

ومن هنا تتطلب الموضوعية الحقة إجراء دراسات للجدوى، وهى دراسات علمية وعملية لا علاقة لها بالأشخاص على الاطلاق، وكل ما تقوم عليه هو الحقائق والأرقام. ونفس المنهج يجب أن يسود عند تحويل المدون على الورق إلى واقع، والنظرية إلى تطبيق والحلم إلى حقيقة من خلال مقابلات موضوعية دقيقة.

ونحن فى مصر أحوج ما نكون إلى هذا المنهج، ولا أحسب أن أحدا ينكر أن المصريين من أكثر شعوب العالم عاطفية، وخضوعا لتأثير المشاعر، وتقديرا للعلاقة وتقديسا للرابطة الاجتماعية ومنحها اعتبارا كبيرا وإتاحة مساحة من التعاطف مع كل هذه الوشائج الإنسانية.

فالقاتل الذى يتمنون له الموت عدة مرات، إذا التقوا به وبكى أمامهم ندما (ولو تكلفا وكذبا) طلبوا له الرحمة، وسألوا القضاة تقدير ظروفه اعتمادا على أن له أولادا، أو تعللا بزوجة مريضة أو غير ذلك من الحجج.

لقد ترسخت العاطفية لدى المصريين وتبدت فى «العشم» وسيادة كلمة «معلهش» وتأثير النسب والقرابة والمجاملات التى لا حدود لها ولابدأن يخدم فلان جاره أو زميل الطفولة وإلا «فأين يودى وشه» إن العشم و«المعلهش» وهذه الكبارى التى تتسلل عبرها العاطفية والذاتية إلى حياتنا تفسدها تماما، وتهدد توجهنا نحو التقدم فكيف يتسنى لنا أن نطمح إلى بلوغ مكانة مرموقة بالقرب من دول المقدمة، ولايزال المدير يكتب عن جميع موظفيه تقارير ممتازة، و٩٩٪ من العاملين فى مصر يحصلون على هذه التقارير التى يقر فيها المدير بأنهم حريصون على الوقت وأن لهم اهتماماً غير عادى بالعمل، وتفانيهم فى خدمته وقدرتهم الرائعة على الابتكار، وتلك العلاقة المثالية التى تجمع العامل مع زملائه، وتمتعه بالاستفادة العالية من التدريب وتحمله المسئولية ، وقدرته الإشرافية المتميزة.

وهكذا يختلط الحابل بالنابل، وغيرنا لابد سيسأل، كيف يستقيم أن تكون هناك مثل هذه التقارير بينما الإنجاز الحقيقى متواضع على كافة المستويات.

إننا إذا التزمنا الموضوعية الحقة فقد لايحصل على الامتياز أكثر من خُمس العاملين.

إن غياب الموضوعية هو الذى يدفع البعض إلى الاستعانة بأهل الثقة لا أهل الخبرة، وأهل الثقة تعبير مهذب لواقع سىء، يقوم على المحسوبية والاعتماد على فريق من غير أصحاب الكفاءة والخبرة لأنهم من المعارف والأصدقاء ويمتون بصلة لأرباب السلطة والنفوذ، وليس مهما إنجازهم أو حسن أدائهم وإخلاصهم للمؤسسة، المهم إخلاصهم للرئيس وولائهم له.

إذا كان هذا السلوك المصرى عنيد وراسخ، فربما لم يستشعره الناس بقوة إلا بعد إثارته عبر التحليل السياسى والاقتصادى لفترة ما بعد ثورة يوليو ١٩٥٢، حيث أصبح يشار كثيراً إلى اعتماد رجال الثورة على من عرفوهم قبل اعتمادهم على أهل العلم والخبرة، ولعل ذلك فى البداية يعد أمرا طبيعيا، فما كان الضباط الأحرار على علاقة بالكثير من المدنيين ولم يكن لهم صلة إلا بزملائهم.

الغريب أن بعض المناوئين للثورة هاجمها حتى بعد أن تخلت عن أهل الثقة واستقطبت أهل العلم والخبرة، قائلين إن الثورة تأكل بنيها وهذا أيضا مما يدخل فى إطار الأحكام الذاتية إذ يصدر عن عاطفية مضادة.

فالهجوم الأول افتقد الموضوعية، وعندما تم تصحيح السلوك ظل الهجوم كما هو، والمفترض مع توفر الموضوعية توقف الهجوم بعد تغيير الإجراء.

لايعنى الحديث عن رسوخ الذاتية وشيوع المجاملة وتجاهل الموضوعية فى كثير من المستويات والمجالات أن المصريين ضدها أو انتهاجهم لها مستحيل، فليس ثمة أمر صعب على المصريين، هكذا علمتنا التجربة، مادامت قد توفرت الإرادة وأيقن الجميع أهميتها وجدواها وأنه لامفر منها إذا كان الهدف كبيرا ومصيريا.. وكم من مناسبة كشفت عن روعة الأداء المصرى، خاصة عندما لايكون هناك البديل إلا الموت أو الضياع فما يلبث أن ينطلق كأنه عفريت خرج من قمقم.. يبدو فجأة ماردا قويا وعملاقا وقادرا يحقق ما يشاء بمنتهى البساطة.

إلا أن الأمر للأسف فى مجال الموضوعية، محفوف بالمخاطر ودونه عقبات، منها: كثرة عمليات المصاهرة بين كبار المسئولين والوزراء ورؤساء مجالس إدارة الهيئات والمؤسسات العامة وأعضاء مجلس الشعب ورجال الأعمال، ويقتضى هذا تشابك المصالح وارتباط المنافع، ولذلك تأثير بالغ على القرار والإجراءات ومختلف الأنشطة والفعاليات، وتصبح هذه الفئات

كتلة متضامنة ومتماسكة تساعد على تغلغل المحسوبية على حساب العلم والخبرة.

فلا غرابة أن يكون جهاز التليفزيون فى أغلبه عائلة واحدة أو عدة عائلات، وهذا يعنى تفاقم العاطفية والشخصية على حساب الموضوعية، وإذا تم ذلك على مستوى سقف الحياة المصرية فسوف يقتدى به الجميع ويتأثرون، فضلا عن انتقال المصالح والمنافع من الأصول إلى الفروع، والحق أن الصحف المصرية وهى الحارسة الأولى على مكتسبات وحقوق المصريين وكرامتهم وحريتهم لاتفتأ تبذل الجهد بأقلام أبنائها المخلصين فى محاولة لكشف هذه الصور من المجاملات وألوان المحسوبية التى تضر بالشعب وتسىء إلى كوادر مقتدرة فيه، من حقها أن تتاح لها الفرصة كى تشارك بفكرها وجهدها فى مواقع هى بها جديرة، لكن المواقع المرموقة فى معظمها محجوزة للأحباب، وتذهب عمليات الكشف والمصارحة مع الرياح دون أن تؤتى ثمارها.

ويسمح مناخ العمل والإنتاج فى مصر بالاستثناءات، فليس ثمة قانون بدون استثناءات، وليس ثمة قرار إلا وله استثناءات والاستثناءات - كما يقال دائما - فى مصر هى القاعدة - وهذا يعنى أن الأحوال فى بلادنا شبه مقلوبة - والأكياس مثقوبة، ويتشكك الكثيرون فى كل شىء، فمهما كانت درجاتك نهائية فليس معنى هذا أنك تحوز المنصب أو تنال الوظيفة.

وإذا كان هناك مكان ما يحظر دخوله على غير الموظفين، فيمكن للأحباب أن يدخلوه، ويمكن أيضا لأى شخص ذى حيثية اجتماعية أن يصبح له الممنوع مسموحا، وخاصة لو كان ممثلاً أو مطرباً أو لاعب كرة، فهذه المهن بالذات يمكن أن تستثنى لها كل القوانين.. لست أدرى لماذا؟

وإذا كان على الناس جميعا الوقوف فى الطابور وهذا أمر مقبول وسلوك حضارى، فإن أقارب ومعارف من يتولون خدمة الطابور وتصريفه يدخلون مباشرة ليحصلوا على مايريدون ويخرجون، بينما الواقفون

المصطفون فى طابور طويل وصبور يتصببون كمدا وحسرة، ولعل هذا هو السر فى أن بعض المصريين يسعون بكل الوسائل ليشغل أبناؤهم مناصب فى الشرطة، أو سلك القضاء أو الجيش، أو فى غير ذلك من المهن التى يستطيع المنتسبون إليها الحصول على ما يشاءون وقتما يريدون.

فكل صاحب سلطة فى مصر مهما كانت قليلة وتافهة يتمتع بمزاياها إلى أقصى حد، ويمنح الحق فى الاستمتاع بها لكل من يعرف، وهذا يعنى أن أى صاحب مكانة أو حتى حارس لمكان مهم يمكنه استثناء عدة عشرات من معارفه، ليتمتعوا بمزايا المكان أو النفاذ إليه حيث لايستطيع أحد من أفراد الشعب الاقتراب.

لسنا فى حاجة إلى التأكيد على أن أى مشروع ناجح اعتمد أساسا فى تحقيق هذا النجاح على الموضوعية، وإعطاء الفرص لأصحاب العلم والخبرة أكثر من كونه مجرد مشروع مالى.

وهذا يعنى أننا لسنا سواسية تماما أمام القانون، لأن صاحب السلطة صديق صاحب سلطة وقريب صاحب سلطة ونسيب صاحب سلطة، ومن النادر إذن أن يقيم أحدهما على الآخر الحد أو يمنعه من الحركة أو يقبض عليه، أو يشهد ضده أو يقف على أى نحو فى طريق مصلحته. وينتقل هذا الامتياز بالطبع إلى الأنجال والأحفاد.

لكن صاحب السلطة ـ والحق يقال ـ يحترم القانون جدا فيما يختص بغير ذلك، خاصة ضد ماسحى الأحذية والباعة المتجولين الذين قد يشغلون حيزاً يؤثر على حركة المرور، كما أنهم يفسدون النظام العام والذوق أيضا وقد يزعجون السياح، عندئذ، لايجب التهاون معهم ولابد من مطاردتهم وإلقاءهم فى «البوكس» مع البضاعة المحرزة.

غياب الموضوعية هو الذى يدفع البعض إلى البحث عن معرفة فى السجل المدنى أو فى المرافق المختلفة مثل المرور والكهرباء ومجالس المدن

حتى يستطيع إنجازمهمته خلال دقائق، وإذا لم يستطع العثور على هذه المعرفة، فربما لايتمكن من تحقيق مصلحته على الإطلاق أو لعله يحققها خلال أيام أو أسابيع وبعد عشرات المشاوير.

والموضوعية، تعنى المواجهة والمصارحة والكشف والتقييم دون غضب أو احتجاج، وتعنى النظرة العادلة للأمور دون تهويل أو تهوين.

وليس عسيراً أن يدرك القارئ العلاقة الوثيقة بين الموضوعية والديمقراطية فلكى تكون هناك موضوعية فلابد أن يتوفر مناخ الحرية الذى يسمح بذلك دون أن يتعرض من هو أدنى لعقاب صاحب السلطة أو الشخصية ذات الحيثية، وهذا ما يسبب الذعر لجنود المرور المساكين عندما يفكرون فى توضيح خطأ ارتكبه شخص ما تبدو عليه الأهمية، وياويل الجندى إذا قال له ذلك الشخص:

ـ أنت مش عارف بتكلم مين.

ليس هذا فقط، فقد يكمل الجملة، بإهانة، وقد حدث بالفعل أن تعرض بعض شرطة المرور للسب والضرب وكذلك اللطم على الوجوه، فى حين أن الدول المتقدمة وحتى النامية مثلنا تشهد احتراما بالغا لرجل الشرطة وللقانون ومنفذيه بصفة عامة، وليس هناك شىء اسمه شخصية مهمة، ولعل بعضنا قرأ عن شرطى المرور الإنجليزى الذى أوقف الملكة وطلب الاطلاع على أوراق السيارة، والشرطة التى طلبت الأمير النرويجى فى بلده وفى يوم عرسه وبات فى الحجز ليلة لأنه أهان عامل الفندق ولم يطلق سراحه إلا بعد لاعتذار.

لقد كان سائداً إلى عهد قريب وربما لايزال منه بقايا أو جيوب، تقليد شائع بنقل الموظف المعترض أو الذى يوضح لرئيسه أمراً مخالفاً لما يراه، وكان ذلك الموظف فى العادة يعلم مسبقا أنه سينقل إلى أسوأ الإدارات، وقد ينقل إلى أسوأ البلاد وأبعدها، وفى الغالب، فإن المدير

يختار مدنا صغيرة فى مناطق نائية تفتقر إلى الخدمات أو التى يتوفر بها مسئولون أقسى وأشد.

يتصور البعض أن هذه الصفة معقدة نسبيا، وقد تحتاج إلى درجة عالية من النضج وطول التجربة، ومحاولتنا المتواضعة للتعرف على أصلها وبداية نشأتها تكشف لنا أنها ليست كذلك، إذ هى كأى صفة أخلاقية أو مهارية يمكن أن يتدرب عليها الطفل منذ سنواته الأولى، وعمادها أن يلحظ احترام الأسرة لما نسميه الحق والصدق، وأن هناك قيمة اسمها العدالة، وثمة ثواب وعقاب وحرية للتعبير وأسلوب هو الحوار بلا حساسية.. هذه هى البذور الأولى للموضوعية التى اتبعتها شعوب كثيرة، وحقق لها ذلك نهضة قوية وعمليات تقدمية متسارعة، وقلل كثيراً من إهدار الطاقة والوقت والجهد، وتضاءلت معه المشكلات التى تعوق آليات الانطلاق والإنجاز.

وتعد من الموضوعية والحرية تقبل أراء الطفل، خاصة المزعج منها والغريب، ومناقشته رأيا برأى وحجة بحجة، بوصفه ناضجا، لأن مما يضر بموضوعيته كمنهج سيلتزم به، وقد يقتل فيه روحها أن نبطش به وبرأيه أو نحاول منعه من عرض أفكاره.. بل علينا تعويده على الشجاعة الأدبية وتحريضه عليها ومحاربة كل خوف يمكن أن يؤثر على توازن رؤيته للحياة.

الموضوعية، إذن هى التفكير الحر الذى يستهدف الوصول إلى أدق النتائج وأفضلها دون أى ضغوط أو اعتبارات عاطفية أو شخصية، ولذا فإن الملامح الدالة على الموضوعية فى مجتمع ما هو أن تتحدد مكانة الفرد فيه بحسب مواهبه الحقيقية وقدراته الايجابية الفاعلة، لا أن تحددها عوامل مظهرية أو لمجرد انتمائه لأسرة عريقة أو طائفة اجتماعية أو مهنية.

وإذا جاز لنا نرصد مصداقية ذلك فى المجتمع المصرى فلن نجد أثراً للموضوعية فيما هو قائم بأغلب مؤسساتنا، ولنا أن نأخذ مثالا من

وسائل الاعلام، فجميع صفحات الصحف تقريبا مشاع للممثلين ولاعبى الكرة والمطربين، ونادرا ما يذكر عالم أو مفكر أو باحث، وإذا أصيب ممثل ثالث بالأنفلونزا تداعت له سائر الصحف بالذكر وطلب السلامة، وإذا مات عالم كبير ورائد من الرواد، فلا خبر، وقد يذكر بعد أيام أو أسابيع فى سطرين وببنط لايقرأ.

والتليفزيون نموذج مثالى لهذه الصورة غير الموضوعية، فافتح فى أى ساعة من ليل أو نهار، وقلب جميع قنواته لن يطالعك إلا فى النادر غير هؤلاء الناس المبشرين بالخلود، يتحدثون فى أى شىء وعن أى شىء وخاصة عن مواقف شخصية أغلبها لايؤثر ولايفيد، والجلسة كلها ضحك ومرح ومزيد من الأفلام والبرامج واللقطات التى ظهر فيها هذا الممثل الشاب أو ذاك.

لذلك لاندهش إذا علمنا أن الوزير الفلانى أو المحافظ العلانى سمع عن وجود أحد هؤلاء فى محافظته حتى يسرع إليه ويتشرف بلقائه، ويدع كل الاجتماعات والمؤتمرات ومشاكل الشعب للقاء ذلك الممثل الصغير الذى ظهر مرة فى مسلسل تافه وهو يطرق الباب، وفى مسلسل آخر كان على فراش الموت.

تكتمل المأساة بأن يقوم المسئولون الذين يسيل لعابهم لمثل هذه المواقف، بالموافقة على أى طلب يتكرم هذا الممثل أو ذاك بإعلان رغبته فيه.

هكذا تتحدد المكانة فى مجتمعنا، لا بالقيمة ولا بالعطاء والعكوف على إنجاز علمى كبير فى صمت ودأب، وإنما الذى تحدد المكانة الثرثرة والمظهرية والانضمام إلى فئة بعينها.

وهكذا تترسخ لدى الأطفال والشباب فكرة أن يكون منهم، فهؤلاء هم زبدة المجتمع وهم الصفوة، وهم أصحاب النفوذ والمال والشهرة والأضواء

إنها جريمة بشعة، فى حق تاريخ هذا الشعب وحاضره وهى تعمل بقوة دون أن نحس ضد مستقبله.. أننا نهمش المخلصين من العلماء والأدباء والمفكرين وندفع بهم بعيدا إلى الظل والعزلة والظلم والإحباط ونترك المساحة كلها لأبناء مجال بعينه ليس لهم دور فى بناء هذه الأمة، ويزداد عددهم كل يوم وتزداد المساحة المخصصة لهم - وليس أدل على هذا الكلام مما جرى مع المثقفين، فقد قرروا أن ينقلوهم إلى قناة مشفرة لايراها أحد وخلصوا التليفزيون الجماهيرى منهم، بل وجعلوا مقر القناة واستديوهاتها فى المقطم، حتى يعانى هذا المثقف الذى يود أن يشارك بكلمة يقولها لآلة التصوير فقط. وقل مثل ذلك عن موعد البرامج الثقافية المتبقية فى القناتين الأولى والثانية فهى تذاع فى الثالثة صباحا.

ماذا يفيد الطفل أو الشاب أن يصبح عالما فى الذرة أو خبيراً فى البرمجيات أو مخترعاً أو حتى طبيبا بارعا أو مهندساً كبيراً، إن الأهم من كل ذلك هو انتماؤه للفئات التى تعتلى سدة العرش وترتفع إلى السماء وتنكسر رقابنا إلى الخلف ونحن نتأملها، لأنهم من خلال الصحافة والتليفزيون هم النجوم المتألقة والمضيئة.

المسألة إذن تستحق وقفة. بل وقفات، لأن العاطفية التى أزعم أنها غالبة ومستفحلة سوف تعوق، بل إنها تعوق من الآن وقبل الآن سعينا الحثيث نحو المستقبل المشرق، ولابد من اتخاذ مواقف عملية حاسمة وواضحة فى هذا السياق، سواء عبر الأسرة أو المدرسة أو المسجد، وفى الجامعة، والمؤسسات المختلفة، وبالطبع عبر وسائل الإعلام والتليفزيون خاصة.

لقد أصبح ضروريا إعادة النظر فى تقديرنا للأشخاص وفى تربيتنا للأطفال ومحاولة توفير القدوة الحقيقية ذات القيمة والأثر، التى بذلت الكثير حتى أصبحت على ما هى عليه، وليس بمجرد الصدفة أو العلاقات أو الانتساب إلى أسرة ذات حيثية أو فئة بعينها تحظى بالاهتمام بحجة أن

الجماهير تحب ذلك.. إن مثل هذه العبارات هى الحضانات التى تنمو فيها بكتريا التخلف.

إننا ونحن نتطلع للمستقبل يجب أن يتسم كل موقف وكل إجراء وكل تصرف بالعلمية، أما أن نعيش على العشوائية والعاطفية فهذا ما لن يسمح به المجتمع الدولى طويلا، ولذلك فالجميع مطالبون للتنبيه على هذه الملامح المستورة والعلامات غير المنظورة، لأنها نادرا ما تلفت نظر من يفكرون فى العلاج، وهى فى الحقيقة أمراض سرية قاتلة وكابحة جدا لكل فكرة أو مشروع يطمح للانطلاق ورفع راية مصر على الهضاب العالمية.

العدالة.. وصفة للشفاء

لم يؤرق البشر هم أو يستفزهم سلوك منذ بدء الخليقة قدر ما أرقهم واستفزهم هَمُّ الظلم وسلوك الظالمين، أى الاحساس بعدم توفر العدل، وهو فى حده الأدنى المساواة فى الحقوق والامتيازات وكذلك فى الواجبات.

والإحساس بالعدل مقترن اقترانا يكاد يكون عضويا وملتحما بطبيعة النفس الإنسانية بدليل أن قابيل ما أن وقعت عيناه على فتاته وقارنها بفتاة هابيل وشعر أن الأخيرة أجمل، داخله على الفور إحساس بعدم الرضا عن نصيبه وقرر رفضه، فلماذا يحظى أخوه بالأكثر جمالا؟

وهذا الحدث يدل على أنها الفطرة ما دامت قد أدركت أبناء أبى البشر، ويؤكد ذلك ما حمله التاريخ إلينا من أحداث عن الخلافات والنزاعات التى كانت تجرى بين القبائل والعشائر والأقوام المختلفة للمطالبة بالمساواة فى توزيع الأنصبة والحقوق، ومنها آبار المياه والنساء والخيل والهدايا وغنائم الحرب والجوارى.

ومن المؤشرات التى تتسم بالجدية والجدة معا فى اعتبار شعب ما متقدما أو متخلفا، حالة العدل فيه، وتتميز الأمة المتقدمة بأنها حاولت مبكرا وأفلحت فى تحقيق قدر كبير من المساواة بين أبنائها، وتعمق هذا

الشعور وترسخ عبر القنوات المختلفة حتى أصبح سلوكا طبيعيا وآليا يصدر عن وعى أو لا وعى.. يصدر ببساطة ودون مشاكل ودون استعراض أو مزايدة، وبلا استنفار للأغراض الشخصية كى تنال من حق الآخر، لأن ميزان العدالة مقدس وله حرمة لايسمح أحد بالمساس بها. ولايزلزل بناء العدالة ويفتح بوابة الظلم إلا بزوغ الأغراض أو العقد الشخصية.

وإذا كانت النفس البشرية بخيرها وشرها، وبإحساسها الخاص والعام هى التى تبدأ آليا فى تقييم الأداء أو الحكم، وتحدد ما إذا كان قد تحقق العدل أو الظلم، فإنها هى أيضا أول من يتأثر بهذا الحكم أو الإجراء.

فإذا استشعرت أن به ذرة من الظلم لها ثارت أو كتمت أو حقدت، وتعجلت بالرد أو أرجأته حسب الطبيعة والإمكانات، وتبعا لقدر الظلم تكون الثورة والغضب، فقد يعلو الاحساس بالظلم إلى درجة التحطيم والتدمير والقتل والحرق، وقد تكتم النفس وتحقد وتستخدم أساليب سرية للانتقام، وقد تعجز عن هذا وذاك، فتكتئب وتغوص الأحزان بالأعماق وتتراكم وتتكدس حتى تصاب النفس بالكمد الذى يفتت الروح ويعمى العقل، ويتسلل الذبول والمرض إلى الجسد. فيذوى ومن ثم تأتى النهاية مصحوبة بالسخط على بنى البشر.

لذلك قال الله فى حديثه القدسى: إن الظلم ظلمات وإن الله لايظلم مثقال ذرة فلا تظالموا.

والظلم متعدد الأشكال، بل لا حدود لصوره، وكثيرون يظلمون ويعلمون ذلك وآخرون يظلمون دون قصد.

ولدى قناعة شخصية بأن كل الأديان والرسالات أرسلها الله أساساً من أجل أن تمنع الإنسان من ظلم أخيه الإنسان وألا يتجاوز حدوده، وليحذره من الجور والطغيان الذى هو الاستمرار فى الظلم وإلحاقه بعدد كبير من الناس، ومن قبيل ذلك قوله تعالى لموسى: «اذهب إلى فرعون إنه طغى».

ولعل الفكرة كلها من وراء الدين ـ وهو اجتهاد شخصى تماما ـ أنه رفض من الله سبحانه ـ الذى لايعبأ بالبشر لولا دعاؤهم ـ للظلم، بوصفه أبشع الصفات التى يمكن أن يصاب بها إنسان، وأفظع الطباع التى يقدر لفرد أن تصدر عنه، لأنها كما قلنا هى صاحبة أسرع مؤثر فى النفس، ولا يسبق الظلم شىء فى إثارة الوجدان وتحريك الغضب واستنفار قوى الانتقام.

يقول الله تعالى فى سورة المائدة (٨): يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولايجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون».

ماذا تساوى الدنيا جميعها بما عليها من مليارات البشر؟ إنها لا تساوى عند الله أكثر من جناح بعوضة، منتهى التفاهة لولا أن الله يبلغه دعاء الناس، يشكون أو يتوجعون أو يستغفرون، لذلك ـ وهو الذى خلقهم ـ يعلم أن فى بعضهم بذور الشر والطمع «ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها».

فأما التى تميزت بالفجور فسوف تستمتع بظلم الآخرين وتمارس الظلم بكل أشكاله وألوانه، أو حتى بالقليل منه، وأقل القليل مكروه، وثقيل على النفس، ولننظر حال الطفل الذى تؤخذ لعبته الأثيرة، كم يستعشر الظلم، فتدمع عيناه ويحمر وجهه ويرتعد وينفرط من البكاء وتسود الدنيا فى عينيه، ومثل ذلك طرد عامل فجأة بلا سبب، وهو فى أمس الحاجة إلى العمل وأجره، ولنتصور عاقبة إطلاق معلومة خاطئة ضد شخص وهى محض افتراء خاصة لو مست الشرف، أمر يفتقر إلى الحد الأدنى من الرحمة، والعقل والإنسانية والصدق والعدل..

فلماذا نظر الله إلى الظلم على هذا النحو؟.. لأنه يرى أن الظلم هو جامع كل الصفات السيئة، وهى جميعها ولو منفردة تصب فيه.

الذى خان ظلم والذى كذب ظلم، والذى طمع ظلم، والذى غش ظلم والذى استبد ظلم، والذى أهمل فى عمله والذى أساء معاملة الأخرين ظلم والذى اعتدى ظلم، والذى سكت عن قول الحق ظلم والذى زور ظلم، والذى بخل ظلم والذى أسرف ظلم، والذى أكل كثيرا ظلم والذى نام كثيرا ظلم والذى ارتاح كثيرا ظلم، والذى نسى أهله ظلم والذى لم يحفل بجيرانه ظلم والذى غفل عن ذكر ربه ظلم.

كل هذه ظلمات ومن توقعها وتجنبها عدل.. وهذا هو المعنى الواسع للعدل وضده الظلم.. ومن هنا نستطيع القول إن العدالة فى بلادنا ومعظم بلاد العالم النامى تقريبا غائبة أو متهافتة وضوءها شاحب، ولذلك فإن معاناة تلك الشعوب كبيرة وشديدة.

لقد عانى المصريون أكثر مما يحتمل البشر من الظلم، حتى إن حكماءهم الشعبيين ابتكروا مثلا يبدو غريبا - لكنه صادق كل الصدق برغم ما يبدو فيه من تناقض ومفارقة، لأنه نابع من معاناتهم التى لم يكن لها أبدا نهاية ولا حدود، يقول المثل «المساواة فى الظلم عدل».

أى أن الإنسان المصرى فقد الأمل فى العدل، فبلغ منتهى الإحباط، ومن ثم لم يعد يأمل فى المساواة تحت مظلة العدل، وإنما تواضعت مطالبه وهانت أمانيه لتصبح طمعا فى الظلم ذاته، على إن ثمة رجاء. وحيد هو مراعاة المساواة عند توزيع الظلم حتى لايكون هناك ظلم فى الظلم - ومن النادر فى ظنى أن يكون هناك مثل عامى أو فصيح فى مصر أو فى غيرها، يمكنه أن ينافس هذا المثل فى مجموعة دلالاته فضلا عن دقة عبارته وبساطتها وتكثيفها.

ولعل عبقرية هذا المثل راجعة إلى أن الظلم فى مصر على مدى التاريخ الوسيط والحديث خاصة، كان طبقات متراكبة، بعضها فوق بعض، وأكثر من يتعرض لها الفلاح زارع الأرض صاحب الفضل الأول على هذه

الأمة.. الصابر المكافح الذى انحنت رأسه وتقوس ظهره، ولم يكن يتاح له أن يرفع رأسه إلا لحظات قليلة ليتطلع إلى السماء داعيا المولى أن ينظر فى أمره ويشمله ببعض رحمته.

ولأن الظلم لايفجر الثورات وإنما الإحساس به، فقد ثار المصرى حينا وأثر الصبر أحيانا واعتبره مفتاحا للفرج، وكان واثقا من ذلك ثقة بلا حدود، وقد لجأ إلى التعبير عن معاناته بالأمثال الشعبية، وبالفكاهة، وتعاورت عليه عهود فقد فيها الأمل فى بزوغ شمس العدل، ولذلك ظهر من بين أبنائه الشعراء لينفسوا عن عذاباته ويخففوا ثقلها عن صدره المشحون بجبال القهر، وتسلى المصريون طويلا بمضغ الكلام والتلذذ بحلاوته، وسهروا مع آهاته التى حرص الجميع على ترديدها.

إن معظم البيوت المصرية تفتقد تربية الأبناء على العدالة واحترام حق الآخر فى أن ينال نصيبه، وليست هناك عمليات لزرع بذور العدل ومتابعة نموها فى نفوس الأطفال وترعرعها وسطوعها فى سلوكياتها، ونادرا ما عاقب والد ابنه لأنه ضرب ابن جاره أو اختطف ما يملكه، بل إنه فى الغالب لا يسأله عما فعل، وإذا علم فإنه يشجعه.

: أريدك رجلا لايضحك الناس عليك.. إذا لم تكن ذئبا أكلتك الذئاب.

وهذا أمر جلل يدعونا إلى التنبيه، لكن من هو الذى سيتنبه - إن الأباء ليسوا بالبيت، لقد هجروه ليجمعوا الأموال التى بها سيمارسون الظلم أو يدفعونه عنهم بما يملكون.

فهل كل الآباء يراعون العدل بين الأبناء.. أحسب أن فى ذلك بعض الشك. وخاصة عندما يكبر الأولاد وتتحدد نسبيا شخصياتهم وأفكارهم، يشرع الآباء فى التفريق بينهم والتفضيل لتتقهقر العدالة تدريجيا وتتقدم تدريجيا الأحقاد، وهذا هو المبدأ الذى يحكم المسألة والذى يتعين الالتفات إليه.

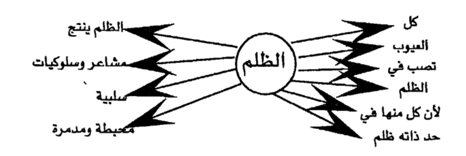
العدالة تنتج الرضا، والظلم يولد الحقد، وهذه المعادلة أو النسق الشعورى ثابت ولايتأثر بثقافة أو تعليم أو قراءة فى الكتب الدينية ليل نهار، ولا يقلل منها غنى البعض ومكانة البعض الاجتماعية أو السياسية هذه مسألة فطرية تماما ولاتنفع معها الأخوة، والصداقة والمحبة، وكل تعاليم الفلاسفة.. المعادلة واضحة وتكفى لقيادة أمة.

العدل = رضا وسعادة ومحبة وإخلاص وتضحية وتفوق وانتماء.

الظلم = حقد، كمد، تفكير أسود، انتقام، إهمال، كراهية، تقصير، مرض.

العدالة فى مصر تبدو لى ولغيرى متراجعة إلى حد كبير، وكما سبقت الإشارة فإن عكسها هو المسيطر والمهيمن فى مختلف السلوك والقرارات والإجراءات فردية كانت أو جماعية أو رسمية، وسببها الأول بالطبع أن الكبار لم يتربوا عليها وهم صغار، لم يرضعوها مع الألبان والدروس الأولى، كما أن الأغراض الشخصية تتدخل، وعندما تنفذ المشاعر والرغبات تبدأ العدالة فى الفرار بنفس النسبة والدرجة، يعقب ذلك العديد من السلبيات.

والظلم ليس سلبية واحدة، ولكنه بوابة لموجات وموجات من الظلم، وهو صفة مركزية فى الاستقبال والإرسال، لأن الظلم نفسه يستطيع بث عشرات السلبيات فى المجتمع فيلوث المناخ الإنسانى والوظيفى والعملى بدرجة لايكاد البعض يدرك آثارها الماحقة والمدمرة، ولنا أن نتأمل الشكل التالى:



ما هو شعور طفل فقير يرى طفلا غنيا يأكل الحلوى ويلهو بالألعاب النارية ويمتلئ جيبه بالنقود الورقية؟.. لن يتصور أحد أن شعور الطفل سيكون أقل من الاستياء والحقد، وأول من يتعرض لغضبه هم أهله الذين كانوا السبب فى حرمانه ووقوفه هذا الموقف.

وننتقل إلى المدير الذى لا يعدل بين الموظفين، والناظر الذى يحابى بعض المدرسين ويتحيز لهم ضد الآخرين، والمسئول الذى يبالغ فى تدليل بعض المستخدمين ويبخس الآخرين حقوقهم، أو يزيد من تكليف البعض بالأعمال المهمة ويترك التافه منها لعدد منهم، وقل مثل هذا عند حساب المستحقات والأجور.

ولننظر إلى المرضى الذين يقيمون فى عنبر كبير بأى مستشفى، كيف يتطلعون إلى الطبيب المعالج عندما يهل من الباب ليمر عليهم ويبحث حالاتهم، كيف يحسب كل منهم اهتمامه ونوع نظراته لزملائه مدة بقائه عند كل مريض، وكيف أن كل ذلك اختلف عما جرى له أو لغيره، نفس الأمر يحدث مع زيارة رئيس هيئة أو وزير أو فنان أو مدير مشروع.

العدالة لذلك مرتبطة بالموضوعية التى هى الحكم والنظر إلى الأمور بمعزل عن الغرض الشخصى أو الهوى الإنسانى حريصة على توفير فرص متكافئة للجميع.

العدالة يجب أن تصل إلى كل شخص أيا كانت مكانته وأيا كان انتماؤه، وبصرف النظر عن موقفه إزاء صاحب الأمر أو القرار، وهذا هو السر فى أن الأقدمين جعلوا شعار العدالة.. فتاة معصوبة العينين تحمل ميزانا ولاترى من الناس أحدا.

العدالة فى مصر شبه غائبة، أو غائبة إلا قليلا، لأن القائمين على الأمر فى أغلب المصالح والتجمعات يعملون لحساب معارفهم وأقاربهم ورؤسائهم وكل من يمت لهم بصلة، أما الذى لايعرفه أحد فحصوله على حقوقه مشكوك فيه، وإذا شاء الله وحصل على شئ فبعد لأى وعهد

طويل، وبعض الحقوق الواضحة تحتاج إلى قضية للحصول عليها، فى حين ـ ويا للغرابة ـ يمكن أن ينال نفس الحق شخص آخر قل أن يطلبه، وبعض المصريين يبدون كأنهم أعداء للمصريين.

ولنا أن نتصور حجم العدالة المنقوص بعدد المرات التى تقاعس فيها المظوفون الموكلون بإنجاز أعمال الناس.

لو كان هناك مليون موظف فقط من هذا الفريق الذى يتعامل مع الجماهير وتقدم إلى كل منهم مائة طلب، ولفض خمسة منها لأى سبب وأرجأ عشرة لمجرد التأجيل وأنجز أعمالاً للباقى، فإن هذا يعنى أن خمسة عشر مليونا قد لحقهم الأذى وتسرب إلى نفوسهم ولو لعدة أيام الاستياء والسخط على هؤلاء الموظفين وعلى البلاد التى لاتعرف العدل.

أما العدالة الشهيرة التى يقصد بها مثول أطرافها أمام القضاء فالأمل فيها فى اعتقادى يتضاءل، وليس هذا ـ لا سمح الله ـ تشكيكا فى ذمة القضاة، ولكن العملية برمتها تمر بالكثير من العراقيل التى تقف فى طريق العدالة وتحول دون وصولها إلى مستحقيها.. ومن ذلك، الأسباب والمظاهر التالية:

أولاً: العدد الهائل من القضايا التى يعجز عشرات الآلاف من القضاة عن البت فيها (عشرون مليون قضية سنويا).

ثانياً: يتولد عن الحالة السابقة بطء وصول العدالة لأصحابها وتأخر الكثير منها لسنوات طويلة، وبعضها لايحكم فيها إبان حياة من رفعها وإنما فى عهد أحفاده.

ثالثاً: يبذل كثير من المحامين أكبر الجهد فى سبيل تحويل الحق إلى باطل والباطل إلى حق حسب رغبة الموكل والمبلغ المعروض كأتعاب، وأحسب أن هذا السبب يأتى فى مقدمة الأسباب خاصة أن المحامين هم الذين يشجعون على رفع الدعاوى، فقد يحدث أن

يذهب شخص للاستشارة فقط فيخرج إلى الشهر العقارى لعمل توكيل رسمى لهذا المحامى، وفى مصر ٢٢٠ ألف محام يريدون تشغيل مكاتبهم.

رابعاً: خشية القضاة من الظلم يدفعهم للتأجيل وطلب الوقت للدراسة.

خامساً: القانون لين جداً فى مواده المحررة لعقاب الآثمين ولذلك فكثير من الجرائم يرتكبها أصحاب سوابق لم تردعهم العقوبات، فخرجوا وعادوا لممارسة جرائمهم بعد أن عرفوا «ديتها».

سادساً: سيادة الكذب والتزوير وشهادات الزور والتلاعب من لدن رافع الدعوى وبعض المحامين والمدعى عليهم، الأمر الذى يشتت القضاة ويؤثر على أحكامهم.

سابعاً: التباين الواضح بين أحكام القضاة فى المحاكم الإبتدائية أو أول درجة والنقض والاستئناف.

ثامناً: العبث يصاحب كثير من محاضر الشرطة والخلل فى إجراءات الضبط، وغلبة الشعور الشخصى للضباط والجنود، وعدم توفر الحياد الكامل لديهم إزاء المتنازعين.

تاسعاً: تعاظم تأثير الشخصيات ذات السلطات على أداء رجال الشرطة وعلى سير الإجراءات.

عاشراً: وجود مرحلة قضائية تسمى مرحلة المعارضة بعد الابتدائى والاستئناف والنقض، وخلالها يتم تمييع القضايا وإطالة مدة التقاضى ويستغل المحامون تلك الفترة.

أحد عشر: تعذر تنفيذ الأحكام التى يصدرها القضاة، حيث يوجد ثلاثون ضابطاً فقط للتنفيذ على مستوى الجمهورية. ودائما هناك عقاب بعد الحصول على الحكم، لأن التنفيذ يواجه صعوبات

من المدعى عليهم الذين يرفضون الإذعان والتجاوب، وكثيرا ما تعجز الشرطة عن مساعدة صاحب الحكم فى الحصول على حقه.

ثانى عشر: يتفنن المحامون فى الاستشكلات وفى تقديم الطعون وإطالة مدة التقاضى لتظل القضايا مرفوعة ولاتنتهى.

إن العدل كما قال القدماء أساس الملك، والشعب المحروم من العدل، محروم من الحياة ومحروم من التقدم، ولن يكون لنا مكان مرموق بين الأمم إلا بعد التصرف فى منظومة العدالة فى مصر، ومن بين سبل الحل تنفيذ ما سبق أن دعوت إليه باسم «مجلس الحكماء».

مجلس الحكماء

ليس منا من لايتابع تصاعد الخط البيانى للمشكلات الاجتماعية.. تتعدد أشكالها وتتنوع وتتسع دائرتها وتتعمق آثارها.. فمن مشاحنات أسرية بين الأزواج تشتد وتحتد بعد أن تكون قد اندلعت نيرانها من مجرد خلاف بسيط حول مسألة تافهة كمصروف البيت أو تأخر اعداد الطعام أو غياب الزوجة بالخارج ساعة أو عدم تجهيز الشاى بعد الغداء.. الخ ثم تصل فى مداها إلى حد الطلاق الذى يتبعه بالتالى تشريد الأبناء وبدء سلسلة من القضايا بين الزوجين ووضع أقدام الأولاد على بداية طريق الانحراف.

وثمة خلافات تنشأ بين الجيران وسكان الشارع الواحد بل بين سكان العمارة الواحدة، فالبعض لايريد أن يساهم فى إصلاح المصعد، والبعض قد يرفض تجديد موتور المياه وآخرون يعترضون على طلاء الواجهة وسرعان ما ترتفع درجات الحرارة وتتكفل الألسنة بالتعبيرات الثقيلة تلقيها على من يستحق ومن لا يستحق بلا رحمة، غير حريصين على الكرامة أو الجيرة أو الصداقة وحقوق السكن الواحد.

عندئذ تثور بعض الأعصاب فترد بحدة وقد تتدخل الأيدى للرد على الألسنة، وقد يكتفى البعض بالشكوى لاقسام الشرطة فهم متحضرون يتركون لرجال القانون مهمة حسم الخلاف وإنهاء النزاع.

●●●

وهناك المنازعات المالية التى تزايدت وطفت وانتشرت خلال ربع القرن الأخير، خاصة بعد سياسة الانفتاح التى أتاحت الفرصة كى يمتلك الجميع بأى سبيل حتى أصبحت السبل غير مشروعة أحيانا، فهناك ملكيات كثيرة نشأت عن السرقة والنصب والاحتيال والقروض بلا ضمانات ووضع اليد على الشقق والاستيلاء على أراضى الغير، وبيع ما لا يملكون بأوراق مزورة فضلا عن المنازعات التى نتجت عن عدم سداد الإلتزامات التى تحكمها شيكات وكمبيالات وسندات وإيصالات، فإذا الأرصدة فى البنك خالية، والتهرب من السداد أول وسائل المواجهة والانتقال من أماكن السكن ورشوة السائلين عن حقيقته وتحدث المطاردات فى الداخل والخارج وتدور الدائرة بعنف لتطوى من ورائها العشرات وتصب لدى الشرطة والقضاء.

وحدث ولا حرج عن صراع الأخوة على الميراث الذى يبدأ من الحلف بالطلاق إلى بقر البطون وذبح الرقاب وإطلاق الرصاص.

فمن الناس اليوم كثرة تحاول نيل ما لا حق لها اعتماداً على مقولة سقيمة ومسمومة تقول: لابد من الذراع وحاول أن تأخذ أكثر من حقك وبعد النزاع يبقى على الأقل لك حقك وهكذا يتهدد السلام الاجتماعى.

ليس من شك فى أن الأصل فى هذه المشكلات هو تعارض المصالح وتزايد الأطماع وتجاوز الحدود، حدود المنطق والعقل وحدود المبادئ والقيم وحدود الأخوة والجوار فتحتدم الصراعات وتحتد الألسنة وتمتد الأيدى بالعنف الثقيل لتمتلئ المستشفيات وأقسام الشرطة وتنتقل الهموم

إلى دور القضاء ويتسلل إلى النفوس المزيد من الضغائن والأحقاد وتتأكد العداوات ويرثها الأبناء عن الآباء.

• • •

إن هذه الحالة التعسة من صور التعامل الأثيم بما فيها من جشع وتطاول وعنف وغياب الود والاحترام ذات أثر سيء يهدد ماكينة الحياة التى نحاول أن ندفعها فى سلام لتحقق أفضل العوائد على مجتمعنا الناهض، وأحسب أن اللجوء إلى الوسائل السلمية المبكرة كفيل بأن يحقن الدماء ويحفظ الحقوق ويحول دون الخوض فى وحل العنف والغضب.

يقول المولى سبحانه فى سورة النساء (٣٥):

«وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا».

إن دلالات الآية الكريمة لاتقتصر فقط على التوفيق بين الزوجين وإنما تتسع لتشمل كل المساعى النبيلة للتوفيق بين جميع المتنازعين.

لذلك أطرح رؤيتى للاقتراب من حل جانب كبير من هذه المشكلات بالطرق السلمية الهادئة التى تعتمد الحوار والنقاش سبيلا لتخفيف حدة الصراع وتضييق شقة الخلاف حتى لاتتعثر أقدامنا فى خيوط النزاع المتشابكة، وتزداد العوائق التى تمنعنا من التقدم بدرجة تليق بإيقاع العصر والمشاركة فى صياغة ملامح العالم الجديد.

• • •

إننى أدعو إلى تكوين مجلس الحكماء.. وهو فريق من الرجال العقلاء والصالحين المحبين للخير ذوى الفكر المستنير واللباقة وسعة الصدر فى كل مجتمع عمالى أو إدارى أو سكنى أو تجارى، يعرض عليهم المتخاصمون أمرهم فيبذلون أقصى ما فى طاقاتهم للصلح ويستعينون بمن يشاءون

لإعـادة الحق ورد الظلم وتخليص النفـوس ممـا يشـوبهـا من كـدر.. يؤدى المجلس مهمته المقدسة سواء فى المصنع أو المؤسسة أو المسجد أو الشركة حتى لايتعجل الطيش فيدفع أصحابه متعاونا مع الشيطان لتصعيد المشكلة وتضخيمها، ويصبح الثمن فادحا بأكثر مما نتصور لأن المشكلة الصغيرة التى لاتحل فى مهدها وبطرق ودية تصبح كبيرة وتتولد عنها مشكلات تعصف براحة وسعادة العشرات من البشر.

إن دور القضاء والشرطة والسجون لن يحقق السلام الاجتماعى بقدر ما يحققه مجلس الحكماء، وإذا كنا نشكو من تلوث البيئة من حولنا فإن البيئة التى بداخل نفوسنا هى الأكثر تلوثا وهى الأحق بالرعاية والإنقاذ ولن ينفعنا فى هذا الخصوص إنشاء وزارة، لكنها مساعينا الشعبية المخلصة لله والحق وللوطن وأهالينا الطيبين الذين يجرهم البعض جرا إلى المشاكل.. ويمكن أن يبدأ السادة المحافظون هذه المسيرة السلمية والحضارية حفظنا الله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

الصدق.. بوابة الثقة والسلامة

رغم أن عنوان هذا الفصل هو «الصدق» إلا أن الحديث سيتناول «الكذب» وبضدها تعرف الأشياء، فقد خامرنى إحساس بعدم الرضا لأن يكون الكذب هو عنوان الفصل، ويبدو أننى بهذا أكون قد كذبت، على أن الغرض هو الإشارة من البداية إلى أن الصدق وليس الكذب هو أحد الطرق الأساسية المفضية إلى التقدم.

الكذب يمكن اعتباره بمثابة الغش القولى فى مقابل الغش، الذى هو كذب عملى، ويقصد به إجراء تغييرات على سلعة أو منتج أو محصول بغرض التأثير على طبيعته لتحقيق مكسب مادى أكبر، أما الكذب فهو العمل على تغيير النص أو الرأى أو المعلومة أو الحقيقة المنطوقة أو المكتوبة، لإنجاز مصلحة شخصية أو الإضرار بالآخرين.. والمعروف أن جميع البشر فى كل زمان ومكان تمقت الكذابين وتحتقرهم، كما تنكر الكذب وتؤثمه إلا ما كان من حيل التمويه على الأعداء الذين يتربصون بمصالح الوطن ويسعون لإلحاق الأذى به.

والكذب عادة يصدر عن شخص يتصور أنه هو الأسلوب المجدى فى بلوغ الارب، ويستعين بالعقل للإعداد والتجهيز، وهو بدوره يكلف اللسان بالنطق أو اليد بالكتابة.

وللكذب تأثير بالغ على الحياة وله دور كبير ومشهود فى تخريب العلاقات بين الأفراد والجماعات، ويتميز بقدرة غير محدودة على إفساد المناخ الإنسانى وإيغار الصدور وشحنها، إلى درجة اضطرار بعض الأشخاص لارتكاب الجرائم.

إنه إحدى الآلات الجهنمية لتدمير الحياة وتصحير النفوس، ولم تستطع أمة من الأمم أن تحقق أدنى درجة من درجات الرخاء أو الازدهار مادام الكذب سمة أساسية من السمات التى تطبع سلوك أبنائها.

وإذا كان الأوروبيون قد تسنموا قمة التقدم إضافة إلى أمريكا واليابان ويخطون فى كل يوم خطوات على درب الرفاهية فلأن الصدق ديدنهم، وعكسه مرفوض تماما ويتم ازدراء أصحابه دون هوادة أو رحمة، ودليل ذلك إقالتهم أى مسئول يخدع الشعب بوعد كاذب أو تصريح غير دقيق، لأنه يضلل الجماهير التى تدفع راتبه.

أما نحن فى مصر، فالكذب يأتى فى مقدمة السمات المميزة لسلوك أغلب أفراد الشعب، وهو فى مصر وباء قديم لايتوقف عن السريان خاصة بين الأهل والأقارب والأصدقاء، وبعض الكاذبين يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، مع أن الصدق فوق أنه الحق فهو الأرض الصلبة التى يطمئن إليها الإنسان مهما كانت عواقبه.

والكذب مهما حاول فهو «مالوش رجلين».

يقول الله فى كتابه العزيز بسورة البقرة.

«ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام (٢٠٤)، وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لايحب الفساد (٢٠٥) وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد (٢٠٦).

ويقول سبحانه فى سورة الحجرات:

«يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين» (٦).

فكم قتل رجل رجلا بسبب فرية، وكم من امرأة طلقت وتشرد أطفالها بسبب كذبة، وكم من معركة دارت بين عائلة وعائلة طيلة أعمار بنيها كانت شرارتها الأولى بهتان، وكم ضاعت حقوق بشهادة زور، وكم من الأراضى تم اغتصابها بأوراق مشبوهة، عبث بها العابثون المضللون، وكم عرض وسمعة أصابها العار من جراء مقولة كاذب، بل إن الملايين لتهدد من إشاعةيتبرع بتدبيجها كذاب تافة فارغ العقل والضمير، دون أن يفكر فى العواقب، ومنهم من يعلمونها مسبقا ويسعون إليها قاصدين بغرض البلبلة والتشكيك أو التأثير على سلوكيات فريق من الناس ودفعها فى اتجاهات محددة.

أما عن النفاق فيحدثنا المثل الشعبى عمن هو «فى الوش مراية وفى الأفا سلاية».. ذلك النفاق الذى أفسد علينا الكثير من طموحاتنا، وعرض حياتنا للأخطار فى عديد المناسبات، والمنافقون هم الذين «يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون» آل عمران ١٦٧. «كبر عند الله مقتا أن تقولوا ما لا تفعلون الصف» (٣).

والمثل الشعبى يعترف بأن ظروف بعض الناس تجعلهم فى وضع يسمح لهم بأن يقولوا ما لا يتفق ومشاعرهم الحقيقية، لأنهم لايملكون القدرة للدفاع عن أنفسهم، يقول المثل «إيد نحبها وخاطرى قطعها» وهو يكشف مشاعر البسطاء الذين لا حول لهم ولا قوة، لكنه بالطبع مرفوض، لأن اليد التى نريد قطعها يجب أن نقطعها، أو نسعى لذلك أو على الأقل نواجه أصحابها بمواقفهم الظالمة أو المشينة، لكن صياغة المثل تشهد بلا ريب على حالة من عدم القدرة حيث عجزت الحكمة الشعبية عن وأد مشاعرها فاعترفت صادقة بما يجول فى خاطر أصحابها من كمد ولعلها تأسف لذلك، وصيغة المثل تضمر الغيظ وتعترف ضمنا بقلة الجهد

وافتقاد الوسيلة، ويبقى المثل معبرا صادقا عن الظروف الدقيقة التى عاشها طويلا ذلك الشعب.

وتتناول أمثالنا الشعبية أيضا ذا الوجهين وذا المظهر الذى يختلف عن الجوهر. وكثيرون ينتمون لهذا الصنف، فيقول المثل «يصلى الفرض وينقب الأرض.

ومن مظاهر النفاق السقيمة والغبية التى تشوه صورة مصر فى الخارج والداخل، إقدام كثير من المسئولين على تسمية عشرات المؤسسات وقصور الثقافة ومراكز الشباب والمدارس باسم الرئيس مبارك وقرينته السيدة سوزان، والكل يعلم أن الرئيس مبارك نفسه حذر من هذا فضلا عن ترفعه وتواضعه والخلال الحميدة التى تتصف بها السيدة حرمه تجعلها فى أعلى مكانة دون حاجة إلى هذه السلوكيات المتدنية، على حين أن هناك كثيرين يتعين ذكرهم على صدر هذه المنشآت مثل جمال حمدان، طه حسين، سلامة موسى، سليمان حزين، أحمد شوقى، سليمان خاطر، سعد الدين الشاذلى، سعد وهبة، إبراهيم مدكور، مشرفة، سليمان الحلبى، الجمسى، أحمد بدوى، وفؤاد عزيز غالى، عصمت عبد المجيد، على محمود طه، محمود حسن إسماعيل، أحمد زويل، محمد غنيم والمفتى والظواهرى زكى طليمات، صلاح أبو سيف، يوسف وهبى، نجيب الريحانى،، المنفلوطى محمود فوزى، عبد الخالق حسونه، عبد الوهاب عزام، جمال عبد الناصر وغيرهم.

وهكذا تتكشف آفة الكذب، وتنوع أشكاله وتفشى استخدام كل الأشكال وجسامة عواقبها، فكارثة ٦٧ بدأت بكذبة، فادعى العسكريون أننا أكبر قوة ضاربة فى الشرق الأوسط، والجيش يستطيع سحق الأعداء ودحر أى عدوان وانطلقت القيادة السياسية تصدر القرارات بإخراج القوات الدولية، ودفع الجيش إلى سيناء.

ومن ذلك البيانات الملفقة التى يعلنها بعض الوزراء أو المسئولين والتصريحات الكاذبة حول سلامة البلاد من وباء معين، أو حول توفر

سلعة غير متوفرة أو حالة اقتصادنا القوى أو تعيينات للشباب لاتتحقق أو قروض يعذب الشباب فى الحصول عليها وتحاصرهم قيودها، أو أراضى فى الصحراء لمن يشاء من الخريجين، ويعانون سنوات لتسويتها وحرثها وريها، وينفقون عليها عشرات الآلاف من الجنيهات دون جدوى ثم يهجرونها.

ومن كبار المسئولين من يحجم عن إبداء رأيه للوزير أو رئيس الوزراء حتى يقرأ كتاب الريح ويتعرف على مسار التيار، ثم يبدى رأيه بما يتفق ورغبة الأعلى ليرضيه ولايفزعه بالواقع، فماذا فى أن يقول.

- اطمئن يا ريس.. مياه النيل أنظف من مياه المطر.

والعكس يحدث، فيدلى المسئول الكبير بعبارات تفتقر إلى العلم والمنطق فيندفع من دونه محييا العبقرية التى ألهمت الرأس الكريمة هذه الأفكار التى لم يتوصل إليها الأفذاذ من العلماء، وتأسيسا على هذا يصدر المسئول قراره.

إن أمثال هؤلاء الموظفين المضللين ليس فقط مصيرهم إلى جهنم، ولكنهم وهم يتميزون بالضعة والنفاق المزرى سيظل أو يجب أن يظل مكانهم ومكانتهم فى الحضيض، فهؤلاء هم المخربون الحقيقيون لمشروع النهضة الذى نحلم به جميعا.

يحسبون أنهم نالوا الرضا من القيادة السامية، ويحسبون أنهم بنفاقهم المقيت سيكونون دائما فى الصورة وبالقرب من السلطة، وقد ينالهم من الحب جانب والمنفعة جانب آخر ويحدث المراد من رب العباد بمزيد من الصعود الوضيع، رلعلهم مع المسئولين الضعفاء فاقدى العلم والخبرة، يحصلون على المرام، لكن المسئولين ذوى الشخصيات القوية والعلم والكفاءة وعمق الرؤية يضعونهم فى أحجامهم الحقيقية، وقد جربت العمل فى البلاد العربية ولاحظت ذكاء المدير فى هذه النقطة فعندما يتوسم أدنى شعرة من نفاق حتى يتنبه لمحدثه ويحذره وفى أول فرصة يتخلص منه.

إن الكثيرين لايدركون أن الحقيقة أفضل بمراحل من ادعاء الحب والإخلاص، وكثيرون لايدركون أن الكذب سوف يرتد، وأن الفوز العاجل بأى شئ لن يمنع من أن تظهر الحقيقة ومعها العار لمن لفق ونافق وشوه.

إذا نطقت كذبا فاعلم أن كل ما حولك يحتقرك وسوف يعمل ضدك، وجميع الأشياء سوف تتعاون للإيقاع بك وكشفك، حتى الكرسى ولسانك والتليفون والورق والأبواب والقلم والسجاد، أما حرصك على الصدق فإن كل الأرواح وعناصر الطبيعة والكائنات الحية وغير الحية سوف تعينك على التقدم إلى الأمام تقدما ربما لم تكن تعرف سببه ولم تكن تتوقعه.

يقول الرسول الكريم: آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان».

والكذب كالسراب يقرب عليك البعيد فيخدعك ويبعد عنك القريب فيحبطك.. قال المصطفى صلوات الله وسلامه عليه: أكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس» والأخيرة تعنى الحلف كذبا.

أما العامة فيقولون: قالوا للكاذب احلف.

قال: جالك الفرج

لأنه يعتقد أن ثمنا بسيطاً للغاية سيدفعه ليفلت بكذبه، ويصدقه الناس فماذا يمكن أن نقول عن أنهار الدموع التى سكبها بعض المصلين فى المساجد وعشرات الملايين الذين ذهبوا للحج والعمرة وتعهدوا لله ألا يعودوا إلى المعاصى أبدا.. تعهدوا لله وماذا يحدث بعد ذلك؟.. يعودون أسوأ مما كانوا عليه من ارتكاب المعاصى والبطش ببنى البشر وملء جيوبهم بالمال الحرام.

شركات توظيف الأموال، وشركات تسفير العمال وغيرها، نصبوا واحتالوا وقالوا كلاما جميلا للناس ونشروا الاعلانات عن أنشطتهم ورسم الفنانون صورة وردية لمدنهم الجديدة، واستدرجوا الناس وتبين بعد ذلك أن معظمه كذب، ومثلهم المقاولون الذين يبيعون الشقق للعشرات، الشقة الواحدة يتم تحرير عقدها للعديد من الباحثين عن السكن والاستقرار.

وأسوأ ألوان الكذب، التزوير فى الانتخابات بكافة أنواعه وأشكاله بتغيير إرادة الشعب والعبث بها: بتحويل مجراها لاختيار غير من تشاء، ومثلها خطب المرشحين التى تتضمن وعودا كاذبة لاسبيل إلى تحقيقها ولا توجد نية من الأساس للسعى نحو المطالبة بها.

كثير من الدول الأجنبية أصبحت على ثقة بأن ما يصدر من بيانات عن مؤسسات مصرية تحفل بالكذب، ويتعين الحذر منها وتجنب الاعتماد عليها ومحاولة الحصول عليها من جهات أخرى، ففى مجال السياحة تترى عمليات الكذب والتضليل فى الوعود المطروحة عن طريق الشركات المصرية، وفى كل المراحل وفى تحديد مستوى الفنادق والمناطق المقرر زيارتها.

كم من مؤسسات حكومية أعلنت عن أنشطة كاذبة وكم من مؤسسات خاصة أعلنت عن جوائز لمن يشترى بضائعها، وبعد أن يقبل الجمهور ليسحب أغلب المعروض أملا فى المكافأة لايجد إلا الفتات، ويحصل على جوائز غاية فى التفاهة، والأغلبية لاتنال شيئا مع التمنيات القلبية بحظ أسعد فى المرات القادمة.

وقد رأيت وعايشت بنفسى أحد هذه النماذج، فقد فوجئنا بخطاب من شركة كونترتريد يهنئ زوجتى باختيار السحب لها دون الالاف بالفوز بجائزة عبارة عن سيارة فاخرة، كانت زوجتى قد اشترت من الشركة جهاز تخسيس منذ عام وثبت فشله، ونسيت الموضوع إلى أن وصل الخطاب فكانت سعادة غامرة، وتحدد يوم الاستلام بعد تنفيذ الشرط، وهو شراء

سلسلة مطلية بماء الذهب كانت ترتديها أو ترتدى مثلها الأميرة ديانا وثمنها ١٥٠ جنيها. قلنا لا بأس وجاءنا المندوب حاملا السلسلة فسلمناه المبلغ وانتظرنا، ثم تأجل الموعد وتأجل، ثم فقدنا الأمل وعدنا إلى نسيان الموضوع حتى قرأنا أخبارا موسعة وتحقيقات صحفية عن آلاف المحظوظين الذين ذهبوا إلى الشركة يحمل كل منهم خطابا مثل الخطاب الذى أرسل لزوجتى يطالب بالسيارة. وتم تهدئة الجماهير ووعدت الشركة باختيار بعض الثائرين للحصول على جوائز متواضعة.

الأغرب أن الحكومة لم تتخذ أى إجراء، ولم يتحرك وزير التجارة ولا الاقتصاد ولا الداخلية ولا رئيس الوزراء ولا مخلوق مع أن الموضوع شعر به الجميع، ولازالت الشركة تمارس عمليات الاحتيال.. فماذا يسمى هذا التصرف؟ وما هو الموقف الحقيقى لحماته ورعاته؟ ومثل هذا يحدث كل يوم دون مساءلة أو عقاب، والأدهى أن بعض المسئولين يتوجه باللوم للناس!!

إن هذه الأساليب التى تصدر عن الأفراد وعن الشخصيات الاعتبارية وعن مؤسسات حكومية ومؤسسات خاصة يجب أن يكون لها حد وأن يراجع أصحابها سلوكهم، لأن مشروعاتنا وأهدافنا مهددة بالفشل بسبب كم الكذب الذى يطل من كل نافذة ويندس فى كل قول وعمل، ويلازم العقود ويشترك فى البناء ويطل حتى من بعض سطور الصحفيين ظلما وبهتانا .. ومازال الكذب يمارس وجوده وتأثيره لأن احساسنا بالآخر يكاد ينعدم، ولن تكون ثمة نهضة مصرية إلا باحترام الانسان.. أدميته وأحاسيسه وحريته، واحترام عقله وحياته. واحترام كل ما يصدر عنا من قول وفعل، والكل يعلم أن للصدق لذة لاتعادلها لذة وصاحبه فى سلام مع النفس، ينام قرير العين، مطمئن البال والخاطر، لأنه لايتعامل إلا مع الحقائق.

الضمير.. قلب البشرية النابض

يكاد يتفق جميع المفكرين برغم اختلاف مدارسهم على أن الضمير هو حاسة خلقية تدفع إلى الخير وتحارب الشر أو تحاول تجنبه، إلا أن مصادر الضمير هى التى يكتنفها بعض الاختلاف، والضمير فيما نحسب يميل للقيام بدور الأمين بمعناه الواسع، وأعتقد أن هذا المعنى تراكم على مدى الخبرات الشخصية، والعامة من منطلق أن الضمير كان مطلوبا دائما كى يصحب المسئولية والأمانة، وإذا أضيرنا على أى نحو أشار العقل إلى غياب الضمير بوصفه المكلف بالأمانة على اتساع ما نفهمه من الكلمة، والضمير، لذلك لايعمل لحساب صاحبه فقط، بل تتجلى قيمته وحيويته فى العمل لحساب الآخرين.

وبعض الفلاسفة يرى أن الضمير فطرى، خلق مع الإنسان، وهو جزء لايتجزأ من طبيعته وتكوينه النفسى والعقلى، وإن كانت بعض التوجهات الحياتية والمؤثرات القوية يمكن أن تؤثر على مدى قدرته على الضبط والتوجيه، وبعض الفلاسفة يرى أن الضمير ملكة عقلية مستقلة عن غيرها من ملكات الإنسان، وفريق ثالث لايرى فيه طبيعة فطرية أو ملكة، وإنما يراه مجموعة من الأحكام تكمن فيما يسمى العقل العملى.

وأيا ما كان الأمر فسواء كان هذا أو ذاك، فهو لن يكون غير ذلك العضو الاعتبارى أو الشخص الآخر الداخلى الذى يختص بتوجيه صاحبه إلى كل ما فيه خير الجماعة الإنسانية وتحريضه على تجنب هذه الجماعة أى شرور سواء صدرت عنه أو عن غيره.

وإذا كنا نميل نسبيا إلى القول بأن الضمير فطرى فليس معنى هذا أنه متساو لدى الجميع، أو أنه يبقى على صورته الأولى، ذلك لأنه يتقبل التطور والإضافة ويكتسب الخبرات التربوية والدينية والإنسانية وتتسم كثير من أحكامه بالواقعية، لأنه لايعمل بشكل منفصل عما يجرى على الأرض التى يعيش عليها صاحبه، متابعا كافة أحداث هذا الواقع فى أطره الزمانية والمكانية والاجتماعية والثقافية وغيرها.. ومن ثم فأحكامه متجددة يصيبها التطوير والتغيير، لكنها من حيث المبدأ حريصة على العمل فى نفس الاتجاه الذى خلق لأجله، وإن حاول البعض تحييده وتحجيم دوره فترة من الزمن، تتعالى فيها أطماعهم الشخصية وطموحاتهم المادية أو تغلبهم العواطف السلبية إزاء الآخرين.

تختلف طبيعة الضمير بين الريفى والحضرى، وبين الشعوب البدائية والمتحضرة، فى النوع وليس فى الحجم، إذ يصدر الضمير لدى أهل الريف والبسطاء والبدائيين عن كثير من الفطرة والسذاجة، أما الشعوب المتحضرة ذات النفسية المركبة وظروف الحياة المعقدة فالضمير يبتعد عن الفطرة ليصبح جزءا مشاركا ومرنا من بنية العقل العملى الذى يقترب من الدعوة الميكيافيللية أكثر من توجهه صوب القيم الخلقية المثالية من حيث أنها مبادئ ثابتة، وبوصفها مرجعية أساسية لاتتغير بتغير الزمان والمكان ولاتتأثر بظروف الحياة.

يحكى لى صديق عن زيارته لمدينة لندن وبينما هو يسير مع صديقه الإنجليزى بالقرب من أحد الميادين المزدحمة، إذا به يفاجئ بالإنجليزى يسرع للحاق بشخص أعمى يحاول عبور الشارع فيساعده حتى يبلغ به منطقة آمنة وقليلة الحركة ثم يعود، فأقبل عليه المصرى قائلا:

ـ حركتك مكشوفة.. تريد أن تثبت لى أن لديكم رحمة وضمير مثلنا وأنك أشفقت على هذا الكفيف.

دهش الإنجليزى وضحك طويلا ثم أسرع يقول:

ـ أية رحمة وأى ضمير.. هذه الألفاظ لا معنى لها عندنا.

ـ فبماذا تصف ما فعلت.

ـ يا صديقى أنا لايعنينى هذا الكفيف أو غيره، كل ما هنالك أنى خشيت إذا نزل نهر الطريق فسوف تتعطل حركة المرور، وربما تصدمه سيارة فتتوقف الحركة تماما إلى أن تأتى الإسعاف ويجتمع الناس للمساعدة وتنشغل الحركة وتضطرب، وتخصص له سيارة إسعاف كان يمكن أن يفيد بها من هو أحق منه، وسوف يشارك رجال الشرطة ويستدعى الشهود ويقبض على سائق السيارة، ويشغل الكفيف سريرا فى المستشفى وتجرى التحقيقات وتصرف تعويضات وقد يحكم على السائق فتتشرد أسرته.. و..

قاطعه صديقى المصرى:

ـ يكفى . أنت توشك أن تقول وسوف تتدخل الأمم المتحدة.

أسرع الإنجليزى يقول:

ـ غير مستبعد، هذه حقيقة وليست دعابة أو مبالغة، افرض أن الكفيف أجنبى، ستشكو دولته من إهماله وقد تصدر بيانا غاضبا وتتعقد العلاقات.

هكذا تحول الضمير من رؤية خام بسيطة تنتهى عند حدود الموقف القريبة إلى ضمير مصدره العقل العملى الذى أصبح قادراً على التعامل مع كل الأمور والوصول مع عواقبها حتى النهاية، وإلى أبعد مدى.. إنه ضمير لم يعد يكتفى بمص الشفاه وذرف الدموع وترديد كلمات الإشفاق،

ولكنه ضمير عملى مثقف ومتحضر يشارك على أعلى مستوى فى خدمة الحياة التى تضم صاحبه والاخرين.

هذا هو الضمير الناضج الذى بلغ الذروة فى دفع عجلة الحياة وتوسيع رقعة الخير، واكتساب المرونة التى تجعله يتجه نحو القيم مهما اتسعت وتعددت، دون أن يكون صادرا عن عاطفة، فانتقل الضمير الجديد من المفهوم الضيق جدا إلى ضمير معدل يرافق العقل ويفكر معه بعين القيم، وأيضا بعين الحياة والناس وتطور المجتمع وازدهاره وبعد أن كانت الخدمة خاصة أو قاصرة، أضحت عامة ومتسعة وشاملة، يقول المفكر الأمريكى أليستر كوك عام ١٩٥٢، «إن اهتمامنا بما يجرى فى بلادنا حماسى وشديد حتى لو قدر أن يأتى يوم تحترق فيه أمريكا تلقائيا، فإنها لن تنتهى أبداً إلى اللامبالاة والسلبية والتخلى عن تصحيح أى ذرة خطأ».

على العكس من ذلك نطالع فى بلادنا المثال التالى:

كنت فى زيارة قريب لأداء واجب اجتماعى، فوجدته قد أضاء جميع غرف الشقة، حتى لتبدو كأنها بحيرة من النور، فطلبت منه أن يطفئ الأنوار ويكفى الصالون الذى نجلس فيه.. سألنى.

- ولماذا نجلس فى الظلام؟

- لن نجلس فى الظلام؟

ابتسم وقال:

- فهمت.. أنت تخاف علىَّ من الفاتورة.

دهشت لذكائه، وقلت:

- افرض.

- مهما بلغت سأدفعها ولن تؤثر فيما عندى.

ـ لو كل فرد صنع صنيعك ستحترق مولدات الكهرباء.

ـ وهل قال لك أحد أنها مولدات أبى؟

فلم أجد غير الصمت، لكن الذى أحزننى فعلا ليس فقط أنوار الشقة ولكن لأنه يرفض أن يركب لمبة أمام باب شقته حتى لايفيد منها جاره أو من يصعد السلم.

هذه السطور عن الضمير ثقيلة على النفس للغاية، أكتبها وقلبى يتمزق وروحى تنهار وتتراجع داخل الجسد من فرط ما تعلم عن التخاذل المقيت لدور الضمير، وذلك التجاهل الكامل لأحكامه وتوجيهاته فدائما هو فى حالة إهمال وكبت ودق على رأسه حتى يلوذ بالصمت.

إن الضمير الموجود لدى أكثر الناس ليس إلا ضمير بلاستيك لا دور له ولا إحساس.. ضمير جثة، مطيع وهادئ جداً وأليف، تمت إعادة صياغته لكى يسمح بما لم يكن يسمح به الضمير السابق.. إننا جميعا أصحاب ضمائر، لكن القليل منها لايزال حيا، وقليل منا الذين يحترمون الضمائر الحية ويقدرونها ويعملون بأحكامها، وإذا حدث وخالفوها تحت ضغط مصلحة أو حالة جبن مؤقتة أو بسبب عاطفة عابرة أو غيرها فإنهم يظلون فى حالة عتاب للنفس قاسية حتى لاتعود النفس لفعلتها مرة أخرى، ويحرصون على أن يظل الضمير هو السيد والمستشار الحقيقى وصاحب الكلمة العليا.

ونسأل مجموعة من الأسئلة الساذجة التى يفتقد الموضوع وهجه بدونها:

هل كل المدرسين يشرحون الدروس للتلاميذ بضمير؟!

هل كل الأطباء يؤدون مهنتهم المقدسة بضمير؟؟

هل كل الممرضين يخدمون مرضاهم بضمير؟؟

هل كل الأزواج يعاملون زوجاتهم بضمير؟؟

هل كل المديرين يرعون مصالح هيئاتهم بضمير؟؟

هل كل الصناع يخدمون منتجاتهم بضمير؟؟

هل كل المقاولين يبنون عماراتنا بضمير؟؟

هل كل المهندسين يتابعون أعمال البناء بضمير؟؟

هل مديرو البنوك يخدمون الحياة المصرفية بضمير؟

هل التجار يراعون فى اختيار البضائع أى ضمير؟؟

هل كل المال الذى فى أيدى الأغنياء يرضى عنه الضمير؟؟

هل كل المحامين لديهم..؟؟

وماذا نقول عن تجار المخدرات الذين أصبحوا بالآلاف ويتسببون فى تدمير الملايين؟؟

إذا كانت الإجابة بنعم فما الذى يجرى على هذه الأرض التى شهدت منذ آلاف السنين مولد الضمير الإنسانى كما يقول بريستد.

الضمير - كما سبقت الإشارة - مسئول عن كل ما يخص الأمانة والحفاظ عليها وعدم الإخلال بتعهداتها والتزاماتها، والأمانة فى الحقيقة أمانات، لأنها فى أحيان كثيرة تجب العديد من الصفات الحميدة، فالصدق أمانة، والنهوض بالمسئولية أمانة، وأداء الواجب أمانة، والشرف أمانة، والعمل أمانة، والحرية أمانة، والطفولة أمانة، والشباب أمانة والوقت أمانة، والزوجة أمانة والوطن أمانة، والطريق أمانة، وسمعة الغير أمانة، والشهادة أمانة والكلمة أمانة.

منذ ثلاثين عاما تقريبا كتبت مقالاً عن أن الأنسان تكفيه صفة واحدة لكى يكون عظيما مثل صفة الأمانة، ومن ثم يمكن أن يكون هناك مجتمع ناجحا وساعيا نحو التقدم والازدهار. والأمر بأيدينا نحن..

التربية..

هى العملية التى بها ومن خلالها يتم صنع الانسان المعنوى، أو معنوية الانسان بوصف عملية الولادة والتغذية والرياضة وغيرها تتولى تنمية جسده أو مادته، على اعتبار أن الانسان يتكون من مادة وروح، أو مكونات مادية، وأخرى معنوية.

وبدون التربية يصبح من المتعذر تماما الحصول على إنسان ذى قيم أو أحاسيس أو ذوق أو فكر أو وعى، ومن ثم يغدو كائنا تافها لا أمل فيه ولايعتمد عليه فى أى عمل.. ولايحق لأمة تضم بين أفرادها الكثير من هذا النوع أن تأمل فى عيش هنئ أو تقدم أو ما شابه ذلك من طموح، لأن حياة الحيوانات أفضل بكثير من حياة الإنسان عندما يفتقد التربية.

لقد ذكرنا فى فصول سابقة الخصال الخمسة الرئيسية التى توثر فى سلامة البنيان الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والعلمى وبدونها أو بتراجعها يتأثر المجتمع بقوة ويأخذ طريقه حثيثا، ليس فقط صوب التخلف ولكن نحو الانهيار، وهى الصفات التى تسهم فى توفر مناخ ملائم لأعمال عظيمة وإنجازات دقيقة ومرموقة.

وليس من شك أن كل سلوك فى حياتنا إنما هو وليد التربية حتى السياسة والدين والموضوعية والحرية والأخلاق والمقاومة وحب العلم

والقراءة، إلا أن السمات التى سوف نستعرضها الآن اصطلح على أنها تمثل بشكل واضح وملموس عنصر التربية بمعناها الأخلاقى، إضافة - بالطبع - إلى الصفات التى تناولتها فصول أخرى مثل الرضا والأخلاص والصدق والعدل.

وهذه المجموعة من السلوكيات على درجة عالية من الأهمية، ولكن المجال لايتسع لأن نفرد لكل منها فصلا، ولما كان من المتعذر تجاهلها، رأينا جمعها تحت اسم نبيل هو «التربية» بوصفها صفات تستهدف العمل على ترجيح كفة الخير، وهى منظومة من الخلال الراقية، تعين الانسان على أن يصبح إنسانا حقا ومتحضرا، وبغيرها يكون عدوانيا يمارس حياة عشوائية، ويتعذر إقامة علاقة أو التواصل معه وسوف تفشل أية محاولة لمشاركته عملا أو صداقة أو مشروعا أو حتى جلسة مؤقتة.

وعادة ما نطلق على الشخص الذى يفتقر إلى هذه السمات، أنه قليل التربية، وفى الوقت ذاته فالناس كلها ترحب بالتعامل والتواصل مع الأشخاص الذين يتسمون بها، ومنها:

الوفاء - توقير الكبير - أداء الواجب - النخوة - حفظ السر - ستر العورة - رعاية الحرمات - رعاية الجار - العفو - السماحة - التواضع - حب التعاون - صلة الرحم - رعاية اليتيم - الحياء - المودة - إكرام الأقارب - مساعدة الضعيف - الاعتراف بالجميل - تقديس الوالدين - الإيثار - عدم اللدد فى الخصومة - احترام الكلمة - احترام الوعد - الحفاظ على الموعد - التصدق والإحسان - السؤال عن الغائب - عيادة المرضى - كراهية الانتقام - حب الناس.

لطالما كانت هذه السمات عبر حقب التاريخ شاغل المؤسسات الاجتماعية على تعدد أشكالها، بداية من قيادة القبيلة وغيرها من التجمعات البدائية التى أرست أعرافا وتقاليد وأحكاماً تحرص على احترامها جيلا بعد جيل، وكان شيوخ القبائل أو أبرز رجالاتها يؤلفون

القصص والأساطير التى من شأنها أن تؤكد من خلال الحكايات التى أضيف إليها الكثير وشاركت الحكمة الشعبية فى بلورتها على قدسية التربية، وعلى الأمهات والأباء الاطمئنان إلى زرع ذلك كله فى روع الصبيان والفتيان مع السنين المبكرة لهم.

ومع تكون المجتمعات المدنية وظهور الحضارات اضطلعت المعابد والمدارس والمنازل بالمهمة، وزاد الاهتمام بها مع تقدم العلم والمعرفة واستقرار الدولة فى صيغة إدارية متماسكة، كما كان للكتاتيب وللحضانات بعد ذلك دور غير منكور فى الإسهام ولو بجزء أو مرحلة من مراحل التربية.

على أن هذه المهمة كانت الشاغل الأول للمساجد والكنائس والمعابد بعد نزول الأديان وتكليف الرسل وتولت الرسالة بعد ذلك المدارس والمعاهد والجامعات، ومع القرن التاسع عشر والعشرين شاركت وسائل الاعلام فى عملية التربية، كل منها بطريقتها، وكذلك كان للأدب والفن دور بالغ وإسهام واضح على مدى القرون بأسلوب غير مباشر.

على أن هذه المهمة لاتنتهى إلا عندما يبلغ الفرد سن المعاش، إذ أن المجتمع يواصل توجيه أبنائه، واستكمال ترسيخ مجموعة السمات الأخلاقية، عبر التجمعات الوظيفية والعمالية والنقابية والشبابية والحزبية.

إن الأمر الذى يتعين الإشارة إليه هو أن التربية جزء لايتجزأ من تنمية الفرد وتطوير بنيته الإنسانية المؤثرة فى تشكيل مناخ أو توفير وسط يتنفس فيه مجتمعه على نحو صحى، ويعيش فى ظل قيمه المتدفقة عبر المواقف النبيلة للفرد الذى أحسنت تربيته من أول يوم ولد فيه إلى يوم إحالته إلى التقاعد.

إن التنمية البشرية ليست فقط بالتعليم والثقافة والتدريب ورفع المهارات وتطوير أداء الفرد، وإنما تعنى فى الأساس تربيته لكى يصبح فى

حده الأدنى مواطناً صالحاً وإنساناً يضيف إلى نوعه وإلى أمته، ولايمثل عبئا أو عنصرا سلبيا.

إن السور الذى يحمى الأمة ضد الاندثار والانحدار هو سور يتكون من أبناء الأمة، فردا إلى جانب أخيه، والأمة هى الناس وليست المكونات المادية من مصانع وعمارات وجسور ومنشآت.. الأمة أولا بشر تجمع بينهم علائق طيبة تحاول أن تحقق الانسجام وتسعى للتماسك.. والأمة قوية بقدر تماسك هذه البنية الإنسانية المتمثلة فى طبيعة العلاقات، والعلاقات مصدرها الأول «التربية».

إذا كان ثمة أشخاص يفتقرون إلى التربية الصحيحة التى تجعلهم لبنات جيدة فى بناء قوى فإن المجتمع لن يتمكن من إثبات ذاته واستغلال طاقاته وحماية مكتسباته.

وإذا كان من الطبيعى أن تنهض وزارة التربية والتعليم بمهمة التربية قبل التعليم عندما أوكل إليها المجتمع ذلك، فإن متابعة ما يجرى داخل مؤسساتها يكشف عن أنها لم تعد تولى مسألة التربية، ما تستحق من اهتمام، وما هى جديرة به من تطبيق ومتابعة وتوجيه، لأن التربية هى الأولى بالرعاية، فلن يفيد العلم إنسانا سئ الخلق، ولم يتقدم المجتمع خطوة واحدة لو كان المتعلمون فيه عباقرة، ولكنهم بلا أخلاق أو وطنية أو وفاء أو إنسانية أو تواضع ونبالة.

قد يكون كيانا متقدما، لكنه بالقطع ليس مجتمعا ولا أمة من البشر إن كل ما نسعى إليه وفى مقدمة ذلك العلم.. إنما يستهدف سعادة الانسان، وسعادة الانسان سوف تظل مادية وروحية، وإذا كان حتما أن نختار بينهما فلتكن حياة الانسان أخلاقية ومعنوية وليعش بوصفه جزءا من الطبيعة، بسيطا ورقيقا وعذبا وجميلا وفاضلا. إنها بحق حياة رائعة،

لذلك نأمل أن يتنبه العاملون فى وزارة التربية إلى خطورة غياب هذا الدور، وخاصة عدم احترام التلميذ للمدرس، لأن المدرس هو المعلم الأول وليست الأسرة.

إننا فى مصر نتصرف فى كل مؤسساتنا كأن ما يجرى لايعنى أحدا أو أنه أضحى بلا جدوى، أو أنه لا يخصنا البتة، وقد كنت أتمنى أن تشارك فى المهمة المؤسسة الدينية إلا أنها مشغولة، فى الأغلب بالدعوة إلى عبادة الله وتقديس الأنبياء والتذكير بالجنة والنار، دون أن تربط كل ذلك بما يجرى فى حياتنا المعاصرة إلا على استحياء واقتراب محدود، كأن ولوج عالم الناس وما يمور فى الشارع لايصح الحوار حوله، ولعلهم فقدوا الثقة فى الإصلاح، مع أن الأديان ورجالها لاييأسون أبدا من دعوة البشر الآبقين.

يقول جون جاردنر فى كتابه «التميز» ص ١٩.

«إن التحدى الأكبر للقيادة فى مستوياتها المختلفة يتركز فى مواجهة كل ما يهدم القيم، وعلينا أن ندعم الأسرة بكل قوة، ونحافظ على تماسكها وسلامتها بكل الوسائل، لأنها هى التى تغرس البذور الأولى للقيم، وعلينا أن نعيد فحص قيمنا ونجددها وأن نرسخها فى مؤسساتنا وألا ندعها تهيم على وجهها على هيئة شعارات تتردد فى الاحتفالات وخطب الافتتاح، ولنعلم أن تجديد القيم مهمة مستمرة وممتدة ـ فكل جيل يستقى من تقاليده الموروثة تلك القيم التى تضفى قوة على حياته العامة، ويعيد تفسيرها بما يتفق مع التطبيق المعاصر».

فى كل إنسان توجه إلى الخير وميل إلى الشر، وتختلف نسبة كل عنصر من شخص إلى آخر، ولله فى خلقه حكم وشئون، ولعله أراد أن تكون بذرة الشر موجودة على نحو ما لتحقق الدفع الذى هو من ضروريات

التفكير، وقدح الذهن للتفوق وتجاوز العقبات والمقاومة وتطوير الوجود الانسانى بالابتكار والمنافسة والتحدى، وقد حرص المولى سبحانه على أن يسهم فى تربية البشر من خلال كتبه ورسله فقال فى سورة البقرة داعيا إلى التفكير فى الخير دوما والتوجه إليه:

«يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم» ٢١٥. ويلفت نظرنا إلى العفو فيقول فى نفس السورة:

«ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون» ٢١٩.

ويدعونا إلى أن نترفع عن إنزال الضرر بالناس تلذذا أو انتقاما، داعيا أن يكون التعامل الصحيح بالمودة والمعروف، وأن يكون الخلاف أيضا كريما:

«وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولاتمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه» البقرة ٢٣١.

ويقول أيضاً: «ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير».

وعن رد السيئة بالحسنة: «ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم».

ويؤكد على أهمية اللطف والحكمة فى كل شئ حتى فى الدعوة إلى عبادة الله.

«ادع إلى سبيل ربك بالحكمة، والموعظة الحسنة» لا بالسيف والإرهاب والشدة والغلظة، ولا أحسبنى مبالغا إذا قلت إن نسبة كبيرة من

القضايا التى تشهدها المحاكم وينوء بها القضاة سببها تجاوز الحدود والقسوة والرغبة فى الانتقام.

إن صفحات الجرائد تعرض علينا صباح مساء تفصيلات لجرائم غريبة فشخص قتل جاره لم يرد له خمسة جنيهات وعشرة جنيهات وآخر قتل جاره لأن حماره أكل بضعة أعواد من البرسيم.

أى منطق أو عقل أو دين أو إنسانية أو حتى حيوانية يمكن أن تحرض أو توافق على هذا السلوك الذى لانكاد نجد مثيلا له.. والحق أن الجريمة لاتتم لمجرد رفض رد الدين ولكنها تتم لأن المدين لايود الاعتراف به ويكابر ويرد ردا غليظا يغيظ الدائن، وربما يحقر من شأنه وشأن دينه أو العكس.. دونما حسنى أو سماحة، دون محبة أو عفو وحلم.. ولو عرف كل إنسان حدوده لما حدثت جرائم أو تجاوزات.. ولن يكون المرء مواطنا صالحا إلا إذا التزم بالحدود التى رسمها الله ورسمتها الجماعة البشرية فى شكل وأعراف تقاليد وحكم وأمثال، وما نبهنا إليه الآباء والأجداد، فضلا عن تعاليم الدين، وليس مناسبا أبدا ولا مقبولا أن تمر قرون وقرون بل آلاف السنين منذ نشأت الحضارات ولازال الانسان المصرى همجى وطائش فى بعض ما يصدر عنه، ولقد انتهى عصر الأنبياء منذ ألف وأربعمائة عام فماذا ننتظر؟

بعد آلاف السنين ينكر الأبناء فضل الآباء ولايحفلون بهم، بل ويتخلصون منهم فى بعض الأحيان، ومنهم من يهجر والديه ويسرف فى الإساءة إليهما مع أن المفروض العمل بكل ما يملك الانسان لتوفير الرعاية اللائقة بهما، وهما فى سن كبيرة ويقول المثل الشعبى فى هذا الشأن:

«الشجرة اللى ما تضلل على أهلها تستاهل قطعها».

إننى لم أقصد من وراء هذا الفصل الحديث عن الأخلاق، ولكنى أتحدث عن التنمية البشرية، ولن تتحقق هذه التنمية التى هى عصب كل

تقدم دون ضبط هذه المسارات، ولابد من أن يكون الفرد سليما عقلا وروحا وجسدا لأنه لبنة أو خلية فى أمة، ومحاولة التعرف على حال أية أمة من حيث قدرتها على المواجهة والوصول إلى موضع متقدم على خريطة العالم، يكفيه إجراء استبيان لعدد من الأفراد تستهدف التعرف على سلوكهم وأفكارهم.

كيف يمكن أن يكون هناك تقدم وعشرات الآلاف من الأسر تتعامل مع المحاكم وتستعين بالمحامين وتمثل أمام القضاء وتتوتر شهورا وسنين وتتعطل مصالحها، وتعكر صفو حياتها الرحلات الطويلة، التى تقطعها القضايا من يد إلى يد ومن محكمة إلى محكمة ومن تأجيل إلى تأجيل ومن طعن إلى طعن، والعداوات تعلو جبالها.

إن العلاقات التى تصل بين الناس تمر فى كثير من الأوقات بأزمات ولابد من أن نشارك جميعا فى تخفيف حدة التوتر بين الجميع، ليس علينا إصلاح الكون أو إرشاد الناس ووعظهم، فنحن قبلهم لنا أخطاؤنا، لكن المهمة ملقاة علينا جميعا، وحب بلادنا يدفعنا إلى أن نقول إن ثمة، ما يشوب الثوب وعلينا أن نشارك فى تنقيته حتى نستطيع أن نمضى نحو المستقبل والأيدى تشد على الأيدى والقلوب على القلوب والعيون متطلعة إلى الغد الأفضل وأبدا أبداً. لن يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

أصل القيام..

..المقاومة

يسود فى الأمة اليوم ما يشبه الشعور العام بالرغبة العميقة فى أن تنهض البلاد وتحتل مكانة طيبة على درب التقدم الذى قفزت إليه قبلنا العديد من الدول التى كانت إلى عهد قريب تتعثر فى مشاكلها وقلة مواردها، وافتقار بنيها للرؤية الصحيحة لما يجرى فى العالم وحولها وبين أنحائها المختلفة.

ولعلنا جميعا يخالجنا نفس الشعور لعدة أسباب:

أولاً: لأننا جديرون بأن نبتغى تلك المكانة ويحق لنا أن نحلق كغيرنا خاصة أن ماضينا البعيد كان مشرقا وعزيزا.

ثانياً: إننا بالفعل تخلصنا من عقبات عديدة وكوابح وأزمات وانطلق إلى حد ما فكرنا إلى ما أنجزه الآخرون، ونتابع بوعى شبه كامل ما يحدث على الساحة الدولية.

ثالثاً: إننا على ثقة أن الموارد المصرية والطاقات البشرية والكوادر العلمية وغير ذلك من عناصر الإنتاج تتوفر بشكل يفى بالغرض منها،

ولاينقص الإقدام والإنجاز المبرز والمتميز إلا حسن الإدارة والمواجهة الموضوعية لعشرات المشكلات الصغيرة، واستخدام الأساليب العلمية فى الإدارة والتخطيط، وهذا ما أتصوره نوعا من المقاومة.. لأن الأصل فى القيام، قيام الأمة أو الفرد، أى نهوضها هى المقاومة، ولا سبيل إلى القيام إلا بها.

رابعاً: لابد من مقاومة كل أسباب التخلف حتى نخلص أقدامنا مما يعوق المسيرة، وإذا لم نفعل فالسنوات القليلة تحكم الحصار وسوف تتسع ثقوب المصفاة ليسقط من لم يمتلك أسباب التقدم ولعل الكثيرين لايعلمون أن أكبر صفة ارتبطت بالإنسان عبر التاريخ إيجابا وسلبا هى صفة «المقاومة» أو حتى الرغبة فيها دون القدرة عليها.

لقد واكبت حياته منذ أول يوم وعى فيه ما حوله، واستوعب رسالته ومهمته فى الكون، وكانت فى سلوكياته صعودا وهبوطا ذات تأثير بالغ، ولا تزال درجة الحكم على الرجل من خلال رؤيتنا لهذه الكلمة ودلالتها، على الأقل لدى البعض.

عندما تخلى آدم عن المقاومة واستسلم لغواية الأنثى وأكل من التفاحة عوقب بالهبوط إلى الأرض، وعندما تخلى قابيل عن مقاومة النفس الأمارة ورضخ للغواية وتسللت إلى نفسه سموم الحقد قتل أخاه هابيل، وأصبح أول مذنب فى التاريخ وأول قاتل منذ خلق البشر.

وهكذا مضت الرحلة وكان من اليسير على أى متابع أن يلتقط الملاحظة الأساسية الواضحة وهى ارتباط شرطى دائم بين المقاومة والغلبة وفرض الكلمة، أو التخلى عنها ولقاء الذل والهزيمة.

ضاق سيدنا يونس بقومه الذين لايستجيبون لدعوته لعبادة الله وتوحيده وقرر أن يتخلى عن الرسالة.. فما جدوى أن يبذل جهدا متواصلا لا طائل من ورائه، والناس فى غيهم يعمهون.. لم يفكر فى

مقاومة ضعفه وهروبه واستسلم لهما وأسرع بركوب البحر فالتقمه الحوت، عندئذ أدرك خطأه فعاد إلى العهد وتحمل المهمة راضيا «ويضرب الله الأمثال».

القصص كثيرة من حياة الأنبياء وغير الأنبياء، من الملوك والقواد والصالحين والمتصوفة وعامة البشر والحياة نفسها بث الله فيها سر تعلم الانسان المقاومة وفهمها، وقليل من يدرك ذلك السر «يا أيها الأنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه». حاولت الحياة عبر مواقفها المختلفة أن تعرف المقاومة بأنها رفض الإذعان لمؤثر داخلى أو خارجى، فى حالة الاطمئنان إلى رداءة هذا المؤثر وسوء بواعثه، والاقتناع بأن أهدافه ليست إلا إلحاق الأذى المادى والأدبى سواء على المدى القصير أو الطويل، ومن ثم يتوجب الاحتشاد لرفضه وإبعاده بشتى الوسائل.

ورحلة الإنسان كلها تنهض على فلسفة الصراع والدفع، لأنه مستهدف دائما ومطالب بالبحث عن أمنه، وضرورياته وسعادته وتحقيق أهدافه عبر دروب غير معبدة فى الغالب، وهو فى كفاح دائم مع الطبيعة والآخرين والكائنات الحية والجمادات، وكذلك مع آليات المهنة فضلا عن نفسه ورغباتها وهواجسها وعقدها وظنونها وطموحاتها.

وصور المقاومة ومقاديرها تختلف من شخص لآخر، حسب تكوينه النفسى وظروف نشأته وعوامله الوراثية، وثقافته وحالته ومكانته الاجتماعية، وإمكانياته المادية ووضعه الأدبى.. عوامل كثيرة تحددها نظرة الانسان لطبيعة الكفاح والكدح.. فى كل الأحوال لايملك المرء الانفلات من المقاومة أو المواجهة على أى نحو لأن حياته مرتبطة بها ولاتقوم لها قائمة بدونها ولن تنقطع عرى هذه العلاقة إلا بالموت.

ولايعنى هذا الحديث صعوبة المهمة التى أنيطت بالإنسان على الأرض، لأن جزءا كبيراً من التحديات إنما هو من صنعه، فالطموحات الكبيرة تتطلب جهدا وسعيا لاتتطلبه حفنة من الآمال المتواضعة، ومن ثم فإن:

من طلب العلا سهر الليالى وبقدر الكد تكتسب المعالى

(التبديل بين الشطرين مقصود)

ومن الناس من لايقبل بغير المقدمة وأن يكون فى الصدارة من المتفوقين:

ونحن أناس لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر

وعندما طمحت مصر لبناء السد العالى وتخلى عنها الجميع تقريبا ممن لديهم بعض الحول والقوة، لم يكن بد من المجاهدة، فأقدم عبد الناصر على تأميم القناة ووضع أمته كلها فى عش الدبابير، لكن الطلب كبير والغاية جديرة، وتوالت العواقب التى تمثلت فى العدوان، الثلاثى، وفرضت المقاومة والقتال، ونزلت مختلف فئات الشعب إلى الساحة باقتناع كامل، وانسجام فريد، وتجلى العطاء الشعبى بالدماء والأرواح وخاصة أبناء بورسعيد الأبطال، وانزاحت الغمة، وتحققت بالمقاومة العديد من النتائج الإيجابية فثمة نصر سياسى وتلاحم القيادة والشعب فى نسيج واحد الايجابية، فثمة نصر سياسى وتلاحم القيادة والشعب فى نسيج واحد، وتماسك البناء للأمة واحترام العالم لها وهى المتطلعة حديثة الاستقلال، واستعادة القناة والإقدام بهمة لبناء السد العالى وبزوغ فجر الوحدة العربية.

راحت سيناء عام ٦٧ فى ظل الاسترخاء ؟؟؟، ولكى تعود كان لابد من التضحية والمقاومة بكل الأسباب.. فعادت سيناء والكرامة، ثم انفتح باب السلام وانخفضت نسبيا النفقات على الحروب وبدأنا خطة طموح للبنية الأساسية التى ظلمت طويلا، وشرعنا فى النظر بأمل للمستقبل.

وتظل المقاومة فى خليتها الأولى والرئيسية فى نفس الفرد حيث تعمل رغباته وتبزغ نزواته.. يقول الرسول الكريم عن مقاومة النفس بعد أن عاد من إحدى الغزوات: لقد عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر.

ويقول الله فى كتابه العزيز: قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها.

وأحسب أن ما جرى على أرض الوطن الحبيب فى ربع القرن الأخير لا علاقة له بالمقاومة. فقد تهرأت الوشائج التى تربط الانسان المصرى بهذه الصفة التى ذهبنا إلى أنها أصيلة وتاريخية.

لقد عانى الانسان المصرى على الأقل نحو ألف عام من الظلم والعنت وقاسى شظف العيش ونير الاحتلال وذل المعاملة والتهميش والاستغلال فضلا عن حصار الثلاثى الشهير: الفقر والجهل والمرض.. وما أن قامت الثورة وشرعت توفر بعض الثمار الطيبة لمختلف فئات الشعب حتى رحب الجميع بها وطلبوا المزيد، وظلت العطاءات فى إطارها المحدود خلال الخمسينيات والستينيات تكبحها التحديات الشرسة داخليا وخارجيا، إلى أن أعلنت الدولة سياسة الانفتاح فى منتصف السبعينيات وتحطمت الأسوار وخلعت الأبواب التى قد تحجز خيرا أو تعطل مكتسبا، وركب أكثرنا الموجات العالية نحو النهل من المنابع والإقبال على منافع الحياة وشهواتها، وتزايدت الأغراض وتنوعت وانفتحت الشهية لاستقطار المذاقات العديدة، وجمع الأموال والتمتع بمنجزات التكنولوجيا التى توفر الراحة والمتعة.

وإذا كان من حق البعض أن يلعن أيام الانغلاق، فالمائدة الآن عامرة وضخمة وبلا قيود، والبوفيه مفتوح دائما مصحوبا بعبارات تدل على الاستهانة من قبيل «وسلم لى على المترو» أى لاشئ يهم. وأقبل البعض على الوليمة يملأون الأطباق كأنهم يأكلون فى آخر زادهم وأنا ومن بعدى الطوفان، وتقدمت أمامنا الكروش وامتلأت جيوبنا وبنوكنا بالقروش وتخلى عدد كبير عن أشياء قديمة، مثل القيم والأمانة والإيمان والانتماء والوطن، وراحت السكرة وجاءت الفكرة. وحسب البعض أن الفكرة لم تأت بعد، فمازلنا فى عهد السكرة.

النفس الانسانية سيطرت وألحت وأمرت فاستجاب صاحبها فورا ولبى ونفذ ورضخ، وامتدت أياديه إلى كل المصادر، حلالها والحرام

فاغترفت وأهالت على النفس ما شاءت حتى أغرقتها.. حتى الزواج والطلاق تم بأعلى المعدلات وفى دقائق، وانطلق الكثيرون نحو الغواية والمزاج لايردهم شئ حتى لو كان عزيزا، ولم تعد هناك ثمة مقاومة.. بل لم يعد هناك لدى الكثيرين ميل للتردد أو حتى فرصة لسؤال العقل.

أصبح سهلا أن يدخن الأطفال والشباب وكذلك المرأة، وصار طبيعيا تناول الكحوليات برغم تحذيرالأطباء، وأقبل الكثيرون على المخدرات، وفى سبيلها تسرق كل ممتلكات الأسرة، ويقتل الأب والأم والأخوة، والانسان فى كل الأمور ينتابه الضعف ويتسلل إليه الخور، ولا قدرة لديه على المقاومة أو حتى التمهل قبل السقوط.. فهل يمكن أن يمثل هذا الانسان لبنة من لبنات المجتمع أو خلية من خلاياه وهو يتطلع إلى منافسة أو محاولة إقلاع نحو آفاق التقدم.

هذا إنسان مستسلم للملذات والآمال السهلة، لا يمتلك الإرادة والقوة الداخلية للتحدى والمواجهة، ولعل شباب اليوم فى حاجة إلى أن يعرفوا أن نصف من حصلوا على الدكتوراة فى الخمسينيات والستينيات بل والسبعينيات ينتمون لأسر محدودة الدخل، وكانت لياليهم الطويلة، تضاء فى أحيان كثيرة بلمبات الجاز من أجل هدف كبير هو الحصول على العلم، والعمل بكل الجهد لتطوير الحياة الشخصية، والعامة.

ومنهم من لم يكن بالمدارس أصلا وفاته القطار، لكنه قرر أن يقهر الجهل وقاوم الحال المتدنى وتعلق بآخر عربة فى قطار العلم ومضى ينتقل من عربة إلى عربة حتى بلغ المقدمة، وذلك هو النموذج الذى كنا نسمى صاحبه شخصا عصاميا، ولقد انقرض هذا الصنف أو كاد.

لابأس من الاعتراف بأن المقاومة على مستوى الرأى قد أصابها الكثير من الإحباط بعد مناخ غير صحى ساد الخمسينيات والستينيات والسبعينيات وبلغ ذروته مع أحداث سبتمبر ١٩٨١، وقد انقضى هذا العهد وتراجعت أظافره إلى حد كبير وإن كان قد استبدل بوسط سياسى

جديد يقوم على إتاحة الفرصة لحرية التعبير دون إبداء استجابات حقيقية إلا فى حدود ضيقة.

ويظل أمل الجميع فى مناخ سياسى يليق بكفاح الكتاب والمفكرين وثمرة جهاد الثائرين على مدى قرن كامل ويزيد، وهذا المناخ.. لن يستقطب زورقنا نحو مياهه العميقة إلا إذا تحول المجتمع إلى قاعدة قوية مقاومة لكل أشكال التخلف والاستبداد والكبت، وتحسين المعاملة التى يلقاها الطفل أحيانا والمرأة والبسطاء، قاعدة قوية تأبى الضيم ولديها الاستعداد لمقاومة كل صور التدنى وكبح الابتكار، ومن يقفون عقبة فى وجه الإبداع والتطوير، وفى الوقت نفسه فإنها مزودة بقوة تعينها على التفريط فى المكاسب الشخصية فى سبيل التعبير عن الآراء غير المتسقة مع السلطة أيا كان شأنها ومستواها.

إن المغريات كثيرة والضغوط الأسرية ثقيلة، وأصبح المفكر والمواطن الحر والمثقف بين المطرقة والسندان، فهو يمتلك رؤية لما يجرى، ويحرضه بناؤه الداخلى على الإعلان عنها والجهر بها، وهو يدرك أنه لن يسجن ولن يشرد من عمله ولن يقصف قلمه، لكنه يعلم جيدا أن هوامش أخرى كثيرة سوف تهذب وتشذب وتقص بعض الأجنحة، وتقصر طول الألسنة. وهذه الهوامش فى مجموعها ليست هيئة أو سلطة رسمية ولكن استبعاده وقص أجنحته سيتم بأسلوب جديد وذكى، وفى الوقت نفسه تحاول الأسرة التمسك بالمكتسبات التى حققت لها قدرا من الرفاهية، أو القدرة على نوال بعض المتطلبات العزيزة، فتطالبه بالتنازل والقرب من السلطة لأنها حسب النظام الجديد المصدر الوحيد للمكانة الاجتماعية والمدد المادى.

وهكذا فى كل موقع تتراجع المقاومة ليحل محلها الرياء والتملق، ويصبح تدريجيا رأى العالم فى مديره الجاهل إيجابى وقد يقول له: إن رأيك يا باشا غير مسبوق وتسلم الأم التى أنجبت سعادتك.

إن المناخ الذى يتعين توفيره لدعم النفوس الجسورة والرؤوس غير القابلة للانحناء هو أن نعمل جميعا يدا واحدة على بنائه وبث الروح فيه،

والتعاون لنشره، فى كل بقعة مهما سقط الضحايا. يجب أن تلقى الآراء الحرة كل تشجيع ودعم وترحيب ومؤازرة وما دامت خالية من الغوغائية وتدنى أساليب الحوار.

إن المواطن المصرى يجب أن يعيد النظر فى ذاته وفيما يصدر عنها وعن غيرها، ولابد أن يستعيد قوته الشخصية والثقافية، وثقته بنفس وبأن الله كتب الرزق لجميع العباد وضمنه لهم: أطلبوها بعزة، فلن تموت نفس حتى تستوفى رزقها» هذا ما ورد فى حديث قدسى فلماذا إذن نقلق ونرضى بالتضاؤل والذلة، والرزق - كما يعلم الجميع - ليس فقط هو المال ولكنه كل ما تحصل عليه وما تتمتع به من صحة وستر ومال ومكانة وزوجة صالحة وهى ثروة كبرى، وفلاح يصاحب الأولاد فى مسيرتهم فضلا عن محبة الناس واحترامهم.

كل ذلك كتبه الله علينا، ولنا.. ويتحتم أن نمضى بثقة دون أن نحطم القيم والأعراف ولانقبل الانكسار.. فهذا ما لا يقبله دين ولا كرامة ولاعقل. إن أحداثا كثيرة جرت وتجرى كل يوم فى نهر الشارع والحى تدل على أن الأنا مالية والسلبية هى المسيطرة. والمنفعة تقتضى من البعض أن يحموها بالخضوع، ومصالحهم يتم رعايتها بالإذعان.. والأمر على هذا النحو مهانة.. وحديث الرسول الكريم واضح ويعرفه الجميع.

«من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان» صدق الرسول المعلم.

إن الزعيم عرابى الذى يحترمه التاريخ ويقدره الشعب على مر الأجيال قال كلمة واحدة للحاكم هى: لا.. فأطلق الشرارة الأولى لتحرير مصر من الحكام الأجانب والمحتلين، واستمرت الهبة القومية على أيدى من جاءوا بعده حتى ثورة يوليو ١٩٥٢.

قل: لا.. مهذبة ونبيلة لكل ما لا ترضاه ورزقك على الله.. قلها بأسلوب متحضر وراق وعزيز حتى ترتفع قيمة كلمتك وقيمتك، أما .. لا الغوغائية القبيحة فلا احترام لها، حتى لو كانت على صواب، إن أخطر ما

يهددنا اليوم هو أن عدد من خلا قاموسهم اللغوى من كلمة لا .. يزيد وهذه إشارات سلبية تؤثر على بنية المجتمع وعلى مسيرته التنموية وتجهض محاولاته الجادة والمخلصة للتطوير والتحسين.

إن مقاومة المجرمين من القتلة واللصوص وتجار المخدرات والمزورين وغيرهم من الخارجين على القانون تقع على عاتق رجال الشرطة والقضاء. لكن الجريمة ليست فقط ما يرتكبه هؤلاء الآثمون الذين يقترفون جرائم تحددت لها فى القوانين عقوبات يمكن على أساسها القصاص منهم، ولكن هناك جرائم تضر المجتمع أكثر وأقسى مما تضر به تلك الجرائم دون أن تخضع للقانون أو يحتسبها جديرة بالعقاب والردع، إذ لاتنضوى بشكل مباشر وواضح تحت مادة من مواده ولايخصها بالعقوبة نص من نصوصه.

هناك أعمال منافية للآداب والذوق وأخرى تكرس للقبح، وهناك منتجات تحمل اسم الفن إلا أنها الدلالة الحقيقية على مستوى الفراغ الفكرى والنفسى، ومعظمها أعمال تلقى فى روع متلقيها أن المجد للتفاهة والسفاهة.

فمن يحمى المجتمع من أوزار هذه الأعمال وأوضارها، خاصة أن بلادنا تعيش فترة على درجة عالية من الحساسية تكاد تفقد هويتها بعد أن تعرضت لعدد من العمليات الجراحية الضخمة والمؤثرة حتى بدا الجسد منهكا والرؤية غائمة.

من يحمى الجمهور من الأفلام الساقطة والمبتذلة؟ أين النقاد الذين يتعين عليهم التمييز بين الغث والثمين، من يحمى الشباب من الأفكار الفاسدة، ومن الأغانى الهابطة التى يتقيأها بعض المطربين الذين يفتقرون إلى الفن والدراسة والصوت الجميل الذائقة المرهفة، ومن الذى يحمى الناس من الإعلانات الساذجة والمستفزة التى لا تستند إلا إلى كلمات غثة وحركات رخيصة؟.. من يقاوم الاعتداء على اللغة العربية وهى أهم المعالم

الرئيسية فى الهوية المصرية بعد الدين والحضارة القديمة، والاعتداء عليها يكسب مساحات جديدة كل يوم ويشمل اللافتات وبرامج التليفزيون والأطعمة والألبسة والأجهزة والشوارع والمدن الجديدة والمؤسسات والجمعيات وغيرها.

من يقدم للشباب والفتية النماذج العلمية والسياسية والأدبية والفنية الرفيعة، التى يجب أن تحتذى بدلا من تركهم للفارغين والأدعياء أو تركهم لقمة سائغة للنماذج الغربية.

إننا بحاجة إلى أشعار تقاوم كأشعار أمل دنقل، وروايات تقاوم وأفلام ومسرحيات ومسلسلات وبرامج تقاوم.. والمقصود أعمال جادة تواجه وتصرح وتكشف وتوجه وتقود.

إن المقاومة كما أنها مطلوبة فى مستواها الأول ضد كل غاصب ومحتل كالصهاينة المعتدين وعتاة المجرمين، فإن المقاومة مطلوبة أيضا بأشكال أخرى كمقاومة الجهل والطمع، السلبية والأنانية، السطحية، والتفاهة، الكذب والنفاق، الغوغائية والهمجية، القمامة والدمامة، الضوضاء والتلوث بكل صوره، مقاومة الأثرة والنميمة، البذاءات وتجاوز الحدود، الفرقة والنزاعات. الفقر والضعف والاستهتار، التسيب والإرهاب، التطرف والتعصب، العاطفية والشللية. النفعية والابتزاز، الاستهلاكية الزائدة والاسفاف، مقاومة التآمرك والتأسرل والتخلى عن الوطن وأهله.

لن تقوم لنا قائمة إلا بالمواجهة والمقاومة لأن أصل أى نهضة هو المقاومة، وأصل كل قيام هو المقاومة، ولم يخلد التاريخ إلا أصحاب الرأى الحر المدافعين عن الحق والحقيقة، الذين لم تنحن رقابهم لمطالب تافهة أو نزوات، ولم يحاولوا الصعود إلى المكانة العالية بالنفاق والتزلف.

الاستهلاكية.. ثقب كبير

هذا الموضـوع يحـتـاج إلى كـتـاب كـبـيـر يرصـد هذه الظاهرة غـيـر الطبيعية التى تجرى وقائعها على أرض الكنانة، وهـى ليست ظاهرة لأن مـواصـفـات الظاهرة مـختلفـة وليست وباء يسـرى فى كل البـلاد لفـتـرة وينتهى، لكنها إن شئنا الدقة حالة دائمة من الهوس تلبست تقريبا كل أبناء الأمـة، بداية من الذين يستطيعون المشى والنزول إلى الشارع، أى كل طفل له من العمر عامان أو ثلاثة حتى من تجاوز الثمانين.

حالة يجب أن يشارك فى دراستها علماء النفس والاجتماع والاقتصاد والسياسـة والاحصاء وغيرهم لعلهم يستطيعـون إفاد تنا بتفسـيـر لهذه الصورة الغريبة من صور السلوك البشرى.

بداية لابد مـن الاعتـراف بأن الشعب المصرى عاش فـتـرة طويلة من الحـرمان تمتد على الأقل لألف عام.. نعم ألف عام من الحـرمان والجـوع والقحط (نقصد بالشعب المصرى أى نسبة ٩٥٪ من عدد سكانه)، فدائما كان هناك ما لايزيد عن ٥٪ فى أحسن الأحوال يعيشون حياة رغدة، أما غالبية السكان فكانت حياتهم تتقلب على جمـر الظلم والفقر والمجاعات والأمـراض والنفى الاجبارى والنفى الاختيارى والتشرد والتعذيب والمذلة،

وأحيانا تتحسن أحوال ٥٪ أخرى لكن ليس إلى درجة الحياة الهنية، ولكنها على الأقل تخلو من المعاناة التى دامت للمصريين لعدة قرون.

فهل تحول كل هذا الحرمان المعبأ والمكبوت إلى أفواه هائلة وأيدى تنفق وتستهلك بقسوة وغيظ على الملبس والمسكن والمأكل والشرب واللهو والمخدرات والأجهزة ووسائل الانتقال ومختلف ألوان المتع والملذات، هل يحاول المصريون أن يتمرغوا فى الاشياء.. كل الأشياء التى خلقت على وجه الأرض مما أنتجه اليابانيون والصينيون والامريكان والأسبان والطليان والفرنسيون واليمنيون وما صنعته أيدى أبناء كينيا والملايو والصومال وبلاد الافغان والهند وباكستان وجزر القمر والسودان.

أحسب أن علماء الهندسة الوراثية قد يدعون للمشاركة فى الدراسة فقد تكون جينات الحرمان قد توراثتها الأجيال عن أجيال سابقة عاشت سنوات أو قرون الاستعمار التركى البغيض حتى تظهر فى أجساد أحفادهم فى السبعينات والثمانينيات وأواخر القرن العشرين وأوائل الواحد والعشرين لتطلب أبدانهم إشباعها بسبب ما أصاب الأجداد من نقص متعدد الأشكال.

إن الانفاق على الاستهلاك بهذا الشكل الوحشى حتى ليأكل الأخضر واليابس ولا يترك فرصة للادخار أو الاستثمار الوحشى وإنما يعطى الفرصة كاملة للاستدانة على مستوى الفرد والجماعات والمؤسسات والدولة، ويمثل دون أدنى شك ظاهرة غير طبيعية لن تترك البلاد حتى تفرقها أو تقضى عليها أيا كانت الوسيلة، أو على الأقل تلقى بها فى مهاوى الفقر المدقع، فضلا عن أننا نفقد وسنفقد المزيد من كرامتنا وعزيمتنا فى كل ما نملك من أجل هذا الاستهلاك السفيه والشره.

وقبل أن نستمرض بعض جوانبه ومظاهره، نذكر فقط من لا يذكر بأن كلمة استهلاك تعنى طلب الإهلاك، أى السعى نحو الفتك والتدمير، وطلب التبديد والإهدار.

ما أن أعلن السادات عن بدء سياسة الانفتاح العظيمة فى منتصف السبعينيات حتى اشتعلت فى الجميع النار، وانطلقوا يغترفون من الاموال الشرعية وغير الشرعية واقترضوا من البنوك مليارات الجنيهات وقد سمحت بذلك سياسة الانفتاح على أساس انشاء المشاريع والمؤسسات الخاصة واستثمار الأموال فى الأنشطة الاقتصادية بكافة الأشكال.. صناعية وتجارية وزراعية، لكن أغلب الأموال اتجه إلى الاستيراد وإنشاء بعض المصانع المتخصصة فى إنتاج سلع شعبية هامشية، وكذلك السلع والمشروعات ذات العائد السريع، وبعض الانشطة التى يسترد أصحابها ما أنفقوه عليها فى نفس اليوم تقريبًا، فضلا عن الاهتمام الفريد بالأغذية الفاسدة التى يزمع أصحابها فى الخارج حرقها أو دفنها، ويقوم المصريون بشرائها بملاليم وطرحها فى الاسواق ليشتريها الفقراء.. ليموت بعضهم ويمرض الباقون وتتكدس الأموال فى جيوب أثرياء الانفتاح الذين خلت قلوبهم من الضمائر، وخلت نفوسهم من الرحمة وخلت أحاسيسهم من الوطنية.

باع البعض ما يملكون وسرقوا ما لا يملكون وتحايلوا أو احتالوا على من يملك، وتاجروا فى الأعراض والجثث والضمائر والشهوات والعمارات الورقية، واحتكروا السلع والماء والهواء، وأخفوا البضائع لتباع بأسعار خرافية، وفعلوا كل شئ حتى فى الأغانى التى خرموا بها التعريفة واعترفوا أنهم غيروا لون الهواء بطلائه بالدوكو.

جنون مطبق أصاب أولا راغبى المال، سرعان ما واكبه عدد كبير من أفراد الشعب فأقبلوا يشترون ويشترون، يشترون بمناسبة وبدون مناسبة يشترون ويستهلكون، يشترون ويخزنون، ومن هم من يشترى ويهدى أو يشترى ويرمى، استجابة للشعار الشهير الذى يعبر أصدق تعبير عن فلسفة المرحلة «أنسف حمامك القديم» فأسرع الجميع ينسفون كل شئ مع أن التوصية كانت خاصة بالحمام فقط.

فى البداية اشتروا ما تنتجه المصانع المصرية، ولما نفد الإنتاج باضت للتجار على الوتد، فأرسلوا إلى كل بلاد العالم التلكسات والفاكسات كى تتوجه جميع سفنها بما عليها إلى المحروسة مصر، فالشعب قام بثورة يريدون خلالها أن ينتهى عهد الحرمان، بل كل عهود الحرمان التى بلغت ألف عام، وأحسب أن الشعب المصرى قرر أن ينهى عهود الحرمان التى يمكن أن تكون قد عانت منها شعوب أخرى، فهو يمثلها وينوب عنها بوصفه صاحب مصر.. أم الدنيا.

وبعد أن كان محمد نجيب يترأس مجلس الثورة ويستقل قطار الرحمة عام ١٩٥٣ ويمر على القرى والنجوع يوزع بعض السلع على الناس ويقول لهم: اللى معاه بطانيتين يدى أخوه بطانية، أغلقت هذه الصفحة السوداء وأصبح التلميذ فى المدرسة الابتدائى الحكومية يخرج من جيبه العشرين جنيه (هذا التلميذ ابن السباك والمبلط).

استورد التجار - لا حرمنا الله منهم ولا من الحكومة التى صرحت لهم - كل شئ أنتجته أيدى الأجانب من الكبريت وأقلام الرصاص إلى السبح وسجاد الصلاة وسلسلة المفاتيح والسجائر والشاى والسمن والصمغ والممحاه والورق والحصر (!) والقلل والبطاطين والشباشب الزنوبة والخدوجة والورد البلاستيك وفرش الأسنان والجوارب والمقصات والمفكات والأمشاط والفلايات والإبر وحجر الولاعة والبطاريات وفرش الأحذية وأمواس الحلاقة والبرايات ولعب الأطفال البلاستيكية.

كل هذه الأشياء ينتجها أبناء الشعوب الأجنبية تحت السلالم، وهى سلع تلزم للبسطاء من جماهير المشاه وراكبى الاتوبيسات، فالبسطاء ينتجون للبسطاء أما الشركات الكبرى فتنتج السيارات والجواهر والمخدرات والأسلحة والعطور وهذه السلع لمن يستحقها، ناهيك عن الفياجرا! والتليفون المحمول، وامتلأت الشوارع والحارات بالدكاكين، حتى لتجد البقالين متلاصقين. ومثلهم المقاهى والمطاعم.. كل الشوارع مثقلة بالمحلات والبضاعة والمشترين والمتفرجين حتى انعدمت الأرصفة.

إن ما تدره قناة السويس والسياحة والبترول يكفى بالكاد لشراء المخدرات والمحمول والفياجرا وأطعمة الكلاب والقطط والرمال الخاصة التى يتمددون عليها فى أوقات فراغهم، وكذلك الدروس الخصوصية التى أصبحت تستهلك نصف ميزانية الأسرة.

الكل فى مصر يتاجر، قد نستثنى منهم بعض الكتاب والصحفيين ورجال الدين، وقد يكون السبب فى أنهم لا يتاجرون، نقص ما بأيديهم من مال.

٩٠٪ من الشعب تقريبا يتاجر و١٠٠٠٪ يستهلك .. هناك من يستهلك حتى وهو نائم، وهناك من يستهلك وهو يستهلك، فكثيرا ما تقع عيوننا على الجالسين فى المقاهى، فنجد منهم من يشرب الشاى ويدخن الشيشة فى نفس الوقت ويقزقز اللب أو يتسلى بالسودانى والعامل يلمع له الحذاء بعد أن يكون قد التهم ٢ ساندويتش كوفته أو فول.

ليس فى مصر مكتب حكومى أو مصنع أو مدرسة أو مستشفى يخلو من الموظفين البائعين، إضافة إلى الشباب الذى يحمل بضاعته على كتفه ويقتحم هذه الأماكن ليوزع السلع.

لقد تغلغلت عادة تقليد الأخرين فى الاستهلاك والمظهرية، فى نفوس الكثيرين خاصة النساء، وتزايدت حالة التنافس بين الجميع، الكل يحاكى الكل، ويتجسس عليه ليعرف ما الجديد لديه فى الديكور والمطعم والمشرب والملبس والسيارات وفرشها وقطع غيارها ومختلف أدوات الزينة.. كل شخص يريد أن يتغلب على الآخر..

- عندك كم كرافتة؟

- عشرون

- لا.. أنا عندى خمس وثلاثون

- عندك كم بدلة شتوى؟

- عشرة

- عندى تسعة عشر

-. وكم صيفى وسفارى؟

- عدد بسيط .. اثنى عشر

- عندى ثمانية عشر

أصبح هناك ما يشبه المسابقة الضمنية، من يأكل أكثر وأغلى؟.. فهذا أكل بالأمس حماما، ويقول له الآخر: اكتفيت بالبط والثالث كان معزوما على كباب والرابع يضطر أن يقول: الظروف لم تكن مواتية بالأمس، كان عندنا ميت، فرضينا بالفت وفخذ الخروف، أما المسكين الخامس فموظف بسيط لم يأكل غير ملوخية بالأرانب.

هناك أشخاص معروف عنها أنها لا تلبس إلا من باريس ولندن وآخرون لا يلبسون إلا من نيويورك وروما وغيرها من مدن الموضة ويتبادلون ذكر أسماء المحلات الأجنبية، وهذه الفئة لا تقل عن عشرات الألوف، حذاء الواحد منهم بألف دولار من لندن، والآخر قميصه بثلاثمائة من باريس، والعطر الذى يغرق وجه هذا بخمسمائة من روما، وهذا الزوج من الجوارب لقطة بمائة دولار من مدريد.

عشرات الألوف من الأسر تمتلك كل منها خمس سيارات على الأقل للمواصلات الشخصية، عدا المخصص للنقل ولزوم التجارة.

الأرصفة غطتها المحلات بالبضائع وأنهار الطريق تزدحم بالسيارات والبشر لا يجدون طرقا للسير، فينزلون أحيانا لنهر الشارع ويتعثر المرور فترتفع آلات التنبيه تعبر عن انزعاج أصحاب السيارات من الكائنات العابرة التى تمنع انطلاقها، وتضطرهم لتخفيض السرعة، لذلك فسائقو السيارات فى مصر يعانون كثيرا.

هل ثمة ما يتبقى بعد ذلك للادخار والاستثمار ومعاونة المحتاجين ودعم الجمعيات الخيرية، وهل تترك اعلانات التليفزيون ما يتبقى حتى لدفع الضرائب المستحقة على هؤلاء الاثرياء الذين يفضلون التهرب.

والاستهلاك والانفاق ليس قاصرا على السلع، بل يمضى إلى النساء، مادامت هناك أموال .. بعض الرجال يتزوج أربعة انه يحصل على كل حقه الشرعى، وأخيرا سمعنا عمن تزوج بإحدى عشرة خلال عامين!!!!

الأغنياء يشترون كل شئ حتى لو كان فى أقاصى الأرض، ويطلبون مايشتهون من البرازيل وأندونسيا أو استراليا بالتليفون، يكون فى الحال بين أيديهم، وانتهت تماما أسطورة مصباح علاء الدين ومارده الجبار خادم المصباح.

الأغنياء يشترون لأنهم يملكون، فماهو موقف محدودى الدخل؟ لقد صبروا بعض الوقت فلم يتحملوا المناظر التى تحاصرهم، وكلها تساهم فى تشكيل المشهد الدرامى حيث يتبادل الأغنياء عينى عينك ألوان الرخاء والهناء واللهو وكافة ألوان المتع. والمحلات تعرض كل شئ فى صورة بهية ومشرقة، والتليفزيون يواصل مهمته ومهرجانات التسوق تعلن عن آلاف الاصناف واعلانات فى الصحف عن شقق مخفضة لا يزيد ثمن الواحدة منها عن عدة ملايين، وشاليهات تطل على الماء الأزرق الذى يتراقص بلا نهاية فى البحار الشمالية والشرقية.

اضطر محدودو الدخل إلى النزول إلى البحر.. المدرس لم يجد أمامه إلا أن يفتح دكانة للدروس الخصوصية، والموظف لا يستطيع أن يرتشى .. ضميره ربما لا يوافق.. إذن فلا بأس من البيع والشراء.. يمكنه أن يتاجر فى أى شئ، وليكن الكراملة، والعسلية، ثم أصبح يبيع الألعاب الصينية وانتقل إلى القمصان والبنطلونات ثم العطور وأدوات الزينة.. موظف ثان لا يعانى من ضميره تصرف فى العهدة الموكلة إليه إلى حين موعد الجرد، ليست هناك مشكلة، عند الجرد يمكنه أن يحرق كل شئ، موظف ثالث

وجد أنه لابأس من بعض الرشوة وتقديم التسهيلات ورابع اكتفى بنفاق المدير فهذا وحده مصدر رزق اضافى جيد ولا ينتهى، سوف يحصل على ساعات اضافية وحوافز، موظف خامس استطاع أن يسرق بعض الأشياء من المكاتب، وسادس اختلس من السلفة المستديمة أو الخزينة، السابع متدين لا يقبل أن يستغل وظيفته لأى استفادة كما أنه لا يفهم فى البيع والشراء، بحث عن وظيفة أخرى بعد الظهر، يخرج من الأولى إلى الثانية، الثامن كان حظه أفضل يخرج من الأولى إلى الثانية إلى الثالثة، التاسع هو الأخر والحمد لله شريف عمل مع أخيه مبلط أو مبيض محارة والعاشر يغسل السيارات فى الصباح الباكر ثم يرجع إلى بيته ويلبس ملابس الوظيفة ويمضى إليها.

موظف آخر يخلص مصالح ويساعد فى أعمال السمسرة، وغيره يتاجر فى المخدرات وغيره يقف فى دكان والده طول الوقت ويترك مرتبه لرئيسه وزملاءه، وموظف آخر يعمل بالتزوير وغيره يؤسس شركة وهمية لتسفير راغبى العمل بالخارج وآخر يفضل الشحاذة.

كل هذه الجهود الخرافية من محدودى الدخل للحصول على دخول إضافية ليست لأن المرتب لا يكفى، ولكن لأن البعض رأى الناس جميعها تشترى وتمتلك وتنسف القديم وتركب الجديد، ثم تنسف الجديد وتركب أحدث. فقرر أن يقلدها ويجاريها.

لم يعد هناك تطبيق للمثل القائل:على قد لحافك مد رجليك ولا «التدبير نص المعيشة» ولا حمارتك العرجاء تغنيك عن سؤال اللئيم بل وانتقل الموظف إلى أسوأ المواقف وهى الاستدانة، وهى هم بالليل ومذلة بالنهار وفتحت المحلات شهيته و«لا يهمك».. نظام التقسيط المريح جاهز لعدة سنوات.. أصبحت حياة محدودى الدخل كلها أقساط، هناك من دفع المهر بالقسط واشترى الأثاث بالقسط والمحمول والتليفون العادى والسيارة والشقة والأجهزة، والملابس والأحذية والأكل أيضا، كله بالقسط

وهو مطالب بعد هذا أن يتصرف ليسدد الكمبيالات، ولما لم يستطع أن يسدد تلفت حواليه، فهناك أخ يعمل فى البلاد العربية ويأتمنه على ماله ماذا لو أخذ منه وأخذ وليحدث بعد ذلك مايحدث، أو ميراث بعد وفاة الوالد، ماذا لو أكل مال أخيه أو التهم بعض حقوق أخته، ماذا يحدث لو زور بعض المستندات واستولى بها على ما لا يحق له، وماذا فى ألا يدفع ماعليه، وليضرب الدائنون رؤوسهم فى الحائط، إن لديهم الكثير.

فجأة تجد الموظف لايريد أن يستخدم سجائر الكليوباتره المصرية، إنها ليست من مستواه، وعليه أن يدخن الفرنسية أو الأمريكية.. سجائر فاخرة من إنتاج دول فاخرة، وقضية السجائر تثير تساؤلات عديدة، فنسبة التدخين فى مصر تفوق تقريبا كل النسب العالمية للتدخين، والتدخين من الظواهر العديدة التى تنتشر فى مصر، ويختلف بها الشعب المصرى عن غيره من الشعوب، ومعظمها ظواهر سلبية تكبح انطلاقه نحو الصعود، والمشكلة الغريبة أن هذه الظواهر لا يقترب منها أحد، وإذا اقترب تظل مقاربته دراسة نظرية أو ميدانية لكنها محجوزة فى الورق ومحبوسة فى الأدراج، ولوأرسلت إلى المسئولين، لم يعرها أحد اهتماما، ويقول بعض التنفيذيين:

- هذه الحلول نظرية، ولا يمكن تنفيذ إلا ١ ٪ منها.

وهكذا يبقى كل شئ على ما هو عليه.. ولقد علمت أن لجنة الصحة بمجلس الشعب برئاسة الدكتور شريف عمر طالبت بوقف الاعلان عن التدخين فى الصحف ووسائل الاعلام مرتين، مرة فى عام ٩٣ وأخرى فى عام ٩٦ وفى المرتين رفض المجلس.. لماذ؟ لأن الصحف تحصل على دخل كبير من الاعلانات .. إن الاعلانات مهما بلغت لن تزيد على عشرين مليون، فى حين أن السجائر تبلغ تكلفتها هى وعواقبها نحو ٣٥ مليار.. تصوروا النسبة، فضلا عنّ أنها تخلف لنا شبابا هشا ورجالا جوف تقل كثيرا قدرتهمُ على العمل، ناهيك عن تأثير السجائر على الصحة

والجريمة وجلب المخدرات.. لأن السيجارة هى البداية الملكية لمعظم ألوان الفساد، من اغتصاب وسرقة ومخدرات وقتل وبعض مشاكل الأسرة.

- الشعب المصرى يدخن خمس سكانه بمافيهم الرضع (١٣ مليون مواطن).

- لو فرضنا أن الطاقة العاملة من الرجال ٣٦ مليون، إذن فإن المدخنين٣/١ الطاقة، ولو نظرنا إلى حقيقة مؤكدة تقول إن ٤٣ مرضا تصيب المدخنين، منها ٢٥ مرضا قاتلا.. فهذا يعنى أن ثلث الطاقة في خطر والثلث الثانى مشغول بنفسه ومقصر أو بيروقراطى أو قليل الانتاج، ويبقى الثلث نعقد عليه الأمل.

هذا الثلث المدخن يستهلك مائه مليار سيجارة فى السنة، ثمنها خمسة عشر مليارا من الجنيهات، ومثلها تكاليف علاج ومثلها نقص فى الانتاج.. هل هذا معقول؟؟

استهلاكات كثيرة وعجيبة تزداد كل يوم وتتنوع فى شكل نزيف كبير حكت لى زميلتى فى العمل أنها زارت يوما إحدى جاراتها فى نفس العمارة وهى موظفة بسيطة وكذلك زوجها، وكانت المريضة تنام فى غرفة ابنتها الوحيدة، تقول الزميلة.

- فوقعت عينى دون أن أتعمد ذلك على صفوف (أى والله صفوف) على الأقل عشرين زوجا من الأحذية وكلها لابنته التى لا تزال طالبة فى أحد المعاهد العالية.

بعد الاعلان عن فتح باب الانفتاح نسى الجميع الدين والأمثال الشعبية والحكم والقيم والأعراف والذوق والحياء والمحبة والتكافل ورعاية حق الجار والأسرة، والقوا بأنفسهم فى آبار الاستهلاك العميقة.

تريد إحدى الزوجات غسالة تبلغ زوجها بحاجتها إليها، لا يملك المال. يذهب إلى أمه، يطلب منها. ترفض. يقتلها، يأخذ ما يريد ويشترى

الغسالة.. ويحاول أن يغسل بها يديه الملطختين، لكنه لا يستطيع أن يغسل، ويتكشف الأمر لرجال الشرطة، ويدخل السجن. يتشرد الأولاد.. عادى.

شخص يريد أن يمتلك سيارة، يسرق سيارة ولعدة أيام يتنزه بها ثم يفكها ويبيعها أو يرميها ويسرق غيرها، أو يبيعها ويشرب بثمنها كحوليات أو مخدرات .. عادى.

معظم الناس قطعوا الأحبال السرية التى تربطهم بأى تقاليد أو عقل أو عرف ..

أخذوا حرياتهم وانطلقوا يستهلكون «ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون» الحجر٣

«وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها، فحق عليها القول فدمرناها تدميرا» الاسراء ١٦.

«وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولاتبذر تبذيرا، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين» الاسراء ٢٧.

«ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا» الاسراء ٢٩.

«ولا تمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه، ورزق ربك خيرا وأبقى» الحجر ٨٨

«والذين إذا انفقوا لم يسرفوا وكان بين ذلك قواما» الفرقان٦٧

وهنا نتساءل.. أين رجال الدين والوعاظ وخطباء المساجد من هذه القضية الأساسية، بل التى أتصور أنها أس كل بلاء يجرى على أرض هذه البلاد. شهوة الاستهلاك هى التى ستدمر الأمة والأفراد قبلها ولن تسمح على الأقل - بالتطلع إلى المستقبل لأن «ثقل» ضخم يرهق العربة ويدك عجلاتها فى الأرض ولن يتيح الفرصة للانطلاق.

إن ثمة أسبابًا لتفشى حالة الاستهلاكية المرضية وأسهمت فى هشاشة المجتمع وتحويله إلى ثمرة ناضجة توشك على السقوط، من ذلك مايلى:

١. ارتفاع الدخول بشكل عام.

٢. عمل الرجال فى عدة وظائف فى حين أن هناك بطالة.

٣. السفر للعمل بالخارج.

٤. التقليد والمحاكاة.

٥. التفنن فى الإعلانات ومنحها الاعتبار الأول لدى الصحف والتليفزيون.

٦. أساليب الإغراء والتحريض على الشراء.

٧. التقسيط.

٨. استسهال الجميع العمل بالتجارة وبالتالى لابد من التسويق.

٩. حرق الاسعار.

١٠. فرص الاقتراض.

أما عن النتآئج التى يفضى إليها هذا الاستهلاك المرضى فهى:

١. انعدام فرص الادخار

٢. تضاؤل الاستثمار المحلى.

٣. عجز الميزان التجارى.

٤. تضخم الواردات.

٥. انخفاض سعر العملة المصرية.

٦ـ زيادة القروض وفوائدها.

٧ـ إتاحة الفرصة لزيادة رؤوس الأموال الأجنبية.

٨ـ التحكم والتدخل فى سياسة البلاد وتوجيه مصالحها.

٩ـ عجز ميزان المدفوعات.

١٠ـ كم هائل من القمامة وتلوث البيئة.

١١ـ كم هائل من المنازعات.

١٢ـ تضخم الجرائم كما وكيف.

١٣ـ إغراق الأسواق المحلية بالسلع الأجنبية.

١٤ـ كساد الصناعة الوطنية القائمة بالفعل.

١٥ـ تراجع فى السلامة الصحية للمواطنين.

١٦ـ مزيد من البطالة.

١٧ـ التفكك الأسرى.

١٨ـ تعذر قيام صناعات جديدة قوية.

١٩ـ حيرة وعجز الأجيال الجديدة.

٢٠ـ تزعزع الانتماء والقيم.

يكفى أن ننظر إلى صورة أى مدير فى مؤسسة أو رئيس هيئة، أو من يتولى سلطة فيها أموال أو مدير بنك لتلاحظ آثار النعمة الثقيلة إلى حد التورم، وبعضهم تزيد عليه النعمة قليلا فتدفعه إلى حد الاختناق، وتعرضه للإصابة بالقلب والضغط والسكر والذبحة الصدرية والسكتة الدماغية وغيرها ، ومطلوب طبعا علاجه بالخارج على نفقة الدولة،

والبعض يحسب أن ذلك من كثرة المجهود وربما تكون الفياجرا هى السبب، لكن البعض يتصور أن السبب هو خدمة الوطن وهذه ليست دائما الحقيقة، لأن الذى أضر به هو تلك النعمة الثقيلة التى لا يستطيع منع نفسه عنها.

أما أفراح الاغنياء فأفقرها ما بلغ المليون، ومنها ما يضاعفه إلى العشرة.. هل سيزوج الثرى ابنه كل يوم، ولابد أن تكون ذكرى جميلةيعودون إليها كل حين.. ليروا كم كان الأب كريما.

هل رأى أحد ممن سافر إلى الخارج أولادا فى الشوارع يحملون الموبايل!. ليس فى الدنيا إلا مصر التى يحرسها الله، ولازالت باقية بالقدرة وحدها.. بعناية الله وحدها.. وأجبنى أيها القارئ ما السر فى أن الحى الذى أسكنه به كل عشرة أمتار كشك تليفون بالكارت.. شئ غريب ومستفز.

وانظر - رعاك الله - إلى الاعداد الغفيرة التى تذهب للحج والعمرة كل عام .. ثلاثة ملايين للعمرة خلال عشرة شهور فى السنة وربع مليون حاج ينفقون أكثر من خمسة عشرة مليارًا وياليتها تعود بفائدة.. على العكس، الخسارة مضاعفة، لأن الذين يسرقون ويرتكبون الأثام يذهبون للعمرة والحج فربما يمكن غسيل الذنوب، ولكنهم يعودون وهم واثقين من أنهم أطهار، فيقبلون أكثر على الذنوب ويضطرون بعد ذلك لزيادة عدد العمرات ولابد من الحج، وهكذا فى كل عام تخرج أكبر بعثة حجاج فى العالم الاسلامى من مصر وكذلك كل العمرات.

الشعب المصرى الآن منظومة بشرية عجيبة، لا تشعر فى رحلتك مع سلوكياته بأن هناك تعليم أوثقافة أو عقل أو شيوخ أو مساجد تعظ وترشد أو حكومة تتخذ أى قرار أو جهة عليا توجه وتحدد وتنظم.

أليس فيكم رجل رشيد يقول

- أن هذا .. إذا لم يكن جنونا فهو كفر وعمل محرم.. وضلال.

رئيس الشركة الأجنبية فى الشتاء يرتدى بلوفر وفى الصيف يرتدى فانلة وشورت وصندل، ويأكل أشياء بسيطة ويعمل ١٢ ساعة وأسرته تشترى بعددها حبات من التفاح أو البرتقال ومثلها من قطع اللحم ونصف كيلو خضار مسلوق وكل فرد أربعة ملاعق أرز وطبق السلاطة.

إننى أثق فى فطنتك - عزيزى القارئ - فدعنى أترك لك المقارنة، ليتعرف على حجم الكارثة، خاصة عندما تتمشى خطوات حتى صندوق القمامة الكبير لتجد أن نصفه على الأقل عبوة عدد كبير من الأوانى من الطعام الذى ألقاه أصحابه لأنهم لا يأكلون نفس الطعام فى اليوم التالى.

رئيس وزراء سويسرا يذهب إلى عمله بالدراجة، ويجلس على منضدة صغيرة فى حجرة عادية، وتأمل ما ينفق عندنا من أموال على تجديد مكتب رئيس هيئة أو وكيل وزارة أو وزير طبعا.. إن ملايين الجنيهات تنفق يوميا على بناء وتأثيث مبانى حكومية وتجهيزها بأحدث التجهيزات العالمية.

إن الكروش الضخمة والملابس الفخمة والسيارات الفارهة والمبانى والقصور المزينة بأثمن التحف وأغلى السجاد والثريات لن تساهم فى إقامة دولة متقدمة .. المطلوب فقط أن تنتبه العقول لما يجرى، ولكى تنتبه لابد من تخفيض الاستهلاك على الأقل إلى الربع.. البطن المملوءة لن تسمح للعقل أن يفكر فى أن يفكر.. أين هى الفرصة المتاحة - مع كل هذا الإهلاك للعلم والثقافة والابتكار والاختراع..

تدفع نفسها إلي ذاكرتي رغما عني، أبيات من قصيدة للشاعر الألماني «هاينى» عنوانها «عام ١٨٢٩» يقول فيها:

إنهم يأ كلون ويشربون فى عجلة وشراهة

ويتيهون اختيالا وغباء كالطواويس

وكرمهم واسع وكبير

أوسع من ثقب مفتاح صندوق الفقير

إنهم يختالون وفى أفواههم سيجار

وفى أيديهم السمينة تلمع كريم الأحجار

ومعداتهم ضخمة وقوية

ولكن من ذا الذى يستطيع أن يهضم هؤلاء السادة الكبار



إنهم يتاجرون فى العطور، لكن الهواء من حولهم

وآسفاه معبق بشئ مختلف تماما

حتي أنفاسهم تدنس الطرقات

وتفسد جوها بروائحهم التى تشبه زفارة الأسماك

آه لو كانوا يتمتعون ببعض الرذائل الإنسانية

بشهوة مخيفة لشئ أو لقضية

لا لهذه الفضائل المترهلة المسترخية

ولا تلك الأخلاقيات الرخيصة المزركشة البهية

الرضا .. أساس الأمان

الرضــا شــعــور ينبع بداية من الإيمــان بأن الله هو الرازق والـراعى والحافظ، وأن على الإنسان أن يخلص المسعى باذلا أقصى جهد دون أن يتجاوز الحدود ويحطم الأسوار ويخرق القوانين ويقتحم الآخرين ويستولى على ماليس له، لأن الله فى هذه الحالة لن يقف معه.

ويرى البـعض أن الرضـا حـالة من الركون والكسل وايثـار الدعـة والراحة اعتمادا على أن الله جاب الله أخذ، الله عليه العوض، والحقيقة أن هذا الفهم غير صحيح، لأن الرضا يقصد به ألا تنطح الصخر طلبا لهدفك، ولكن ألا تكل فى طلب حقك ورزقك، على أن توقن بأن لمسعاك حدود، ولا يتعين أن تقف قبل هذه الحدود.

صـيادان للسمك، يصطادان بشـبكتيهـمـا.. أحـدهمـا أخرج الكثيـر والآخـر لم تحـمـل شـبكتـه إلا القليل، وحل المسـاء وآن أوان العـودة، فـهل يرضى صاحب القليل أم يضـرب الثانى ويأخذ سمكه أم يتوجه إلى الله طالبا أن يخرب بيت من نال الكثير، أم يلعن السمـاء التى تحيزت ويندد بالظلم؟؟

أولا عليه أن يرضى بالقليل ويحمد الله،، ثانيا: أن يبحث عن السبب فلابد أن ثمة خطأ أو عيب، قد تكون الشبكة ممزقة، وقد يكون موقعه

غير مناسب، وقد تكون بدايته فى النهار متأخرة، وقد تكون خبرته فى رمى الشبكة قاصرة وقد.. هذه هى الحياة وهذا هو الرضا،أما مايحدث من البعض وهذا البعض يتزايد كل يوم، بأن يحقد أو يخطف أو يلقى المتفجرات فى البحر ويرغم السمك على ركوب شبكته أو الموت إلى غير ذلك، سلوك يتنافى مع فلسفة الحياة وطبيعتها.

إن الصراع ليس هو السبيل لطلب الرزق وإنما الكفاح والسعى والتفكير فى أساليب هذا الكفاح وتطويره بما لا يجور على حقوق الآخرين، لأن حقوق الآخر يجب أن تكون مقدسة.

بعد اطلاق سياسة الانفتاح المباركة حدثت حالة من الاندفاع نحو الامتلاك والحصول على المال بكل الطرق.. المشروعة وغير المشروعة ولقد أجهد طالبو الامتلاك أنفسهم وأبدانهم ولم يعبأوا بما أصابهم فقد كانت أعينهم مصوبة فقط على الأهداف، وواصلوا هذا النهم الغريب الذى لا نحسب أنه حاق بدولة أخرى.

كان نجم هذه السياسة الأول والفاتح الأعظم فيما نعلم توفيق عبد الحى الذى استورد ملايين الصناديق من الأغذية الفاسدة وخاصة الدواجن، وقام بنبل غير عادى بدعوة الشركات التى كانت على وشك إعدامها كى لاتقدم على هذا القرار القاسى، وتعهد باستئجار سفن تحملها جميعها إلى شعب مصر البطل حمال الأسية، ليفدى بروحه البشر جميعا ويتناول هو عن طيب خاطر هذه الأغذية، أولا: عملا على تحسين المركز المالى لصاحب المشروع وثانيا: لمنع تداول هذه الأغذية فى البلاد الأجنبية فينتشر الأذى وثالثا: لملء البطون الجائعة والتى يعتقد البعض أنها تقرم الزلط.

حمل عبد الحى الرسالة إنه كان ظلوما أنانيا جشعا، ولعل قلبه لم يعرف يوما ذرة من الرحمة، فمضى يستورد ويقدم نفس الخدمات للشعوب الحائرة التى لاتعرف كيف تتصرف فى أغذية متعفنة عرضوها

على الكلاب فارتفعت عن الأرض عاليا ثم سقطت دون أن تفتح فمها بكلمة ودون أن تهتز فى جسمها شعرة.

وسار على درب عبد الحى عشرات آخرون، بعضهم تفوق عليه وبعضهم جدد وطور، لكنهم جميعا حاولوا أن يكسبوا عن كل مليون يدفعونه عشرات الملايين، وليس مهما ماذا يحدث للمصريين، لأن الأعمار كما يعلم الجميع بيد الله، وإذا لم يكن هذا موعدهم فكل دجاج الدنيا لن يؤثر فيهم.

المشكلة ليست فى الموت، ولكن المشكلة فى الحياة، فالمصابون بعشرات الألوف، بل بالملايين.. مصابين بالفشل الكلوى. والفشل الكبدى، وبجميع فيروسات الدنيا. والمستشفيات لا تستطيع أن تسد على المرضى.

ولأن تلامذة ومريدى عبد الحى زاد عددهم حتى يصعب على الحصر وانتشروا فى الأرض المصرية وانتقلوا إلى التجارة والصناعة وتمويل المدارس والمؤسسات بالوجبات الساخنة والباردة، وقاموا بدور غير مسبوق فى إعادة تشكيل وصياغة أى منتج ، وتجهيزه فى الحال لمن يريد وبأى كمية.. آخر التقاليع أن الطلب زاد على الزيتون الأسود No - problem بعض التجار عندهم زيتون أخضر، اشتروا مادة سوداء اللون ودهنوا الأخضر أصبح أسود على الفور وبيع الزيتون الأسود المعدل.

الموبيليا والمواد الكيمياوية والمعادن وأدوات الزينة لاشئ يستعصى على الغش، لأنهم وطنيون وقرروا أن يحاربوا الصناعة الأجنبية وأن يقيموا صناعة محلية بطريقتهم.

هل سمع أحد عن حديد مسلح يتكسر وأسمنت لا يتماسك ولو بدا عليه ذلك، وللأسف فإن الصناع المصريين لا يستطيعون غش الرمل والزلط لأنه من الطبيعة الكريمة مباشرة ويستخدمان بحالتيهما، وهاهى العمارات التى بنيت منذ عشرات السنين لا تزال قائمة تزهو بأخلاق أصحابها

ونزاهتهم، أما مبانى اليوم فتسقط قبل أن تسلم لساكنيها، ومنها ماهو قطاع عام، وعدد من الجسور تشقق وتصدع قبل استعماله، لأن المهندس لا يعنيه أن يتأكد من سلامة البناء.. المهم أن يجد وقتا لعد النقود، ولا داعى للانشغال بمسألة أن تسقط العمارات أولا تسقط، ولا تفسد اللحظات الطيبة التى يستمع خلالها لأغانى المال، وتذكرة، بالأسر التى يمكن أن تدمر، والأطفال الموشكون على اليتم وعديد المآسى.

قطع غيار السيارات، السيارات التى تحمل الأرواح مغشوشة، المهم أن تباع جميعها فهى رخيصة، وليس مهما مايحدث بعد ذلك، المهم أن يقبض صانعوها وموزعوها عوائدها الكثيرة ليلحقوا برجال الأعمال الكبار والأثرياء العتاة، والوزراء ويحجز معهم فى مارينا ومجاويش والساحل الشمالى ويركب مايركبون ويغوص فى نفس المياه التى فيها يغوصون.

كان الغش فى الماضى نادرا وقد سمعنا عن غش اللبن، ولا أذكر أن أحدًا غش شيئا آخر حتى أواخر السبعينيات من القرن العشرين اللهم بعض الحالات من غش فى الامتحانات وبعض الباعة الصغار الذين يدسون لك فى الأكياس ثمار الفاكهة الفاسدة مع السليمة، والأمر كله كان منوطا بقدر من تنبه المستهلك، وكل شئ يمضى على نحو طيب ومأمون والنفوس لا تلهث، والعقول لا تتوتر.. والايقاع نسبيا هادئ، أو يعلو دون طفرات.

وبدءا من عام ٧٥ تسارع الايقاع، واندفع التجار والصناع يبتكرون الغش والإفساد والسرقة، وسبقهم المسئولون والمديرون ووكلاء الوزارات وكذلك رجال التعليم والمحامون، وكل فئات الشعب تقريبا تحاول الحصول على الأموال، لأن الدعوة كانت واضحة،، دعوقغير مسئولة،، من لم يحصل على المال فى عهدى فلن تتاح له الفرصة بعد ذلك.. وصدرت الأوامر للبنوك بإقراض أكبر كمية من المال لأكبر عدد من الناس بل لقد كانت البنوك تتنافس فى الإقراض..

بعض الناس يقترضون دون أن يعرفوا لماذا يقترضون.. يستمتعون بالمال المسحوب والمنهوب، ثم بعد ذلك يتصرفون فى مسألة السداد.،. فيتهربون أو يقترضون من بنوك أخرى لسداد البنوك الأولى، أو يتاجرون فى أى شئ ويفشل، أو يستوردون والناس تشترى أى شئ دون وعى، ولا حساب.

واضطرت النساء للنزول إلى الأعمال والمشاركةفى التجارة وفتح البوتيكات وأصبح الآباء جميعهم خارج المنازل، وتركوا أولادهم للخادمات، ثم سلموهم للمدرسين وتفرغوا هم لجمع الأموال.. إنهم يبذلون كل وقتهم وجهدهم لخدمة أبنائهم ولا يقصرون أبدا، والتزم المدرسون بنجاح التلاميذ.. وحتى لو لم يشرحوا لهم شيئا فسوف يعاونوهم فى الامتحانات خاصة سنوات النقل، لأن الأولاد بدورهم لا يذاكرون اعتمادا على أن معظم الوقت متروك للمدرسين ليصبوا فى رؤوسهم المعلومات، وليس مهما أن تبقى المعلومات، فسوف يقوم المدرسون بالتصرف، والمدرس من ناحيته طمعا فى المال ودوام رضا التلميذ لا يكلفه بواجبات ولا يرهقه، بل لا يحاول أن يلومه أو يغضبه، وإذا أساء لزميله لا يثور للأخلاق والحق.. فقد يطلب التلميذ تغيير الاستاذ،، وفى المدرسة مهما أخطأ الطالب فمن يعاقبه.. الناظر نفسه ينوبه نصيب من الكعكة سواء كانت دروس خصوصية أو مجموعات.. منتهى الإذلال والمهانة.. وهذه النماذج هى التى تشارك فى تمثيلية التعليم وتحاول أن تدفع الأولاد للخروج من المدارس غير متعلمين ولكنهم ناجحون فى الامتحان، ويصبح الصبية شبابا تعتمد عليهم البلاد وهى تسعى نحو التقدم بوصفهم بناة المستقبل.

يخرج نفس الطالب ليمارس اللعبة فى الحياة، محاولة الحصول على مايشاء بالغش والكذب.. بالزيف.. بكل الوسائل إلا بذل الجهد.. يكفى الجهد المبذول للبحث عن وسيلة الغش.

يتاجر البعض فى البهائم فيحشوا بطونها قبل البيع بنشارة الخشب حتى تشرب الماء ويزيد وزنها، ويستخدم الملح أيضا لنفس الغرض، أما

الدواجن فتربيتها لاتعتمد على العلف والمركزات، ولكن الأفضل أن تتناول حبوب منع الحمل التى حاولت الدولة توفيرها للنساء بسعر زهيد لتنظيم النسل، كما يستخدمون النشا ومسحوق العظام والأسماك وغيرها حتى تسمن الدجاجات بسرعة.

ابن صديقى مدير لمصنع مشهور للشيكولاته، قلت له فى مرة:

- طبعا أنت وأولادك غارقون فى الشيكولاته، تفطرون منها وتتعشون اندفع يجيبنى كأننى أطعنه فى شرفه

- مستحيل.

- لماذا؟

- لأنى أعرف كيف ننتجها.

- إذن تأكل شيكولاته من شركات أخرى.

- مستحيل طبعا

- لماذ؟

- لأن الجميع يرتكب نفس الجرائم.

لا عجب.. فالمصريون عباقرة.. يغشون الذهب والفضة حتى الميلامين والتيفال ويغشون الأقلام الجافة والبنزين.. لايستعصى عليهم شئ.

أعرف مدرسة ابتدائى.. .. قررت أن تتوسع فى اعطاء الدروس.. فاشترت سيارة وتركت بيتها وأولادها بعد أن كانت تعطى الدروس فى بيتها وإلى جوار أولادها.. وأخذت تدور على البيوت.. وترتكب حوادث الاصطدام وتأخذ مخالفات، مرة للدخول فى الممنوع، ومرة لعدم استخدام الحزام، ومرة لاستخدام المحمول، وزوجها ثار دون جدوى ، ورسب أبناؤها

وأخيرا ترك زوجها البيت، وأدمن الولد الكبير، واضطرت أن تزيد عدد البيوت التى تذهب اليها لاعطاء الدروس. ولما حاول والد أحد التلاميذ بعد أن وزع ابنه الاعتداء عليها أصيبت بصدمة وهى الآن فى بيتها تعالج من إصابات بساقها وذراعها وفكها بسبب سقوطها وهى تفر من الاغتصاب.

لماذا كل هذا؟ .. الاجابة ببساطة هى نقص الإيمان بالله.. لأن الله هو الرازق، وحتى لا يتهمنا البعض بأننا نرد كل شئ إلى الله ونحن بهذا نفخر ونعتز ونشكر .نقول إن السبب الانسانى هو عدم الرضا، وتغلغل الطمع والجشع مع أن لكل شئ ثمن أو ضريبة وسبب آخر هو الجهل، لأن الذى تستدرجه نفسه لهذا الطريق المدمر والثقيل والمرهق جاهل بمعنى الحياة، وغافل عن معنى السعادة، ولا يعرف كيف يفيد بوقته الفائدة المتوازنة المبهجة .. الفائدة التى لا تجنى عليه، وهو جاهل لأنه يتصور المال هو الإلاه الأعلى للوجود، وهذا فهم الأغبياء.. ومقتلهم أيضا..

المال مهم جدا ووسيلة لازمة لحركة الحياة والانتاج وتوفير الضروريات والكماليات وغيرها، لكن ليس إلى درجة تبديد العمر والوقت وإفناء الجسد وقتل الروح وتجفيف القلب.. فمتى أضحك وأجلس مع الأحباب، ومتى أمارس رياضتى ومتى أداعب أولادى وأعلمهم، وليس أفضل منى لذلك.. وكيف أؤدى واجباتى الاجتماعية وأشارك أهلى وأقاربى أفراحهم وأتراحهم ومتى أقرأ وأشاهد التليفزيون والسينما والمسرح ومتى أقوم برحلاتى السياحية والثقافية.

ليس من شك أن المصريين على مدى ألف سنة قاسوا الحرمان ونقص المعروض لهم من الخيرات والمحاصيل، وكانت فى الأغلب حكرا للأثرياء ورجال الحكم وحاشيتهم، ولكن ثمة سؤال ساذج يسأله دائما أمثالى: ما لفرق بين من يملك عشرة ملايين ومن يكسب ألفين أو ثلاثة آلاف من الجنيهات شهريا.. لنفرض أن كليهما رب لأسرة مكونة من

خمسة أفراد، ألن يستطيع الثانى أن يعلم أولاده أفضل تعليم ويزوجهم ويساعدهم فى وضع أقدامهم على الطريق فى حدود انسانيةمقبولة وغير متوترة وغير استعراضية.. فلماذا إذن لايرضى رئيس مجلس إدارة هيئة أو شركة بدخله الشرعى ويحاول سرقتها ليجمع الملايين ويبنى العمارات ويشترى الأراضى ، ويقيم حفلة لزواج ابنه أو ابنته بالملايين.

هذه نفسها هى فكرة تسمين الدواجن.. بدلا من نموها على ثلاثة أشهر أو ستة عليها أن تنمو خلال،شهر ونصف على الأكثر وقباع ويشترى غيرها.. زيادة عدد لفات رأس المال خلال العام..

والسؤال الطبيعى: لماذ لا يقرأ هؤلاء العواقب، لماذا لا يخطر على بالهم النتائج.. الضرر. الاساءة. الفساد والافساد.. الخسائر. التخلف .. وقف الحال..؟

مليارات سرقها ونهبها الجشعون من عرق هذا الشعب الذى اعتاد النصب عليه، وكانت الحجة سابقا أن مص دمه كان قاصرا فى الأغلب على الأجانب، أما اليوم فالمصريون هم وحدهم المتخصصون فى شرب دمه وعرقه ولحظات سعادته التى ينتظرها من سنوات، والحكومة فى الحقيقة فى منتهى الطيبة والسلبية، وأحيانا متآمرة ومتواطئة وفى أقل القليل تفتح عينا وتغمض أخرى وتتظاهر بأنها لا تعلم ولا ترى ولاتسمع.. وكل المنافذ مفتوحة للهروب والمسئولون عن هذه المنافذ مشاركون فى المهزلة، ولو كانت هناك حرية لعمل مسلسلات تليفزيونية وأفلام لشاهد العالم أسوأ رجال الدنيا وهم يستنزفون كل خيرات الأمة وياليتهم يستثمرون ما ينهبون بخير الشعب وإنما يبعثون به إلى الخارج...

العار يتوج رؤوس كل من ارتكب وسهل وشارك وتواطأ وسمح وأغمض عينيه عن سرقة مال الغلابة وإن كل قرش أخذه محتال أو مسئول أو تاجر أو صانع غشاش أو دجال ومن معهم من المرتزقة سوف يلقون بسببه العذاب فى الدنيا والآخرة، وسوف يرون ذلك فى أولادهم وأحفادهم، ولن

تغسل مياه البحر وحمامات السباحة ولا حتى بحيرات اللبن والخمر الغارقون فيها ذنوبهم.

هل يحسب سارقو المال ومصاصو الدماء والغشاشون وكل أشكال وأعضاء فرق الجشع العالمى المصرى أن مانهبوه سينفعهم إذا وقفت قطعة دهن فى شرايين أحدهم، أو ورمت عيناه أو خسر كليةأو أصيب القولون أو سقط طفله مريضا.. ماهو شعوره يومها؟ هل سيرده عقله مباشرة إلى الحرام.. أم أنه نسى الموضوع.

إن ما يرتكب من جشع يتنافى مع الاخلاق ويفسد الحياة حتى على الشرفاء والبسطاء، لن يمر بلا عقاب، يقول الله فى قرآنه الكريم: «ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون» «الروم» (٤١).

ويكتفى الله ببعض الوخزات، لأنه كما يقول فى سورة فاطر:

«ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا»(٤٥)

ويستنكر الله سبحانه من يسعون إلى الموظفين والمسئولين ويطعمون الأفواه بالرشوة فى سبيل الحصول على حقوق الآخرين فيقول فى سورةالبقرة(١٨٨).

«ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون».

والحكمة الشعبية التى كانت تعرف أن ابن آدم مايملاش عينه الا التراب». لم تكن تتصور أنه يطلب تراب الأرض جميعها وتبرها، ولم تكن تتوقع أن يطلب مئات الملايين بالحرام.. وليس ثمة بأس إطلاقاً على رجل يعمل وينتج ويكسب المليارات بارك الله له فيها إذا كان قد أعطى كل ذى

حق حقه.. أعطى الخامات والعمال والآلات والبيئة والناس والله وأهله حقوقهم.. أما أن يرتكب فى أى مرحلة ظلما أو غشا أو تجاوزا أو ينتقص من أحد نصيبه فهذا ما لا يبارك الله فيه ولايرضى العباد عنه.

وإذا كان الله قد زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة فلم يقل، احصلوا عليها بكل الوسائل، بنهب مال اليتيم أو بالغش أو نشر الأمراض.. وبيع الأغذية الفاسدة للتلاميذ حتى يتسمموا وينقلوا للمستشفيات بين الحياة والموت.. لم يقل اجمعوها ببيع المخدرات حتى تقتلوا حاضر الأمة ومستقبلها.

عماء كامل يسيطر ويتحكم على بعض الناس، ويتصورن معه أن المال هو المعبود .. تعس عبد الدينار.. إنه أهم من الوالدين والاخوة.. أهم من القيم.. أهم من السمعة الحسنة والمحبة والاحترام، وأهم من رضا الله ورضا الأهل والجيران.. أهم من راحة الضمير.. أهم من السعادة التى يجدها فى عيون زوجته وأولاده.. أهم من الستر والصحة والعمل المتقن .. إ ن الرزق يعرف صاحبه ويعرف عنوانه وسوف يصل إليه حتى لو ترك بيته وذهب إلى استراليا أو فنزويلا.. فاجرى جرى الوحوش غير رزقك لم تحوش.

الرزق كما هو معلوم للبعض وغير معلوم للآخرين، هو كل ما تنعم به، البعض يحسبه بالأرقام فقط، أى قيمة الرصيد فى البنك وعدد العمارات ومساحات الأراضى.. الرزق موزع على الناس بالعدل، فأفقر الناس مرزوق بالضبط مثل أغنى الناس.. لأن الحساب تم اجراؤه على أساس.. المال والصحة والستر والحب والأولاد. صحتهم، أصدقاؤهم، مستقبلهم.. سعادتهم.. الزوجة الصالحة وحدها أكثر من نصف الثروة. العلاقة بالناس والله والمجتمع. العلم والثقافة.

وتحاول الحكمة الشعبية التى أبدعها أجدادنا بالتجرية والخبرة والتأمل التنبيه لأخطار الطمع فتقول:

«بيت النتاش مايعلاش» وتقول: مال الكنزى للنزهى»، وتقول» طمعنجى بنى له بيت فلسنجى سكن له فيه».

فكل مايجمعه عابد المال خاصة، إذا كان بخيلا فسوف يرثه مسرف يبدد ماورث فى مدة وجيزة، والأمثال تسخر من هذا الذى يضيع عمره فى جمعه بكل الوسائل دون أن يستمتع بحياته ويهنأ بوقته لحساب هذا المال المدخر بحجة أنه حماية من الزمن، أنت لا تعرف ماذا سيحدث لهذا المال.. لابد أنه سيغادر خزائنك بأسرع مما تتصور، وأخيرا تنصح الحكمة الشعبية عابد المال قائلة له: أن الذى لا يعرف إلا المال لن يكون له حبيب. ومن يتجاهل المال لن يكون له أعداء أبدا.

«حبيب ماله حبيب ماله، وعدو ماله عدو ماله»

مثل رائع السبك، جميل الصياغة، مزين بالجناس والطباق، بأقل عدد من الأحرف قدم لنا المعنى الكبير.

أما الخالق عز وجل فيقول لمن يتعللون بأنهم يجمعون المال لأولادهم وليتركوهم أغنياء لا يحتاجون لأحد «وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا النساء (٩)».

إن تقواك هى الحماية الأساسية لك ولابنك، إن أخلاقك وضميرك وعملك الطيب وإحسانك وحسن معاملتك للأخرين هى سلاحك وسلاحهم.. المشكلة الحقيقية ليست فقط فى أن الجشعين عباد المال يحاولون القفز من طبقة إلى أخرى مباشرة دون أدوات شرعية من تعليم وثقافة وجدارة ودون صعود السلم درجة درجة، ولكنها تكمن فى كونهم سيصبحون قدوة يحذو حذوها مئات الألوف من الشباب.

الدين

سادت فترة من الزمان خاصة النصف الأول من القرن العشرين لدى البعض مقولة ماركس وإنجلز «الدين أفيون الشعوب» وتعددت المواقف التى تثبت مصداقية هذه العبارة خاصة فى البلاد التى لا تحظى جماهيرها إلا بقدر ضئيل من الاستنارة، ونشط تجار السياسة على كافة المستويات فى استغلال النصوص الدينية للتأثير على العامة والبسطاء واستدراجهم للوقوع فى حبائل كلماتهم المعسولة ووعودهم الجاذبة والكاذبة، وترحيب الجموع التى لم تحصل قدرا كافيا من العلم أو الإدراك بحكم أحاسيسها الفطرية تجاه المنزل من خالق الأرض والسماوات واحترامها بل وتقديسها الثابت الذى لا يتحول تجاه الله، بكل من يذكر هذه النصوص ويفسرها على النحو الذى رتب له حقوقا على هذه الجموع، فتضطر للانصياع لما ينادى به المفوهون من التجار والمروجون لهم من المرتزقة والمنافقين.

وباسم الكلمات المقدسة وتحت ظلال الدين الذى قام هؤلاء التجار بلى الكثير من غصونه لحساب مصالحهم، استسلم العامة وتجاوب السذج مع دعاواهم وهادنوا وتنازلوا ورضخوا، وإذا هم بسحر التقديس ينحنون للمدعين كى يمروا وينهبوا.

لكن ذلك على أية حال جرى فى زمان مضى، ولم يعد حتى الجهلاء يسمحون له أن يحدث من جديد، ولا على أية صورة واذا كان قد حدث

فى بعض المجتمعات البشرية شبه البدائية المتسرية من الحضارة، الغارقة لاتزال فى التخلف بسبب تقصير فادح من قياداتها، وتعثر فى كم هائل من المشكلات القبلية، فليست النتيجة هى التنازل عن المقدسات أو التفريط فى دعوة الرسل والأنبياء والتملص من كريم عطفها على البشر الحائرين فى غياهب حيواتهم على الأرض، مضطربين بين الشياطين ودهاة البشر وليس هؤلاء إلا أولئك - الذين يمارسون ألاعيبهم فى غواية الناس وتطويع توجهاتهم صوب مصالحهم وطموحاتهم وأطماعهم.

وقد يدهش البعض لتعدد فكرة الدين ذاتها، فمن المفكرين من يتصور أنه ضد التقدم أو فى اختلاف دائم مع العلم، وأنه يكبح حركة الحياة، ومن يراه مقيدا لحرية الانسان، معوقاً لانطلاقه نحو اكتشاف نفسه والعالم، ومن يبالغ فيقول إنه عبء، ومن يلحد فينكر وجود الخالق وبالتالى يزعم أن الأنبياء لم يكن لهم وجود، ومن أدرانى أنهم كانوا موجودين.. وأن ثمة شخصًا يدعى محمد أو عيسى أو موسى كان بالفعل على قيد الحياة، وماهى مصداقية ماينسب اليهم من قصص، وخاصة أن أثارهم على النحو الذى بقى من حضارات مصرية أو صينية أو بابلية أو فينيقية أو اغريقية على ما اتسمت به من قبل - بوصفها فى الأغلب سابقة على أصحاب الرسالات.. إن مثل هؤلاء يميلون لإزاحة كل مايرتبط بالدين، من خالق أو إله ورسل وكتب ومايسمى باليوم الآخر، وربما يصدر عنهم ذلك كما صرح أحد الفلاسفة بأن من لا أراه ماديا وألمسه حسيا وأحاوره مباشرة ويحاورنى، فلا وجود له بصرف النظر عن حيل المنطق وفكرة الوجود بالعقل، فما ذلك كله إلا محاولة من البعض للتأثير على الآخرين وخلق عالم من الغيبيات العلية لبث أفكارهم فى روع السذج ومن ثم يتسلمون قيادهم وأرواحهم وفكرهم.

على أن الدين مهما تباينت وجهات النظر وتغيرت الأزمنة وتحولت الأفكار، يظل وبحق مدرسة تربوية ودنيوية وانسانية رفيعة، ويعد وبحق أيضا منظومة أخلاقية - وضعها من وضع الخلق - لا يستغنى عنها الانسان

مهما تذرع بالرؤى العبقرية والنظر الفلسفى والتأمل الفكرى، ولقد كان الدين خاصة فى عصور مابعد الأنبياء أقوى سند للانسان وأعز حماية لروحه ضد كل المحبطات والأعداء والأ وهام وكل أسباب اليأس والتعاسة، وماأكثرها، كما كان دعما حقيقياً للنفس الانسانية التى تواجه مختلف ألوان الظلم والعنت.

وليس المجال هنا ليسمح بالحديث عن الدين من ناحية دوره كدعوة لعبادة الله والعمل من أجل الدار الآخرة وهى حقيقة قبل كل حقيقة شأنها فى ذلك شأن الموت ثبوتا وتأكيدا، وإنما تقتصر مهمة هذه الصفحات على بيان رؤيتنا للدور الدنيوى للدين، ويتمثل فى حماية مسيرة الانسان ومؤازرته وشد عضده وتوعيته لمزيد من الإفادة بنصوصه فى ترشيد وجوده المادى والمعنوى الذى يزداد بالدين إيجابية، ويتمكن من أداء مهمته من أجل خيره وخير الأخرين.

ولايعنى هذا محاولة الفصل بين دور الدين دنيويا وأخرويا، لأن الأثر واحد، ولكننا آثرنا تحديد النظر له من الناحية الدنيوية، وبالتحديد دور الدين فى خدمة الانسان وتطوره، ونؤكد فى هذا الإطار أن الدين دافع ومحرض لمزيد من الحرية والعلم والتقدم والثراء والرفاهية، بل والاستمتاع باللذائذ والشهوات كما أنه منظم علمى دقيق للحدود بين البشر، وهذه النقطة بالذات كانت أحد أسباب تقدم الغرب على النحو الذى أوضحه الإمام محمد عبده بعد زيارته لبعض البلاد الأوروبية وقوله: لقد رأيت إسلاما ولم أر مسلمين، وعلى العكس فى مصر وبلاد العرب فهناك مسلمون (اسما) ولم أر فيها إسلاما «ذلك لأن العبرة بالسلوك وليس بالأقوال، بالفعل لا بمجرد التشدق بترديد الآيات.

فمن حسن المعاملة والديمقراطية يقول الله فى كتابه الكريم (سورة آل عمران ١٥٩) «فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظا غليظ القلب

لانفضوا من حولك، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله، إن الله يحب المتوكلين».

وفى سورة النساء(٢٦) يقول الغفور الرحيم عما يريده للناس والغرض من الدين: يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم».

فمن صالح الإنسان أن يطيع الله وأن يلجأ إليه، فالله لا مصلحة له عند الانسان بل العكس، وكيف نأخذ برأى إنسان ما مهما كان عبقريا ونتغاضى عن قول من خلقه، لذلك يقول الله فى سورة النساء(٥٩):

«يا أيها الذين آمنوا أطيعو الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الأخر ذلك خير وأحسن تأويلا»

وفى نفس المعنى يقول فى ذات السورة (٦٥) «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما».

سبحانه وتعالى ومن أصدق من الله حديثا ـ وما قدروه حق قدره، ولجأوا إلى غيره «أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل اليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق، فلا تكونن من الممترين»الانعام(١١٤).

«وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون». الأنعام (١٥٣)، ويقول «أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها» محمد ٢٤.

والعودة إلى الله وتقواه تسهم فى صلابة البناء وسلامة التوجه.

«أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين» التوبة١٠٩

ومن أجل ذلك أرسل الله رسوله وهو منهم يسعى لصلاحهم:

«لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم، فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم» التوبة ١٢٨، ١٢٩.

الرسول جاء ولا ريب بالهدى، فمن اتبعه يهتدى وذلك ليس لله ولا للرسول وإنما هداه لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها.

وإذا لم تكن واثقا من ذلك «واعبد ربك حتى يأتيك اليقين» الحجر٩٩

وماالضرر فى أن نتأمل كتاب الله وننظر .. هل حقا كما قال:

«ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين» النحل ٨٩.

واذا كان الأب لا يقبل فى الدنيا عظيما ولا يتمنى أن يكون ثمة بشر أفضل منه إلا ولده، أليس الله على الأقل مثل الأب لابنائه البشر وهم من عمل يديه ومن خلق إرادته، وينتمون إلى قدرته وبديع صنعه؟ فماذا يرجو منهم؟

«إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، يعظكم لعلكم تذكرون» النحل٩٠.

«وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا» الاسراء ٨٢«وكان الانسان أكثر شئ جدلا» الكهف٥٤ مع أن الله يقول له «ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض، إن الله لا يحب المفسدين» القصص ٧٧.

ونقـول للذين لا يدركون قيـمـة الدين وأثره فى تشكيل نفس كـريمـة ومواطن صالح ومجتمع متحضر ومنسجم تخف فيه المشكلات وتمضى عجلاته بثقة وقوة نحو مستقبل أفضل «ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون» الحديد١٦.

وإذا كان المصريون جميعا على قلب رجل واحد يتمنون أن تصبح بلادهم ضمن الدول المتقدمة، وأن تزدهر الأحوال الاقتصادية ويعم الخير وأن تمضى الحياة رخية فى مناخ من الحرية والمحبة والوحدة والتفاهم فإن ذلك مرتبط بدرجة المكاشفة والمصارحة واستعداد كل إنسان لقبولها د ون شروط مسبقة، والمكاشفة تفرض علينا توجيه سؤال مهم، أو عدة أسئلة تجمعها قضية واحدة هى حقيقة علاقتنا بالدين.

هل سلوكنا نحن المصريين فى الأغلب له علاقة بالدين، سوف أسمح لنفسى بسرعة الاجابة على هذا السؤال قائلا:

- نعم - ولكن مع تحفظ مهم هو.. إنها علاقة شكلية فى معظم الأحوال، فنحن جميعا حريصون على أسس الإسلام الخمسة، نشهد كثيرا ودائما أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ونقيم الصلاة ونصوم رمضان ونؤتى الزكاة ونحج البيت حتى لو لم نستطع إليه سبيلا، ولا استنكف أن أقول إن البعض يسرق ويحج وينصب ويدفع الزكاة.. إذن نحن مسلمون بالمعنى الذى أشار إليه الامام عبده.

ليصرخ من يصرخ ويثور من يثور رافضا اتهام بعض المصريين بذلك، ولكن قبل أن يفعل عليه أن يسأل نفسه عن الحقيقة، وإذا كان لديه أى شك فيما ذهبت إليه فليسأل أصدقاءه أو بعض أهله.. وصديقك من صدقك، وأنبأك بالحقيقة ولو كانت مرة. لا ينبغى أن ندفن طويلا رؤوسنا فى الرمال فإن أجزاء من أجسادنا عارية.

هل سلوك بعض ما من يدعون التدين ويلبسون اللحى سلوك دينى فى كل صوره ومظاهره وحقيقته؟.. سيقول البعض لا دخل لك بالمظاهر، أقول: الدين قول وعمل فى صالح البشر والانسان، فى صالح الفرد والجماعة.. ويقوم على حسن المعاملة أولا وأن يأمن الناس بوائق بعض وأنه لا ضرر ولا ضرار.. وأحسب أن تنفيذ عشر ما يأمرنا به الدين كاف ليجعلنا فى مقدمة الأمم.

ونأخذ مثالاً واحدًا:

يذهب من مصر إلى مكة والمدينة كل عام ما لا يقل عن ثلاثة ملايين بين معتمر وحاج، وهذا يعنى أن السنوات العشرين الأخيرة شهدت اعتمار وحج ستين مليونا من الجماهير المصرية، ذهبت طلبا لرضى الخالق وأملا فى عفوه وكرمه، وتأكيدا لحمده وشكره.

فأين ذهبت الدموع والدعوات والتضرعات والصلوات والتهجد والقيام والطواف والكفاح الرهيب للمس الحجر الأسود؟ لماذا إذن ذهبوا ومنهم من ذهب أكثر من خمس مرات، ولا أثر من ذلك على سلوكهم، والمفترض نظريا فقط أن يكون الشعب المصرى بكامله الآن بعد هذه العمليات المقدسة قد تم غسل روحه وبدنه وعقله وقلبه من الدنس والذنوب ونقى كما ينقى الثوب الأبيض مما يشوبه.

فهل ثمة شئ من ذلك حولنا إلا قليلا طبعا، وإذا كان موجودا فى كل مكان فأين آثاره علينا.. فى مسائل البيع والشراء والتعليم والصناعة والزراعة؟ وهل بعضها يتمثل فى علاقات الانسان بربه أو بأهله أو بجيرانه أو بالطريق أو بالمال العام أو بالفقراء أو بزوجاته وأولاده أو بما هو راع فيه. ولو كان هناك دين بما تعنيه الكلمة من كل معانى الخير والحق والجمال والمحبة والتضامن وعفة اللسان والحكمة، هل كان الانسان فى مصر يعانى على يدى بنى وطنه مايعانيه من استغلال واستبداد وغش وخيانة وكذب وتضليل ونهب أمواله والنيل من شرفه ببساطة ودون أن .

تهتز شعرة فى رأس الآثم - بينما اللسان ينطلق بالإساءة والعيون مفتوحة لا يغمضها حياء ولا يردها خوف من لوم أو عتاب، بل هى تحس قوة بالباطل، وصفاقة بالفجر، وجسارة يدعمها الجشع.

أى دين لدى من يبذل أقصى الجهد ليقف فى وجه أخيه ويعوق طموحاته، ويمنع على الناجح أن يمضى نحو أماله المشروعه وأن يقاوم الحقوق قدر الطاقة حتى لا تصل إلى أصحابها.. ألا يسأل الانسان نفسه: هل أنا مفتاح للخير مغلاق للشر أو العكس؟

إن الموقف يقتضى مراجعة معمقة وصادقة وأحيانا قاسية، لأن الدين فى مصر له شكل الدين، والعمل له شكل العمل، والمحبة لها شكلها.. وكل شئ يتخذ فقط صورته.. إذن فمعظم الأمور فى الحياة شأنها شأن مايجرى فى السينما والتليفزيون والمسرح.. فيها الكثير من التمثيل.. وهناك من الأعداء من يصفقون لنا، مؤيدون عروضنا، ولكن المخلصين لنا حقا، كلما حضروا عرضا لنا خرجوا من القاعة وفى النفس لوعة وأسى، يمصمصون الشفاه على هذه الأمة الخادعة المخدوعة.

إن الله رائع وجميل وعظيم،، وليتنا نحبه كما نحب أبنائنا وبعض أهلنا وبعض نجومنا.. ولا مجال للمقارنة والتشبيه، إنه كريم عفو غفور يجب أن نحبه جدا ونخلص له فى العبادة - ونحترم كلمتنا معه لأنه أكبر من كل كبير وأعلى من الجميع - وهو منزه عن الحاجة، ولا يريد منا إلا أن نكون بشرا على أعلى مستوى، وما أروع الانسان الربانى، المنتمى لله.. روح شفافة ومحبة وعمل وتقوى وأمان ونسمات من الرضا والنبل والشرف.

يريد الله منا المحبة والعمل والخلق الكريم، وأن نسعى للثروة والمتعة دون أن نظلم وعندئذ سيرزقنا من حيث لا نحتسب.. إن من لايثق بالله ودينه..أعمى، وسوف يحشره يوم القيامة أعمى.

«ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى(١٢٤) قال ربى لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا(١٢٥) قال كذلك أتتك أياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى(١٢٦) وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بأيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى(١٢٧) طه.

وغاية الدين - لو علم الكثيرون - خدمة الانسان ورعاية حقوق الناس .. فالأصل فيه حسن المعاملة والتعاطف مع البشر والصبر على مايناله منهم، فلكل إنسان عذره أحيانا فيما يفعل، بسبب مشاكله وظروفه المتعثرة، وطباعه التى لم يخلقها بنفسه، وإمكاناته المحدودة التى وهبها الله له، لذلك يرحم الله عبده ويطالب عبيده أن يرحموا عبيده ومن لايرحم لا يرحم، ويقول المنفلوطى، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء،

الله تعالى يقول «لا خير فى كثير من نجواهم، إلا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما» ويؤكد الرسول عليه الصلاة والسلام أن السبيل الفعال للتقرب إلى الله تعالى والفوز برضاه، هو محبة عباده ومساعدتهم، بقوله عليه السلام إن (منزلتك عند الله بقدر منزلتك من الناس) وإن (أحب الناس إلى الله انفعهم للناس) ولم يقل أكثرهم صلاة أو صوما. بل لقد أراد أحد الصحابة الخلوة والاعتكاف لذكر الله تعالى، فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام (لا تفعل فإن مقام أحدكم فى سبيل الله أى سبيل نفع المجتمع - أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاما)، وقوله عليه السلام (لئن يمشى أحدكم مع أخيه لقضاء حاجته أفضل من أن يعتكف فى مسجدى هذا، وأن المهاجر فى سبيل العلم، والساعى على الأرملة والمسكين، مجاهد فى سبيل الله).

إن العبادة هى الجهاد فى سبيل الله أى فى سبيل الحق وسبيل تحقيق مجتمع كفاية الانتاج، ومجتمع التكافل والتضامن والأخذ بيد

الضعيف، لقوله فى حديث قدسى (أبغونى فى ضعفائكم)، وقوله فى حديث قدسى آخر (يابن آدم مرضت فلم تعدنى، قال رب كيف أعودك وأنت رب العالمين، قال تعالى.. أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده. يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى قال رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين، قال تعالى: استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى. يا ابن ادم استسقيتك فلم تسقنى، قال رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين، قال استسقاك عبدى فلان فلم تسقه أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى).

ورحم الله الخليفة عمر بن الخطاب حين قال(والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل، فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة) . ورحم الله المفكر الاسلامى جمال الدين الأفغانى حين كان يردد (أنا لا أفهم معنى لقولهم الفناء فى الله، وأماالفناء فيكون فى خلق الله بتعليمهم وتوعيتهم بوسائل سعادتهم ومافيه خيرهم).

أما عن الانسان من وجهة نظر الإدارات الحكومية فهو فى الأغلب مزعج، والمواطنون عبء وطلباتهم سخيفة ومملة حتى لنجد فى كثير من الأحيان معاملة من الموظفين لا تتناسب مع الناس ومطالبها ومشاعرها وأصبح تعطيل مصالح الناس أو تعويقها أو البطء فى إنهائها والاستهانة بها عرفا جاريا وعادة مستحكمة، لا يسلم منها موقع وظيفى، ومن الملاحظ تدنى وقصور تقديم الخدمات على الوجه اللائق والمحترم لكيان المواطن وأدميته، بل وصل الامر إلى تعمد اخفائها أو تكرانها من أصلها، أو ابتزاز المواطن من أجل تقديمها له بالاضافة إلى الاستخفاف واللامبالاة بشأن شكاوى المواطنين ابتداء من اهمالها من أساسها وعدم مواجهتها بالحل السليم والمريح وانتهاء بعدم احترام حق المواطن فى الرد عليها.

إن الصـورة أيهـا السـادة أبشع مما نتـصـور، والبـدء يجب أن يكون بالانسان مركز الكون الحقيقى، وبدون تكريمه وتوفير ما يلزمه والحفاظ على أدمـيتـه فى كل موقف وكل مكان ورعايته انسانيا ونفسيا لن يكون هناك ذلك النور الذى نحسب أنه يطل علينا أو ينتظرنا فى نهاية النفق.

الإيمان

«إن التقدم ليس إليه من سبيل غير وفرة الامكانات المادية ومهارات وخبرات القوى البشرية» مقولة لا أحتاج لكبير جهد كى أثبت أنها ناقصة، إذ تفتقر إلى التنويه بأهمية العوامل المعنوية فى تحقيق أكبر قدر من الإنجاز المرموق والتمهيد بقوة لصنع التقدم فى كل المجالات، ومن هذه العوامل، الإيمان والانتماء.

وقد يلتقى حماسنا لهذه العوامل مع حماس البعض، لكننا فى الوقت نفسه، لن نعدم من يجد فى الإيمان والانتماء مجرد ألفاظ إنشائية، وإذا كان لها فى رأيه بعض الدلالات فليست غير الرومانسية، مما يمكن اعتباره شعارات جوفاء لا رصيد لها فى واقع الحياة، وليست هذه الكلمات مما يمكن أن يضيف إلى القدرات العملية الفاعلة لأى مشروع، إن هى إلا ألفاظ تحفل بها خطب بعض السياسيين العرب وهم يخوضون فى اللا شىء أو يحاربون طواحين الهواء، أو يتحدثون بهمة عن خطط وهمية، أو يصبون فى أنهار الشوارع عبارات اشتهر على تسميتها عبارات للاستهلاك المحلى وتحذير الشعوب التى تفرح لأى كلمة من مسئول كبير فتصفق وتعود إلى بيوتها الفقيرة راضية، آملة فى صباح يحمل الخير.. لعل وعسى.

إلا أنى أتصور دون مبالغة أن توفر عنصر الإيمان يمثل قاعدة راسخة للانطلاق فى أى عمل، ومعظم الدول المتقدمة تحمل لها عظيم الاحترام حتى دون أن تحددها بالاسم، فقد تجاوزت ذلك واعتبرته من البدهيات، وتعتمد عليها حتى لو لم يتاجر بها مسئولوها، هنا لانجد مفرا من ذكرها لبيان أهميتها والوقوف على دلالتها التى تتجاوز كثيرا المفهوم السائد عند أغلب القراء وهو الايمان الدينى، الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر.

وليس ثمة شك أن ذلك جميعه مطلوب خاصة الايمان بالله، إذ يمثل هذا اللون من الإيمان سندا قويا لكائن بشرى يواجه فى حياته الكثير من الصعاب، أقلها من الطبيعة وأكثرها من أخيه الانسان وأفكاره الشريرة وغدره وأطماعه ورغبته الدائمة فى التوسع والامتلاك.

إن الإنسان الذى يواجه القوى المناوئة على اختلاف أشكالها فى حاجة إلى الإيمان بقوة أعلى وأكبر من الجميع، فيشعر ببعض الثقة، بل بكثير منها ومن ثم يقدم على أعمال حياته ومهامه ومشروعاته معتمدا على الله بوصفه الأكبر. وهذا يوفر له توازنا نفسيا على قدر كبير من الأهمية، كطفل يأخذه أبوه إلى المدرسة، فالطفل يشعر بالحماية، أو صبى يمضى فى صحبة أبيه إلى السوق، أو عندما يشكو له ما فعله به زملاؤه، وكيف أن أباه يذهب إلى المدرسة أو إلى النادى ويحمى حقوق ولده ويدعمه إزاء الاخرين، وقد ضربنا هذه الأمثلة التى لن يغيب عن بال القارىء إنها لاتقارن أبدا عند الحديث عن الله، لكن الغرض كان التقريب والإيضاح خاصة لمن لايستطيعون تصور معنى الإيمان بالله.

إننى أملأ روحى ثقة بأن الله معى فاشعر على الفور أنى قوى وغنى وعزيز، فإذا ذهب تعبى دون فائدة لم أيأس لأنى أعرف أن الله موجود، ويعلم كل شىء وسوف يتصرف حسب رؤيته، وأنا متنازل عن رؤيتى

لحساب رؤيته، فهو الأعلى والأعلم، وسرعان ما يأتينى الرزق من حيث لا أتوقع أو أحتسب.

لقد كنت فى الماضى أكاد أشك فى الآية الكريمة: وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا».

وأتساءل: كيف يستطيع الله أو ملائكته تجميع كل أعمال البشر وهم بعشرات المليارات، صحيح أنى أثق بقدرة الله اللانهائية، لكن حصر أعمال البشر خيرها وشرها، مسألة تجاوزت تصورات عقلى، لذلك خامرنى الشك واعتقدت إلى حين أنه نوع من التهديد أو التظاهر بأن هناك حصرا لما اقترفه الناس.

ومع ظهور الكمبيوتر واستطاعة طفل صغير أن ينقل موسوعة كاملة فى عدة أشرطة، تلاشى تماما هذا الخاطر ولم أعد أجد الأمر عسيراً على الأجهزة التى صنعها الانسان، فما قدرة الخالق العظيم؟.. إنها لاشك تستطيع أن تحصى الرمال..

كما أنى كنت أعلم وأثق أن الله واسع القدرة، لكنى بعد أن تابعت عبقرية الانسان دون المخلوقات وقدراته غير المتناهية على اقتحام المجهول، لم أعد أستطيع تصور قدرة الخالق الذى قال للإنسان المعجزة كن فكان.. وربما تلد أمثال أينشتين سيدة بلهاء.

سبحانه الله الكبير المتعال، وسبحانه عما يصفون فهو يجل ويعلو.. وهو إلى جانبنا دائما برحمته.. والإنسان فى حاجة ماسة إلى غذاء روحى ونفسى يضمنه له ويؤكده ثقته بأن الله معه وأنه سينصره إذا نصر نفسه ويعينه إذا أعان نفسه.. إذن فالايمان بالله بداية البدايات.. هناك أيضا الايمان بالنفس، وهو الثقة بالقدرات الذاتية وأنها تستطيع مع حسن استغلالها أن تحقق المبتغى، وغيابها إقرار من البداية بالعجز والهوان

والدونية، فكم من أفكار رائعة طرقت أبواب الذهن وراودت الخيال، ولكن النفس التى حرمت الثقة بقدراتها سرعان ما تقول:

ـ حتروح فين يا صعلوك بين الملوك.

أو ـ العين ما تعلاش على الحاجب.

أو يتصور شخص بأنه منذ البداية لن يتمكن من هدفه ولن يسمح له أن يمر إلى أبعد مما وصل إليه مهما فعل، سواء لأسباب شخصية أو أسباب طبقية، وقد يؤثر شخص ما ـ من فرط عدم الثقة ـ أن يتراجع عن الإقدام على المنافسة أو المشاركة اطمئناناً إلى أن اللجنة تضم أعضاء من الأصدقاء والمتصاهرين الذين يمثلون شلة، ستختار بالقطع أو تؤيد من ينتمى إليها أو تنحاز لمن تعرفه إلى غير ذلك من صور عدم الثقة بالنفس مما يولد الإحباط واليأس، ويكتفى الفرد فى تلك الحالة بأن يخمد طموحاته ويلعق تعاسته ويصاب بالكمد.

الثقة بالنفس إذن مطلوبة ولازمة لكل من يود السعى نحو التطوير والتألق، أو لإحراز نقلة ملموسة إلى الأمام سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات.

والثقة بالنفس يمكن أن تمثل عاملا محرضا ومثيرا نحو التمسك بالمساهمة والمنافسة، دافعة للتحدى خاصة مع توفر الإمكانات الذاتية التى لاينقصها إلى المحك الحقيقى، وهى الفرصة المناسبة لاقتناص أوضاع أفضل ومكانة أسمى.

وثالث ألوان الإيمان ولعله أهمها من الناحية العملية، هو الإيمان بالهدف، وهى عتبة ضرورية لأنها فى الحقيقة الأصل فى كل توجه صوب الهدف وتشكيل صيغة وأسلوب الانطلاق.

إن الإيمان هو التيار الكهربائى غير المرئى الذى يشحن الطاقة بقوة غير عادية، وينشىء علاقة راسخة بين النفس والهدف لاتتزعزع برغم

الظروف، فهو إذن عامل سحرى هام جداً قادر دائما على إشعال الحماس، ودفع قوى الشعب إلى هدف قومى عظيم مثل بناء السد العالى، يسهم فى قيام اقتصاد أمة عانت الفقر والاستنزاف طويلا.. مشروع المشاريع. إذا لم يكن ثمة إيمان راسخ بأهميته وحتمية بنائه لأننا بدونه سنظل نحفر الأرض بلا طائل، ولن تتحرك مركبة الوطن خطوة إلى الأمام، فلن يرى النور أبداً مهما توفرت الإمكانات والكفاءات.

من أجل هذا الهدف تهون كل تضحية، ويتهافت كل جهد ويتضاءل أى ثمن حتى لو كانت الأرواح.. وهكذا تكاتفت الأيدى وتعانقت القلوب ومن قبلها العقول تكد وتكدح لتوفير دراسات جادة تجعل من الهدف شمسا تشرق بالنور على عالم تجوس فيه أشباح الظلام.

لابد من الإيمان بالهدف والاتفاق عليه وتعبيد كل الطرق فى سبيل بلوغه، والايمان نفسه ينبع من الاحساس العميق بأهمية الهدف وجدواه.

فأنا شخصيا مؤمن جداً بالهدف من هذا الكتاب، ومنتهى أملى أن يصل إلى الناس ويلتف حوله الجميع مسئولون ومواطنون، ويعثروا فيه بعد المدارسة على ما يستحق التفكير والتنفيذ، وما يستحق أن يصبح آليات عمل وتوجيهات وتوصيات، وفى سبيل هذا الهدف تهون أهداف أخرى تعنينى جداً، وتهون خسارات عديدة يمكن أن أتجشمها بسبب إقدامى عليه، وبسبب إهمالى غيره، لكن الإيمان عميق، يملك علىّ عقلى ووجدانى وصحوى ونومى.

وهناك أنواع كثيرة من الإيمان ـ مثل الإيمان بالحب والإيمان بالعمل الجماعى، الايمان بالثورة والإيمان بالعلم، والإيمان بالخير والايمان بالصداقة والإيمان بالأشخاص، كأن أضع ثقتى الكاملة فى زعيم أو عالم كبير أو أديب مرموق.

الإيمان إذن فى نظرى شمس كبيرة مشرقة أو علامة كبرى على الطريق تؤثر تأثيرا بالغا على مسيرة الانسان، ولا غنى عنها ولايتعين

الحـرمـان منهـا، فـمـاذا يـمكن أن يـكون الانسـان بدون أى نوع مـن أنواع الايمان.. إن الكون كله يقوم على درجات مختلفة وأشكال شتى من الإيمان تمثل أملا ودافعاً لكل كيان كى يسعى نحو هدفه.

ولنا أن نتصور درجة الإيمان بالعلم وبالنفس التى تمتع بها د. أحمد زويل، ودرجة الإيمان بالهدف التى تمتع بها الأستاذ نجيب محفوظ فمضى بإصـرار لا يتـأثر بأى مـوثر نحـو الهـدف، ولنا أن نتـصـور إيمـان الشـعب المصرى بأهمية الحرب واستعادة سيناء ومثابرة الضباط والجنود وتفكير الرئيس السادات فيها ليل نهار وتوفير كل ما يفضى إلى الهدف الذى تحقق فى أكتوبر ١٩٧٣ بعبقرية نادرة.

ولنا أن نتصور إيمان الضباط الأحرار بالثورة، إيمانا لم يعد هناك غيره فى كل حياتهم، ولنا أن نتصور الإيمان العظيم الذى يملأ قلوب شباب الانتفاضة الفلسطينية، ولو لم يكن هذا الإيمان بالهدف لما صمدوا أياما قليلة.

الانتماء

هو شعور بالانتساب لكيان ما أو فكرة أو معتقد، ومن صوره الانتساب إلى دين أو وطن أو قبيلة أو جماعة مهنية أو حزب أو مدرسة فكرية أو فنية، وقد يكون من صور الانتماء الانتساب إلى شلة أو فريق أو نادى ومنه أيضا الانتساب إلى أسرة كبيرة كانت أو صغيرة.

ولأن الإنسان اجتماعى بطبعه فليس من شك أنه بحاجة إلى هذا الشعور الإنسانى الذى يعد عنصرا مهما من عناصر تكامل الشخصية، وتوازنها و إحساسها فى أغلب الأحوال بالاستعداد للمشاركة والتضحية وتراجع الشعور بالنقص، إذ أن تعدد هذه الانتماءات تلبى حاجات اجتماعية ونفسية، وتترسخ فى أعماق اللاوعى فتتحقق للشخصية نفحات من الرضا النسبى عن النفس والحياة، وبدون الانتماء تتسلل إلى النفس أحاسيس الاغتراب التى تشبه فيروسات تأكل كل ما تراكم من تعلق وارتباط بالجسد الأصلى موضع الانتماء. ويستشعر الإنسان أنه بلا جذور أو قواعد، وإنما هو مجرد عابر سبيل أو بناء من قش يمكن أن تعصف به الريح دون أن يعبأ به أحد، ومن ثم ينظر إلى كل شىء بوصفه عبثا لا طائل من ورائه والدنيا ذاتها غير جديرة بالعيش فيها.

والانتماء لا يتولد فجأة ولكنه يتربى على مدى فترة من الزمن فى بوتقة المجموع ذى السمات والأفكار المتماثلة إلى حد كبير، فليس كل من

ينتسب اليوم إلى حزب أو جماعة أضحى من الغد منتميا، وإنما يتشكل هذا الانتماء بعد الانصهار الفكرى والنفسى مع بقية الفريق، والتعامل مع أفراده وتبادل الأخذ والعطاء مع تحمله النصيب الملائم فى الأفراح والأتراح.

ويتسم الانتماء عادة بالثبات والرسوخ لأن الارتباط مع الجماعة عبر مدة زمنية ومعايشة دائمة أو شبه دائمة يشكل بنية نفسية داخل الوعى واللاوعى، ومن ثم يصبح من غير المألوف أو على الأقل ليس فى يسر تحول الشخص المنتمى إلى لا منتمى أى انتزاع الجماعة أو الاعتقاد من وجدانه بعد أن أصبح جزءا لا يتجزأ من هذا الوجدان، ومن المهم الاشارة هنا إلى أن كلامنا ينصب على كل ألوان الانتماء ماعدا الدينى بسبب ثباته المطلق فهو ليس محل مناقشة لدى غالبية المنتمين إليه.

وفى الوقت ذاته لا يمكن اعتبار عدد غير قليل من أعضاء الأحزاب المصرية من المنتمين إليها، أولا لأنها ليست أحزابا راسخة وليست ذات هوية محددة ومستقلة، ولا تقاليد لها ولا برامج متميزة واضحة فضلا عما نراه من سهولة انتقال العضو من حزب إلى حزب حسب المصالح والأغراض والفرص المتاحة.

على أننا نلحظ برغم هذا الثبات الغالب إمكانية تخلخل هذا الانتماء تأثرا بالمتغيرات التى قد تطرأ على طبيعة العلاقة الحميمة والعميقة بين الفرد وجماعته، وتصاعد خط المعاناة مع هذه الجماعة، وتقاعس أفرادها أو هيئتها عن التضامن معه أو مساندته فى العديد من المواقف، مما يدفع تدريجيا إلى التفكير فى إعادة تقييم العلاقة ووزن النتائج فى ميزان المصالح المتبادلة.

فإذا عانى شخص فى سبيل أهداف جماعته وظل يضحى ويتحمل ويجتهد فى تبنى قضاياها فى كل محفل وهى تهمله وتتخلى عنه، أدى ذلك إلى فتور العلاقة حتى تنفصم العرى تماما.

فمـا شـعـور شـاب ينتمى لأسـرة لا يلقى منهـا دون أخـوته إلا العنت والإنكار ومـحاباة الأخرين، وآخـر تلتهم حـقوقه وثالث لايجد إلا الازدراء ورابع يقاسى الكبت وضياع الكرامه، والافتقار إلى الحد الأدنى من المعاملة الإنسانية، على حين يجد الكبار والمسئولين والمنافقين من الأذناب ينعمون بكل الاحترام ويغدقون عليهم من الخيرات.

لابد أن ذلك جميعه يؤدى إلى زلزلة الانتماء على اعتبار أن الولاء حق متبـادل، وكمـا أن المنتسب لجمـاعـة عليه حق الولاء، فإن له عليهـا حق الرعاية والحماية

أيا مـا كان الأمـر فإذا كان ذلك فى رأينا جائز حدوثه مع أى جمـاعـة فإنه لا يجوز فى حالتين هـمـا الأسـرة الصـغـيـرة (العائلة) والأسرة الكبيـرة (الوطن). ذلك لأن هذين الكيـانـين يتـسـمـان بمكانة خـاصـة ويمـثـلان الأحـضان الدافئة التى استقبلت ابنهـا لأول مـرة، وجـودهمـا سبق وجوده وليس له فـى اختيـارهمـا رأى، وعـلاقـة الإنسـان بوطنه عـلاقـة مـقـدسـة، بمعنى أنها عـلاقة أبدية لا تنفصم عـراها لأى سبب، وتتعرض الشـعوب فى عـهـودهـا المختلفـة لفـتـرات مـتـبـاينة من الـرخـاء والكسـاد، من الازدهار والخمود، على أنه فى ظروف الأزمات لايمنع البعض من البحث عن منافذ للهجرة، ومع ذلك.. فمهما طالت فترات الهجرة وامتدت آماد الغربة ومهما لقى المهـاجر من ألوان السعادة والمجـد فى البلد الجـديد، فهو يومـا لابد عائد إلى مسقط الرأس وإلى الجذور، وإلى الوطن الذى لايبـرح الوجدان وليس المرء بقادر رغم وسـائل الاغـراء ومسـتوى العيش الرفيع أن يمـحو مـلامح الوطن من القلب والروح، ولا أن ينزع الحبل السـرى الذى يمتد فى كل كيانه ويمضى فيه خلال عروق الدم والأعصاب.

والوطن أردنـا أو لم نرد مـقـدس كـالأب والأم والدين، مـعلق بالمصـيـر كالولد، والأب الجاهل جدير بالاحترام، لا باللعنة، ويحق له الرعاية وحسن المعاملة رغم مـا يبدر منه، وليس مـعنى هذا أن نبخل عليه بالرأى والعمل

على تصحيح ما قد نأخذه عليه بالحكمة والموعظة الحسنة لا بالتكفير أو الازدراء.

الوطن أب للجميع ولابد أن هناك من يختلف على سبل هذا الوطن وتوجهاته، كما يسخط ابن على أبيه بسبب انحرافه أحيانا عن جادة الصواب فى الانفاق أو السلوك، ولكن هل الحل هو البحث عن وطن آخر، أم الحل أن يستمرئ الجميع مسلسل الشكوى من الأوضاع بمناسبة ودون مناسبة، وكأنه وطن جاهز قدموه لنا وليس من صنع أيدينا.. وعلى المسئولين شراء وطن غيره!؟. أم الحل أن تمتد الأيدى فى كافة مجالات الحياة ومختلف المواقع بالعطاء والتصحيح، والعمل على التغيير والتطوير من منطلق الحب لهذا الزورق الذى يجمعنا به وبكل من فيه مصير واحد وتاريخ واحد.. تفتحت مع صباحه عيوننا وعقولنا، وانطلقت فى وديانه أبداننا وأرواحنا التى غذتها ثماره وسقتها أنهاره.

حرى بنا أن نغضب ونأسى للتقصير، ولكن الوطن هو الوطن الذى يجب أن نتجه إليه بالحب والتشجيع والمؤازرة والدعوات، والنقد والمصارحة أيضا.. ولعل الفن والأدب ووسائل الإعلام والقيادات الثقافية عليها فى هذا المجال دور نبيل ومؤثر.. دافع ومحرض.. فحب الوطن مطلوب، والتذكير بنصف الكوب المملوء مطلوب، كما أن التذكير بنصفه الفارغ مطلوب، وتوجيه أبناء الأمة للقيم الأصيلة التى تعيد القدم للطريق الصحيح مطلوب، وإعلاء مكانة النماذج الرائعة فى العطاء والحب مطلوب

أما انتساب الفرد لمدرسة فكرية أو شلة أو حزب أو جماعة فهو أمر مكتسب، تحقق بعد سنوات طويلة وبعد أن بلغ الفرد سن النضج، فهو إذن انتماء نتيجة لمعرفة وسلوك وعلاقة، وليس وراثيا كالأسرة والوطن والدين.

والانتماء مصدره الأصلى الإيمان، فلا انتماء لما لا تؤمن به، وإن بدا الإيمان فى الانتماءات الثلاثة وراثيا، لم يؤخذ رأى أصحابه فيه إلا أنه الأقوى.

ومع ذلك فإن سوء الإدارة وسيطرة البيروقراطية وتعقيد حياة الناس من قبل موظفى الحكومة فى شتى المصالح، وكثرة الإجراءات وصعوبتها والتحايل وتغيير الذمم من قبل مسئولين كبار، والتعديل الدائم فى القرارات، كل هذا مع الزحام والغلاء والغش والتلوث والكذب وعدم احترام الإنسان لأخيه الإنسان يجعل البعض يضيق بالبلد وبأهلها ويقرر البحث عن و سيلة للسفر متمنيا ألا يعود إلى هذه البلاد.

إن مستقبل هذه الأمة مرتبط ارتباطاً وثيقًا بالتفاف كل أفراد الشعب فى الداخل والخارج حول بلادهم واحتضان قضاياها باهتمام وصبر، والمساهمة بالرأى والمشورة والكفاح والمقاومة والدعم والمعاونة فى تطوير مساراتها العديدة لاقتحام الجديد من التكنولوجيا فى محاولة لتحديث البلاد، أما الخارجين والمارقين الذين فقدوا الحس الوطنى فهم يسيئون لبلادهم من أمثال الجواسيس وعملاء اسرائيل ومن يطلبون إنشاء جمعية للصداقة مع الكيان الدخيل قصير العمر، ومثلهم الذين ذهبوا لعمل داخل مناطق الدولة الصهيونية وأسوأ منهم من تزوجوا من نساءها.

لقد سال اللعاب مع رؤية العملة الاسرائيلية، الأمر الذى يعد هوانا ما بعده هوان، وضعفًا ليس بعده ضعف.. ألم يكن ثمة ذرة من شرف ترشدصاحبها وتنصحه ألا يترك بلده لقاء الملايين التى تلوح له فى إسرائيل.. ماذا يساوى وجودى فى بلد تشرب حكومتها من دم أخوتى وأهلى سواء فى مصر أو فلسطين أو لبنان أو سوريا أو الأردن.. أين الضمير والإحساس.. هل اختفت النخوة تماما إنه العماء الحقيقى ومن عشرين ألفًا ذهبوا لإسرائيل خمسة عشر ألفًا منهم تزوجوا من نساء الصهيونية.

فماذا نحن فاعلون إزاء الأبناء الذين سيحملون الجنسيتين، لأن المصرى يحمل جنسية بلاده بوصفه ابن الأب المصرى، وسوف يحمل جنسية بلد أمه الإسرائيلية، لأن اسرائيل تمنح جنسيتها لأبناء النساء

الصهاينة، إذن فسوف يدخل مجلس الشعب وكل المؤسسات المصرية أبناء اليهود، وليس باستطاعة أحد أن يقول وماذا فى هذا فقد كان اليهود فى مصر قديما وحتى أوائل الستينيات يملكون ويساهمون ويشتركون فى كل شىء؟ نقول: الوضع مختلف تماما، فاليهود فى الماضى كانوا مصريين فقط، أما اليوم فلهم دولة، ولهم جنسيات أخرى، وسوف تكون مصر موطن للعبث والتجسس والنفاذ والنفوذ والنهب والسلب والسيطرة و.. و..

حرام ما يحدث لمصر.. وممن؟.. من أبنائها.. والمسئولون الذين لم يذهبوا إلى إسرائيل مسئولون عمن ذهبوا.. وهى حالة أقل ما توصف به الاستهتار والاستهانة، فضلا عن غياب النخوة والشرف.

إننا ندق ناقوس الخطر وعلى الجميع اتخاذ موقف إزاء ما يحدث بالنسبة لحالة الانتماء التى تتزعزع فى قلوب وعقول بعض المصريين، وأيا كانت الأسباب والمبررات والإغراءات فالأمر فى حاجة إلى دراسة واتخاذ قرارات واعية، ومحاصرة التسرب الانتمائى بشتى الوسائل، لأنه يمثل النمل الأبيض الذى يزحف على كرامة، وأصالة الشعب المصرى ويهدد مستقبله.

لنبدأ باللغة العربية التى هانت فى نظر أهلها حتى بلغت مستوى بل دركا لا يمكن الوقوف حياله مكتوفى الأيدى، والحكومة، لا تهتم على الإطلاق، وقل مثل ذلك على رموز الوطن فكثير من الشباب يرتدى ملابس عليها العلم الأمريكى والعبارات الأمريكية، حتى الصانع المصرى الجاهل والخائن يضع بنفسه هذه الرموز وغيرها على الملابس والمنتجات التى يصنعها مثل فرش كراسى السيارات والقبعات والأقلام والميداليات وغيرها.. من يقاوم كل هذه الفجاعة والتخلف والدونية؟.

القضية تمس هوية مصر العربية مسًا مباشرا وتضربها فى الصميم، وهذه ليست مبالغة، إذ إن الهوية تبدأ من الأسماء.

لو قلت لك إن صديقى نيكلسون كان يزورنى فلن يساورك أى شك فى أن صديقى ليس عربيا، قد يكون أمريكيا أو إنجليزيا، ولو قلت لك إن صديقى اسمه دينج زاو بن فستدرك على الفور أنه قدم من الشرق الأقصى.

سر فى الشوارع المصرية.. خاصة القاهرة.. سوف تصدمك بعنف تلك اللافتات التى تعلو المحلات والشركات الخاصة.. لن تجد إلا فى النادر اسما عربيا، ولن تشير هذه اللافتات أننا فى دولة عربية إلا لمجرد استخدام حروف عربية.. سوف تجد.. فيدلكو للموبيليا، سارتى للمطابخ، أرابيا للتعمير، سالى تاور.. سمر بيتش، تارجت للخدمات، باور كلين، هاى كلاس للتكييف، ندا موتورز، كامل شوز، هابى تشايلد، هابى داى، شارى باتسيرى، رامى تورز، كاريت سيتى، جودمورننج للألعاب، سالى تويز كريزى هورس.. ويلكم، ناجية، سنتر، الحديدى شوب، نوال ماركت، الهدى سنتر..

لو كانت هذه المحلات توكيلات لشركات عالمية فلا اعتراض، إذ لا مناص من أن تحمل أسماء، شركات المطاعم المشهورة والسيارات المعروفة والساعات والأجهزة الكهربائية، أما تأليف الأسماء باللغة الإنجليزية أو الفرنسية لمؤسسات مصرية فهو مرفوض تماما، وليست حرية شخصية على الإطلاق، واعتبارها حرية يعنى اعتبار أشياء أخرى من الحريات واتباع سلوكيات معينة من الحريات.

إن هذه الأسماء الدخيلة لا تكشف فقط عن جهل أصحابها بأثر اختيار هذه الأسماء إذ تستفز المشاعر الوطنية، لكنها تكشف وهذا هو الأخطر عن عدم الانتماء لعالم عربى له سماته الثقافية والتاريخية والدينية، وعدم الاعتداد بهذا الميراث الحضارى، ومحاولة التعلق بالغرب ومجاراته فى كل ما يفعل ويختلق من بدع، والاحساس بالسعادة لتقليده وهى فى حدها الأدنى دونية يجب أن نترفع عنها ونقاومها.. وليس

جديدا أن يقال أننا نطالب بالفعل بتقليد الغرب والشرق أيضا، فى الجدية والإخلاص والعلم والتجديد والعمل الدءوب والدقة والموضوعية.

إن خطورة هذا النهج فى كتابة الأسماء الأجنبية تبدأ من تداولها وتبادل ذكرها فتسود الألسنة أسماء أجنبية، فما الذى يمنع أن تكون أحذية كامل وحلوانى أبو شادى، ومحلات الحديدى ومركز ناجية التجارى وهل الاسم الأجنبى يعنى الجودة.. مجرد الاسم!!

وإذا تركنا جانبا أسماء المحلات - ولن نتركها.. يطالعنا بعض مذيعى ومذيعات التليفزيون فى قنواته المختلفة وهم يرتدون فانلات أو قمصانًا مكتوب عليها عبارات بالإنجليزية.. يقف المذيع يملأ الشاشة بصدره فخورا بالفانلة التى تزينها الكتابة الإفرنجية، والغريب أن هذه الفانلات صناعة مصرية، ففى أى بلد يحدث هذا!؟ هل المحلات الألمانية تنتج ملابس عليها كتابة بالعربية ويطالعنا بها التليفزيون على صدر مذيعيه لوحدث هذا حتى فى بلاد الحريات لكان هناك كلام آخر..

قديقول قائل إنها السياحة، فهل السياحة تتطلب ذلك!؟ أحسب أن السياحة.. تحتاج إلى إجادة لغات أجنبية حتى وأنا ألبس الجلابية، وتحتاج إلى ذوق ونظافة وثقافة، وفوق الرأس طاقية أو عمامة أو وأنا أرتدى الصندل.. وليس المقصود بالسياحة، تحويل معظم مفردات حياتنا إلى مفردات أجنبية تفصلنا عن لغتنا وديننا وهوية أمتنا، وسوف نكون ساعتها بالضبط كالقرد أبوصديرى. لاشكل لنا ولا معالم.. خليط مشوه من كل شىء.

أما فى التعليم فقد انتشرت كلمة مستر فى المدارس بديلا عن أستاذ، حتى لقد فوجئت بابنة صديقى وهى طالبة فى مدرسة ثانوية حكومية تقول له: إن مستر الدين بتاعنا انتقل وجاء لنا مستر جديد.. تصوروا مستر الدين ومستر العربى والمس بتاعة العلوم والمس بتاعة الموسيقى، بالإضافة إلى ماسمعته عن صديقى الثانى الذى يود أن يقدم

لولده فى الكجى ون وأخر انتقل ولده إلى كى جى تو والحمد لله بدلا من سنة أولى حضانة وسنة ثانية حضانة.

إن هذا النهج الذى يسعى لربطنا بالمنظومات الأجنبية من الناحية المظهرية فقط سوف يقضى لا محالة على الهوية واللغة والتراث ويمزق كل الأواصر التى تربطنا بأصولنا العربية والإسلامية.. يكفى ما نتعرض له من غزو واقتحام بضرب جذورنا ومحو السمات المميزة لمجتمعنا وخصوصية عالمنا العربى.. والعولمة فى الطريق.

التعليم والبحث العلمى

التعليم فيما أحسب ودون أدنى مبالغة - أقدس عملية عرفها البشر عبر مختلف الحقب التاريخية، وهو صاحب الفضل الأول فى تطوير مسيرة الإنسان منذ كان مجرد كائن حيوانى بدائى فارغ وخائف وضائع ومحروم وحائر، إلى ذلك الإنسان العبقرى الذى يبتكر ويخترع ويبدع ويحب ويفعل الخير ويجوب اليابسة والبحار ويغزو الفضاء لا يعجزه شىء، وما يزال بالتعليم والتعلم يمضى بخطوات حثيثة نحو كشف المزيد من الأسرار والتعرف على أنحاء مجهولة من نفسه ومن العالم والكون جميعه، وهو لن يبلغ النهاية حتى يبلغ النهاية، أى أنه فى زعمى والله أعلى وأعلم - لن يختتم رحلته على الأرض ويختفى الجنس البشرى إلا وقد أوشك أو كاد التعرف على كل شىء تقريبا..

والتعلم عن طريق المدارس فى العالم أجمع ربما بدأ فى مصر منذ آلاف السنين برعاية كهنة المعابد والكتاتيب الملحقة بالقصور ثم كتاتيب القرى وحلقات المساجد بعد ذلك ثم المدارس التقليدية إلى المدارس الحديثة والجامعات الحكومية والخاصة.

والنقلة التعليمية بعد الثورة تعد وحدها ثورة أو طفرة لأنها خلال سنوات قليلة، ضاعفت من عدد المستفيدين من العملية التعليمية للبنين

والبنات، وما تزال هذه المهمة تمضى بقوة وتتفق عليها الدولة كل عام فى حدود ٢٠ مليارا من الجنيهات وربما كانت ميزانية التعليم هى أعلى ميزانيات الوزارات جميعا بما يكشف عن رسوخ الإيمان بأن العلم والتعليم والمعرفة هى الأسلحة الحقيقية الحامية لمصر ولأبنائها وهى الحد الأدنى المضمون من الإعداد للمستقبل.. ولو أصاب النقص أية عملية تنموية لأمكن تداركه، أما الذى يصيب العملية التعليمية فهو خسارة فادحة وهزة ثقيلة لقلب التنمية النابض، وليس من شك أن الجميع حتى الأميين والبسطاء يعلمون عن فطرة وحدس أن متلقى العلم شخص مختلف والمعلم نبى والمدرسة مسجد، والمسجد مدرسة والعملية فى مجملها مقدسة وجديرة بالاحترام والتقدير والتشجيع والحماية بكل غال ونفيس، ومن العار فى أمة أن يمس المدرسة أو المدرس ضرر أو يلحقه أذى أو نقص أو تعكر صفوه حاجة أو يداهمه هم.

والمدرسة ليست لتعليم الحساب والجغرافيا والتاريخ والفيزياء والكيمياء وغيرها، ولو كانت كذلك ما ذهب الأولاد إلى المدارس، واستطاع الآباء أداء المهمة التعليمية بأنفسهم أو بالاستعانة بالمدرسين، ولكن المهمة شاملة والدور الذى أنيط بالمدرسة فى العصر الحديث كامل وعام، وغدا التلميذ وهو كتلة من اللحم والإحساس كمادة خام يسلم للمدرسة كى يخرج فى النهاية مواطنًا صالحا تمتع بالتعليم والتثقيف والتربية والرياضة والتنوير، وتجرع رحيق الوطنية والانتماء وتدرب على الحرية والديمقراطية واحترام الآخر وتعلم كيف يحافظ على القيم ويدافع عنها، وعرف كيف يشحذ إرادته وكيف يقاوم كل أنواع الظلم

وفى المدرسة يمارس الفنون كلها ويتعلم أصولها وجدواها وأثرها فى العقل والوجدان، ويكتشف القائمون عليها مواهبه ويتولون رعايتها وتطويرها وإعطائه الفرصة للتعبير

وفى المدرسة يتعلم التعاون والتضامن وسبل الاسعاف والانقاذ ويتعرف أشكال خدمة المجتمع وتنميته والحفاظ على البيئة والإحساس

بالجمال وتقديس الأديان جميعها وعدم المساس بها، ولابد أن يتعلم أدب الحوار والشجاعة الأدبية وتقديس العلم، ويبحث عنه طوال عمره ويسعى إليه ويحترم معلمه أينما كان.. كل ذلك وأكثر منه تزرعه المدرسة فى أولادها الذين سيخرجون فى نهاية الأعوام المقررة لتلقى العلم وليحملوا المسئوليات، ويتولوا الوظائف ويعملوا فى خدمة المجتمع ويصعدوا سلم الترقى لتزدادعليهم المسئوليات والتبعات والمهام، وهم بما تعلموا قادرون على تطويرها ورفع مستوى الأداء فيها، لأن اليوم ليس كالأمس والغد ليس كاليوم والفضل للعلم والمعلم والمتعلم، لأن المدرسة عمل مستقبلى بطبيعته وليس مهمة آنية أو متخصصة تعلم النشء مافات.

فأين دور العلم فى مصر مما سبق ذكره؟.. سؤال غاية فى الحرج، ومعذور كل من يتهرب من الإجابة عليه، ومع ذلك لامناص من محاولة الاقتراب.

* لابد من الاعتراف أولا أن الكثافة السكانية تمثل ضغطا مرضيا على العملية التعليمية وتضر بكفاءة الأداء والاستيعاب وتؤدى إلى نقص الفرص المتاحة لكل طالب كى يتلقى محاصيل المؤسسة التعليمية بشكل كامل ودقيق ومؤثر، ومن ثم فالنتائج تقوم على مقدمات والغايات تتطلب وسائل، ولابد إذن من العمل بكل الطاقة لخفض الزيادة السكانية إلى ١٪ خلال خمس سنوات على الأكثر حتى نملك القدرة على تجويد المحصول التعليمى لا الكم حامل الشهادات.

عناصر العملية التعليمية أربعة (مدرسة ـ هيئة تعليمية ـ طالب ـ علم) العناصر الأول : المدرسة .. و معظم المدارس فى بلادنا.. من حيث هى مكان وتأثيث ومساحات للأنشطة وعلاقتها بالبيئة.. عليها مسالب كثيرة، فمنها الضيق المخنوق ومنها الذى يخلو من المساحة اللائقة والغرف المخصصة للأنشطة، ومعظمها ذات دورات مياه سيئة، وحجرات للدرس غير جيدة أو غير صحية، وبيئة محيطة مملوءة بالقاذورات والمهملات أو المستنقعات.

* العنصر الثانى: الهيئة التعليمية، وتبدأ بالمدير والناظر، ومن المديرين من لايعبأون بكرامة المدرسة والمدرس، ومنهم من لايرى إلا الأموال ويسيل لعابه إليها بلا توقف، ولا يحرص على سلامة الأداء التعليمى وما يعنيه هو الحضور والانصراف وقعود التلاميذ على المقاعد والتزام المدرسين دون متابعة للكيف، ومن المدرسين من يدخن ويبصق ويثرثر ويلهو ويسخر دون أن يتنبه لدوره كقدوة، ولايهتم ببناء شخصيته بالعلم والثقافة والخلق الكريم وعزة النفس، بل منهم من يتذلل للطالب كى يقبل انضمامه للمجموعة أو الحصول على درس خصوصى، ومنهم من لايهتم بالتربية وتعليم القيم واحترامها.. ويهمه فقط أن يلقى فصلا من المقرر مثل جهاز التسجيل غير محتفل بمن فهم ومن لم يفهم.

العنصر الثالث: الطالب، ليس المجال معنيا بالوقوف على أدائه لأن المسئولية عليه تأتى بعد الأسرة والمعلم، مع ذلك ننوه إلى ما يلاحظه الكثيرون على حال طالب اليوم فى الأغلب من التسيب وعدم الاعتداد بالعلم، والتفريط فى المعرفة والميل للهو والسخرية وتبديد الوقت فى غير نفع، وأكثرهم فى غفلة عن فائدة المدرسة وجدواها بالنسبة لمستقبله.

* العنصر الرابع: العلم.. وهنا تواجهنا مشكلة، فالسادة الموجهون وواضعو الكتب مخلصون جدا لدرجة أنهم يحشدون الكتب بكم هائل وتفصيلى مرهق بالمعارف والمعلومات، مع تكرار الشرح والإكثار من التفسير واستعراض الأمثلة، والاستطراد وسيطرة الإنشائية على أغلب المقررات.

إنهم يريدون من خلال الكتاب الواحد أن يكفى التلميذ ويغنيه عن كل المواد لعدة سنوات.. وهذه مسألة موضع شك وتحفظ من جانبنا على الأقل لأنها تعد منافية للنواحى النفسية والعقلية للمستويات العمرية للطالب، فضلا عن قدراته، فى ظل ثورة الاتصالات وحصار التكنولوجيا وإهمال الأسرة وهيمنة الإعلام، وتقاعس معظم المدرسين عن بذل الجهد وكثرة الطلاب فى الفصل الواحد، وقلة الوقت المتاح للمذاكرة.

الأمـر الـذى يلجـأ مـعـه المدرس لطريقـة الحشـو والتلقـين.. ويضطر الطالب معها إلى تقبلها كما هـى دون فهم، والاعتماد على القبض عليها حفظا ومن ثم لايهضمها ولاتتسلل إلى بنيته العقلية، وتظل خارج استيعابه كأنها جسم غريب، أو كأنها جسم يحمله على صدره أو ظهره مثل حقيبته التى لاتمتزج أبدا بروحه وتظل غريبة عنه.. ومن ثم تمر الشهور والسنوات والتلميذ لا ينمو ولايتطور فكرياً أو معـرفيا. ويتخرج من الجامعة وفى عقله أو ذاكرته ما لا يزيد على ٥٪ من معلومات وأفكار طرحها عليه المدرسون فى مختلف المراحل.

وهكذا نكتشف أن كل ما لدى أبنائنا قشور أو القليل مما لايقيم أمة..

وغنى عن البيان أن المسألة الأساسية فى التعليم هى إعانة العقل على أن يفهم ويستوعب ويتدرب على تأمل ما يتلقاه ويحاول تقييمه ونقده والحوار حوله، وخلق الدافعية للتعلم وحب العلم بوصفه عملا رائعا وممتعا، وبث الحماس للتفوق، وتشجيع المثابرة ومواجهة العقبات وممارسة المواهب واكتشافها واستنفار الرغبة فى الابتكار والإبداع.

المدرسة مشتل يتم تجهيز الطالب أو الطفل فيه لينمو ويترعرع ويصبح بعد ذلك قادرا على الإثمار، وإشاعة الجمال والظل والأكسوجين ومحطة لراحة الطيور والعصافير وغير ذلك من النفع، فهل فى المدارس فرق موسيقية أو تعليم لممارسة ذلك الفن الجميل الذى يرقق المشاعر ويرهف الأحاسيس ويرتقى بالذوق، من النادر أن تجد ذلك.. فهل ثمة ممارسة للتمثيل أو للرياضة بكافة أنواعها.. هل هناك رحلات علمية وثقافية..؟ نادرا.. هل هناك معسكرات ومخيمات وكشافة وجوالة؟.. نادرا.. هل هناك نشاط للمكتبة ومسابقات فى الشعر والقصة.. هل هناك محاولات لتعليم التلميذ كيف يقرأ؟. حسب علمى اختفى كل ذلك، فما الذى بقى إذن، لتصبح المدرسة منارة للإشعاع ومعمل لتفريخ رجال المستقبل؟ طبعا لا ننكر أن يكون من ذلك شىء هنا أو هناك.. لكن النسبة ضئيلة للغاية والأداء صورى وشكلى.

إن المدرسة فى الأغلب تقوم بدور سلبى، غير عادى تجاه اللغة العربية، لأنها من خلال المناهج والمقررات وطرق التدريس تعمل وتشجع الطلاب على كراهية اللغة العربية، ولو أقسم المسئولون على أنهم بذلوا الجهد ليتجنبوا هذا المصير فلن يصدقهم أحد . لأن القضية واضحة ولا تحتاج إلى جهد، فيكفى النظر إلى محتويات كتب اللغة العربية لنفاجأ بأن من وضعوها يغفلون عن شىء غاية فى الأهمية ومعروف لدى أقرانهم فى العالم أجمع، وهو أن اللغة بالذات تحتاج إلى فتح شهية وتشويق ويتم ذلك من خلال النماذج الأدبية.. والسادة الأفاضل واضعو الكتب بحثوا عن أصعب وأعقد النصوص فقرروها على طلاب المراحل المبكرة وهبطوا تدريجيا مع مرور السنوت إلى النصوص السهلة.. والعكس هو الصحيح.

المفترض أن أقدم للصغار أبسط الأساليب وأكثرها جاذبية مع تدريب على القراءة، وفهم المعانى وبيان مواطن الجمال فى التراكيب والمفردات والصور وأهمية الخيال وغيرها من السمات الأدبية فى النص، ومن ثم يحب التلميذ الأدب ويحب اللغة ويحرص على التعرف على قواعدها وثانيا: أين القصة والرواية.. هل كفاح مصر رواية، وهل كتاب أحمد شوقى رواية؟. أو الشيخان أو عمربن الخطاب.. لماذا لا تدرس رواية كالأيام أو عودة الروح أو أحد أعمال نجيب محفوظ أو عبد الحليم عبد الله.. ولماذا لا تدرس قصص لبهاء طاهر أو يوسف إدريس أو فتحى غانم وغيرهم..

المناهج المقررة على الطلبة تكاد تخلو من الإبداع الجميل، والغريب أنهم يدرسونه فى المرحلة الثانوية.. ويتعلمون أصول القصة والرواية ويتعرفون على أبرز أعلامها.

مرة أخرى نقول: إن وزارة التربية تدفع إلى كراهية اللغة العربية.. يقول جون جاردنر فى كتابه «التميز» الذى ترجمه المربى الجليل الدكتور محمد محمود رضوان صـ ١١٩.

«فى صبيحة كل يوم مدرسى يسارع ٤٤ مليون طفل أمريكى إلى مدارسهم، ومع هؤلاء الذاهبين يذهب عدة رؤساء للولايات المتحدة وعشرات القضاة والوزراء وعدد كبير من المخترعين والعلماء ومثلهم من أفضل القيادات»، وهو يقصد أن المدرسة هى المختصة بذلك.. فهل يمكن أن نتصور حدوث ذلك فى المدارس المصرية؟ أنا لا أتصور إمكانا حدوث ذلك على الإطلاق، بل العكس هو المتاح أمامنا حيث الإدمان فى المدارس والغش وسوء التربية وغياب القدوة ومواصلة الاعتداءات على أنفسهم وعلى أجهزة المدارس وانتقلت الجنازير والسكاكين إلى حرم المدارس.

الدروس الخصوصية مهزلة يجب أن تتوقف بكل الوسائل وأحسب أن القنوات التليفزيونية والمحطات الإذاعية التعليمية يمكن أن تنهى المهمة وتنقذ التعليم من هذا المأزق الشرس الذى لا يضر فقط بميزانية الأسرة المصرية، ولكنه يضرب العلاقة بين المدرس والطالب فى الصميم، فضلا عن أنه يحول المدرس إلى تاجر، ويرسخ فكرة الحشو والتلقين.

إن التخلص من وباء الدروس الخصوصية سوف يتيح للمدرس الفرصة كى يشرح جيدا وأن يكون قدوة وأن يتفرغ قليلا لتربية التلاميذ على احترام القيم وحب العلم والأدب والفن.

إذا كان قد قيل إن الدولة تنفق على تعليم الطالب فى المراحل الإبتدائية والإعدادية والثانوية كل عام ٧٠٠ جنيه، فهل يصل هذا المبلغ فعلا إليه.. أنا أشك لأنى أعرف عددا من النظار ومديرى المدارس يستولون على الأموال المخصصة للأنشطة الفنية والثقافية والرياضية، وما هو قائم مجرد هياكل للتصوير وأوهام للمسئولين ولا يصل الدعم لمستحقيه. ورغم ذلك فإن عدد الطلاب فى مصر يصل إلى نحو ١٥ مليون، هذا يعنى أن ما ينفق عليهم فى حدود عشرة مليارات، وإذا كانت الميزانية ٢٠ مليار فأين العشرة الأخرى هل كلها للمصروف الإدارية!!

◆ نسبة التسرب فى التعليم حوالى ١٨٪ حسب بيانات الجهاز المركزى للاحصاء وأبحاث المجلس القومى للسكان، ألا تعد هذه النسبة مخيفة ومثيرة للتساؤل والدهشة؟، وفى الوقت نفسه ماذا تم للقضاء عليها؟.

- الإنفاق على البحث العلمى، معظمه أجور وبدلات وتجهيزات
- نسبة الأمية فى مصر لا تقل عن ٤٠٪
- ضعف آليات الاستفادة من علماء المهجر.
- لا توجد أية رعاية أو معاونة أو متابعة للمخترعين المصريين
- لا يوجد استثمار لما ابتكروا ولا تطبيق للبحوث ومصيرها الحفظ
- الاهتمام بالثقافة العلمية محدود للغاية ولا توجد مسابقات أو محاضرات أو اهتمام بهذا المجال فى مختلف الهيئات المعنية.

موجز القول المراد أن إسهامات كبيرة تمت فى مجال التعليم، لكنها فى الأغلب مادية.. منشآت وأجهزة.. لكن التنمية الحقيقية للموارد البشرية لاتزال مفتقدة إن لم تكن فى نقص وتراجع.

هل فى مصر ثقافة..؟؟

تعددت المفاهيم التى تحاول تفسير أو تحديد معنى كلمة ثقافة، وما يزال أقدمها الذى ذهب تيلور إليه هو السائد رغم محاولة الكثيرين الثورة عليه.. يقول تايلور فى كتابه (الثقافة البدائية) ١٨٧١.

الثقافة أو الحضارة بالمعنى الأثنوجرافى الواسع هى ذلك المركب الذى يتضمن: المعرفة. المعتقد. الفن. الأخلاق. القانون. العادات. أى قدرات أومهارات يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا فى جماعة.

وأول ما يلحظ المرء على هذا التعريف قوله فى أول عبارة: الثقافة أو الحضارة، وأحسب أن هذا المرادف يسهل وصولنا إلى معنى الثقافة الذى يرتبط بل يمثل الحضارة فالمثقف يفترض أنه متحضر.. نقول ذلك لضبابية كلمة ثقافة فى نظر كثير من القراء وشعبية كلمة حضارة، وإمكانية توفر الفهم النسبى لا.. مع إقرارنا بأن ثمة فارقا بين الكلمتين.

الثقافة مثل الحضارة سلوك إيجابى يميز شخصا عن آخر أو مجتمعا عن آخر.. وكما أشار تايلور فإن من عناصر الثقافة الدين أو المعتقد ومنها الفنون والآداب، وكلما تقدمت شعوب فى هذا المجال علا كعبها فى مجال الثقافة، ومن ذلك القانون وهو رافد محورى من روافد التحضر، ومن لا يعترف بالقانون يكشف عن المسافة التى تفصل بينه وبين الثقافة.

ومن يفتقر إلى الأخلاق يقترب من البدائية أو الحيوانية ومن يتسم بها يدنو من التحضر ويندرج تحت قائمة أصحاب الثقافة.

ولأن المعلوماتية أصبحت من سمات العصر، وهى لا شك دلالة على الثقافة والمعرفة. لكنها ثقافة نوعية أو شخصية، ولا تحتسب ضمن التحضر إلا بقدر ما تضيف لصاحبها وتصقل شخصيته وسلوكه وترفع مستوى العلاقة مع الآخر، والصعود إلى القمر معرفة، ولكنها لاتعد من الثقافة كما سبقت الاشارة إلا بقدر ما تساهم فى رؤية الآخر وتقريب المسافات الإنسانية وترسيخ القيم وتحقيق التواصل بين البشر.

من ذلك بعض ما يصدر عن أمريكا من أداء دولى، فما يحسب لصالح الإنسانية يعد تحضرا وثقافة وما ترتكبه هنا وهناك من حماقات مثل دعمها للعدو الصهيونى المحتل والمغتصب، لايمكن النظر إليه من نفس المنظور، وهجومها على العراق وتجسسها على الصين وتحديها الدائم ومحاربتها لكوبا، واحتكارها لبعض السلع وتشجيعها لتمزيق السودان.. سلوك معاد للإنسانية، وقراراتها فى الأغلب متضاربة وتكيل بمكيالين وتضطرب خططها بما يضر بمصداقيتها بين دول العالم.

- والثقافة فى اللغة العربية تعنى الصقل والتهذيب، فالذى يثقف السيف فإنه يصقله ويحده بعد أن كان مجرد قضيب من الحديد الخام.. وكل من يفتقر للثقافة فهو جاهل وبدائى.. وإن كان هناك جاهل هادىء أو جاهل مغرور أو جاهل يعلم أنه جاهل فيتواضع، وجاهل مدع متغطرس تخدعه القوة فيسلك سلوكا بدائيا وحشيا.

ولا أدرى السر فى أن كلمة ثقافة بالإنجليزية هى نفسها كلمة Culure أى زراعة، وهى كلمة دقيقة ودلالتها جيدة، لأن الثقافة فى الأصل زراعة كل ماهو جيد من السلوك، والزراعة نفسها تثقيف للأرض.

وهكذا - فيما أعتقد - اتضح معنى كلمة ثقافة أو حضارة، ونتحول الآن لنسأل سؤالنا المهم: إلى أى مدى يمكننا القول إن الشعب المصرى فى مجمله مثقف؟

أفضل ألا نبدأ بالإجابة الاجتهادية التى تتبدى فى يسر لبعض القراء المتابعين والمثقفين والصحفيين والمفكرين، وأرى الوقوف قليلا عند كل عنصر من العناصر التى عددها تايلور، أو على بعض العناصر الرئيسية غير التى تناولناها فى فصول أخرى مثل المعتقد والأخلاق، وأرى أنه لا مناص من التمهل لبعض الأسطر لتأمل الموقف المصرى إزاء عناصر مثل: الفنون والآداب.. المعرفة.. العادات والقدرات.

المعرفة والمعلومات

من البدهى أن الحديث يتناول النسبة الغالبة، وعندما نقول إن الشعب المصرى مثقف، أى غالبيته، والعكس يقصد به أيضا معظمه.

ويذكر القراء أن عشرات الاستبيانات التى أجراها عدد من المراكز الثقافية وكذلك البرامج الثقافية بقنوات التليفزيون وبمحطات الإذاعة قد أجرت العديد ولازالت تجرى الكثير من المسابقات بين الجماهير السائرين فى الشوارع والجالسين فى الحدائق وعبر الهواتف، تسألهم عن تاريخ بلادهم وعن النجوم والكواكب وعن الشخصيات العامة سياسية وعلمية وتاريخية، وعن عواصم الدول ورؤسائها وعن المخترعين وقواد الجيوش والمواقع الشهيرة وأهم الأحداث العالميه وتواريخها، وعن جسم الإنسان والحيوانات والطيور والزهور وغيرها من المعلومات التى يتعين على كل شخص يعيش العصر أن يعرفها، فيروعنا للأسف أن خريجى الجامعات لا تزيد إجاباتهم الصحيحة عن ٥٪ إلا فى حالات كرة القدم والمسلسلات والأفلام والأغانى فالنسبة تصل إلى ٧٠٪، أما عموم الجمهور، فالمعلومات العامة غائبة تماما

معظم أفراد الشعب يعرفون كم مرة تزوجت شادية ومن هم الذين تزوجتهم ويعرفون أية مشكلة مرت بها يسرا والهام شاهين وهالة صدقى، وحسام حسن وإبراهيم سعيد، ويعرفون ماذا يحب هؤلاء من ألوان الطعام

والشراب وما يفضلون من الأزياء، ولايعرفون من هو محمد عبد الفتاح القصاص أو ذهنى فراج أو رشدى سعيد، وقليل منهم يعرف جمال حمدان ومصطفى مشرفه وعلى إبراهيم ونجيب محفوظ الطبيب، وهم لا يعرفون معظم علماء العالم عبر التاريخ، وكثير منهم لا يعرف على بك الكبيروعيسى العوام وسليمان الحلبى وسلامة موسى ولا الكواكبى أو حتى عقبة بن نافع أو الجبرتى والمقريزى والمتنبى أشعر شعراء العربية، بل إن معظم المعلومات التى تلقاها طلبة الجامعات فى كل مراحل التعليم تم محوها برغبتهم لأنهم خاصة أبناء الربع الأخير من القرن العشرين أصبحوا يضيقون بالعلم والمعلومات والمعرفة، وهى مسألة فى غاية الخطورة، ولابد أن تشتمل كل المسابقات التى تنظمها الجهات الإدارية الحكومية والخاصة لتعيين الموظفين على أسئلة فى المعلومات والثقافة العامة وتسهم فى ذلك أيضا وبشكل مستمر قنوات التليفزيون والمحطات الإذاعية مع توزيع بعض المكافآت التشجيعية.

ومن غريب الأمر الذى يدل على عدم الإحساس بالمسئولية إزاء هذه الأمة تزايد المسابقات فى الفترة الأخيرة بالتليفزيون، حتى لتكاد تكون مع كل برنامج، لكن الغرض منها مادى مبتذل ورخيص وليس ثقافيا.. لأن المعلن عن المسابقة هو شركة التليفون المحمول التى تطلب الإجابة على سؤال فى غاية التفاهة وتدعو للاتصال من تليفون محمول على رقم كذا.. فلو فرضنا.. إن المتصلين عشرين ألفا سيدفعون ثلاثين ألف جنيه، بواقع مكالمة واحدة ثمنها ١٫٥ جنيه ثم يحصل فائز واحد بالجائزة وقدرها ألف جنيه أو خمسمائة.. فهل تحقق الغرض الثقافى؟.. نعم.. تحقق بالسلب أى بترسيخ التفاهة، والتليفزيون كأنه بلا قيادة توجهه أو تحدد أهدافه.. يعرض الإعلان لأنه سيفيد ألفا أو ألفين مقابل الإعلان.

لايمنع هذا الإشادة ببرامج أخرى تنفذ لحساب شركات معلنة وبها مسابقات جادة مثل الجائزة الكبرى وغيرها.

بالإمكان إذن الانتهاء إلى القول بأن الشعب المصرى من هذه الناحية محدود الثقافة.. قليل المعلومات وخاصة المعلومات المصرية والعربية.. وقليلون جدا من يعرفون شيئا عن موريتانيا والصومال وجيبوتى وقليلون من يعرفون شيئا عن تاريخ فلسطين ومعظم الشعوب العربية

ماذا يعرف المصريون عن الحيوانات والطيور، الكثرة لا تعرف الفرق بين العصفور والبلبل والكروان والأنواع الأخرى، ولا تعرف الورود أو الزهور وأنواعها وألوانها وشكل بذورها . بل أن الكثيرين لا يعرفون شكل أوراق المحاصيل التى يأكلونها، وأنواع الكلاب والقطط والقرود وطباعها.. لايعنيهم كل ذلك لأنهم مشغولون بالأعمال العظيمة التى يمارسونها.. فى المقاهى وفى الشوارع وعلى النواصى كما أنهم مشغولون بالنميمة والاغتياب وما يتبقى فهو من نصيب البرامج التافهة والأغانى فى التليفزيون.

القدرات الخاصة:

القدرات هى المهارت التى تتبدى من خلال ممارسة الهوايات والألعاب.. ومن قبيل ذلك مهارة العزف على إحدى الآلات الموسيقية.. أو الرسم والتصوير والأعمال الخشبية الصغيرة مثل عمل أدوات المكتب والميداليات وأدوات الزينة، أو الكبيرة مثل صناعة الكراسى والديكورات.. والألعاب المسلية مثل الشطرنج.. وهناك الألعاب الخطرة والسباحة والرحلات وكل نشاط لايستهدف الربح بالدرجة الأولى.

المؤسف فى الأمر أن فكرة قضاء الوقت فى نشاط غير ذى عائد مادى تكاد تكون غير واردة لدى المصريين شئ له ثمن، ولابد أن يكون كذلك.. حتى الألعاب التى يمارسونها كالكوتشينة والطاولة والدومينو يغلب عليهم تنظيمها أو ممارستها على أساس المقابل والمراهنة، ومعظم هذه الألعاب قميدة واستخدام العقل فيها محدود، فالشطرنج مثلا غير شائع،

وبالطبع لا توجد ألعاب مثل القوارب ذات الشراع أو الطيران أو القفز بالمظلات أو تسلق الجبال، أو مهارات تحتاج إلى الصبر كأن يبنى شخص تمثالا مشابها لتمثال رمسيس من عيدان الكبريت أو يقيم مدينة كالإسكندرية على مساحة عشرة أمتار فى حديقة، أو يرسم مناظر كبيرة جدارية على أسوار بيته أو على جدران المدينة، وأسوار الأماكن العامة والجهات الحكومية كالمدارس ومراكز الشباب والنوادى والمستشفيات وبدلا من ذلك يتم تأجيرها دكاكين.

الأغرب أن فكرة الهواية نفسها غير قائمة وهو عيب حضارى لا أدرى لماذا لم يلفت النظر ويستثير التساؤل، بل ويثير الفزع، لأن الإنسان البدائى كانت لديه هوايات، ومختلف الألعاب بدأت كهوايات ثم تقننت ووضعت لها المعايير واندفع الناس للمنافسة فيها.

قد يقال أن المصريين فى الأغلب فقراء تدفعهم ظروف المعيشة للعمل المتواصل، والمزيد من العمل سعيا وراء دخول إضافية لتوفير المتطلبات الضرورية، ولا يستطيع المتابع لطبيعة الحياة المصرية أن يختلف كثيرا مع هذا الرأى، لكن ثمة تحفظ يلزم التنويه به، وهو أن الاغلبية من المصريين محدودة الدخل حقا، لكنهم نوعان أو فئتان.

فئة لاتملك الوقت فعلا للهوايات بسبب صعوبة ظروفها واحتياجها الحقيقى الدائم للعمل وعوائده.

وفئة طيبة الدخل، وهو يكفى وزيادة، لكنها هى التى تحاول ألا تجعله كافيا، لأنها لم تعرف معنى الهواية، بل لم تعرف المعنى الحقيقى للحياة من حيث أنها معرفة واستمتاع وممارسة واكتشاف.. مادة وروح.. المادة هى العمل و استهلاك دخله، والروح هى التواصل الاجتماعى وممارسة الهواية المحببة.. كالفن وتربية العصافير والنباتات والزهور.. جمع المقتنيات الغريبة.. ممارسة الرياضة.. الاقبال على القراءة.

هذه الفئة هى التى لم تتعلم معنى الهواية وأهميتها، لم يتم تربيتها فى المنزل ومع أفـراد الأسـرة ولا فى المدارس على الأنشطة الفنيـة والرياضيـة، ولم تدرك مدى حلاوة الهـوايات وتأثيـرهاعلى النفس، وقد يستفاد ماديا منها مستقبلا.. وهكذا مضت هذه الفئة تبدد وقتها وتقلد غيرها فى الاستهلاك، دون توجيه أى أعتبار للهواية.. ويكفى أن نسأل كم مصرى ذهب إلى آثار بلاده وتأملها وحاول بصدق التعرف عليها؟؟

هذا عن الأغلبية، فماذا عن الأقلية التى قيل أنها من الأغنياء.. هل يمـارس أفـرادها الهـوايات.. قلة نادرة لا تتـجاوز ٥٪ قـد تقـرأ أو تقـوم برحلات.

إن القضية ليست الفقر والثراء، القضية هى التعود والتربية، لم تقم الأسـرة بدور فى هذا السبيل لأنها تفتقده، ولم تقم المدرسة بدور فى هذا السبيل، لأن مدرسيها يفتقرون إليه إلا قليلا منهم، والأمر فى كل الأحوال لا يدل بأى درجة على أن هناك هوايات تمارس ويتنافس فيها أفرادها أو يتبادلون معلوماتها وثقافتها، ويسرعون إليها حين الفراغ من الأعمال والأعباء.

آمل أن تحظى هذه القضيـة بالاهتـمام والدراسـة ووضع تصـورات لكيفية تشجيع الجماهير على ممارسة الهوايات وإثبات الذوات من خلالها لأن غيابها معناه غياب الميول والاهتمـامات وضياع وقت الفـراغ بلانفع مادى أو معنوى، فضلا عن الشعور بالملل والاكتفاء بالاستسلام للتليفزيون وغيره من مبددات الوقت وقاتلات الخيال..

قد تكون هناك بقايا من عادة القـراءة لكنها تراجعت عند البعض واقتصرت لدى البعض على الصحف.. وتحتاج هى الأخرى إلى إحياء وتشجيع وجذب من أجل إنسان الغد، لأن إنسان اليوم لا يعرف كيف يقضى إجازته ويستمتع بوقته ليتجدد ويعرف ويتعارف ويعود لعمله بشوق ولهفة، ولعل هذا هو السبب فى انتشار الخمول الذى يسببه القعود والتركيز على تناول الأطعمة والمشروبات.

ثقافة الحياة

تتضمن احترام البيئة. النظافة. الإحساس بالجمال. النظام. وقد عرف عن المصرى أنه لا يقيم كبير وزن للبيئة التى يعيش فيها، لأنه من ناحية لا يدرك عواقب الإساءة إليها أوروعة احترامها.. وإذا أدرك يتكاسل فى الأغلب عن أداء حقوقها عليه.. وهو بالتأكيد لا يعلم أن ألف باء أى تقدم أو حضارة هى النظافة.. النظافة،

السبب فى ذلك.. غياب ثقافة الجمال، أو الإحساس به، إلا قليلا منهم، وقد نجد فى هذا السياق أمورا متناقضة، ويروعك سلوكان يصدران عن شخص واحد، فهو قد أنفق على دكانه آلاف الجنيهات من أجل الديكورات واللافتة والإعلانات ومختلف الزينات، لكنه قد يبصق على الأرض أو فى الشارع.. ومعظم المصريين يلقون القمامة فى الطريق وفى الميادين، وإذا زاروا الحدائق تركوها قاعا صفصفا، ولم يتعلم الأولاد احترام الزهور والرضا بجمالها والحرص على حمايتها، وأيسر عمل يقدم عليه الأولاد وخاصة أبناء المدارس هو تمزيق الورود، وإذا وجدوا فى الأرض جريدة أو ورقة مزقوها مئات الشظايا ونثروها، فإذا الطريق النظيف الذى أنفق العمال نهارهم فى كنسه أصبح قذرا ومشوها.. ولاتسأل عن حالة دورات المياه فى كل مدرسة وكل مؤسسة؟

وموقف المصرى من النظام ليس أفضل من النظافة.. فهو يتمرد على الطوابير وعلى المواعيد وعلى الأنصبة، وعلى الدور.. يميل فى الأغلب إلى الفوضى.. القليل يحترم إشارة المرور، وإذا وقف بدا متململا مستاء، ويجتاز السائق بسيارته من اليمين ومن اليسار، ودون إشارة، لايهم.. واستخدامه لآلات التنبية يكشف عن تخلف مؤكد، والنداءات العالية لا تحترم المرضى أو الطلبة أو النائمين.. آلات تنبيه يضربها شاب لزميله ساكن الدور التاسع، يقلق الحى كله.. وإذا تحدث شخصان رفعا عقيرتيهما، أو انتظر كل منهما حتى يبتعد ثم يناديه ويكملا الحديث عن

بعد.. أما المأساة الحقيقية فتتجلى فيما يسمى البوفية المفتوح.. فى بعض المطاعم أو الفنادق والأفراح.. الكل يتقاتل ويتدافع بالمناكب والأذرع. ويحمل الفرد منهم كمية تكفى لخمسة، ويأكل جزءا منها ويترك الباقى ليرمى فى صناديق القمامة.. لا يحس بنفسه ولا بالآخر ولا بالتكاليف ولا بالإسراف.. ولا يتذكر آيات القرآن التى يهتز عند سماعها.

الشوارع بالقاهرة وبعض المدن المصرية تكاد تخلو من صناديق القمامة الصغيرة والكبيرة.. ويحتار السائر أحيانا أين يلقى ما معه، وهذه مسئولية رؤساء الأحياء ومجلس المدن والمجالس الشعبية والمحلية.. لا يجب أن تترك فرصة للتملل بعدم وجود الصناديق.

وعن الأزياء والمهرجانات المشوهة حدث ولا حرج.. فالمفترض أن لكل مهنة أزياء تميزها خاصة الطلبة والسائقين.. لماذا لا يكون لسائقى النقل والأجرة أزياء خاصة. وبالذات سائقى اتوبيسات النقل العام.. ولماذا لا ينبه الكمسارى أن الركوب بالدور ولابد من النظام والترتيب.. ولماذا لا يطلب عسكرى المرور من المشاه العبور من أماكن عبور المشاه.. فوضى وتشوهات.

إن مشهد الميادين المصرية فى الأغلب منظر سىء وقمة فى التخلف ويخلو من الجماليات، والتماثيل والنباتات والزهور فضلا عن حركة المرور التى تشبه السوق حيث يختلط بها كل شىء من الحمير إلى المرسيدس ومن الشحاذين إلى الجميلات وطرقات الكعوب العالية.. صورة تكشف عن مدى الإهمال من الجميع.

الفنون والآداب

تشمل الفنون: المسرح والسينما والموسيقى والأغانى والمسلسلات والفنون الشعبية والتشكيلية وتشمل الآداب: الشعر والقصة والمسرح والنقد والرواية وأداب الطفل والترجمة والأدب الشعبى.

أولا: الفنون

لن نتوقف كثيرا عند كل مجال، فالحالة معروفة، المسرح مثلا غير مزدهر، لكن ذلك لايمنع من وجود عروض جيدة تطالعنا بين الحين والحين من خلال البيوت المسرحية الحكومية.

أما القطاع الخاص فهو يعنى بالربح وهدفه تجارى محض ومن ثم يدهس القيم ويضرب بالثقافة والمجتمع عرض الحائط، المهم أن يحقق مكسبا كبيرا يرضى النجوم ويستمر عدة أسابيع أو شهور، ولاتزال مشكلة المسرح عموما فى حاجة إلى فك ألغازها وإن كانت فيما يبدو جزءا من مشكلات الثقافة بشكل عام، لكن إقرارنا بهذا لن يمنع المخلصين للمسرح من التفكير فيه ومعاونته على اجتياز النفق.

أما السينما، فليست فى حاجة إلى رأى لأن ٩٠٪ من الأفلام إن لم يكن كلها تافه وسخيف وسطحى، والقائمون عليها لا يعنيهم الفكر ولا الفن ولا المجتمع ومشاكله ولا القيم ولا المقاومة ولا التطلع إلى المجد ولا الخيال ولا المهرجانات.. وأسوأ العهود السينمائية على مدى مائة عام هو العهد الحالى.. والدولة ممثلة فى وزارة الثقافة لا تتحرك ولاتهتم وتنسى أن السينما كانت من أهم معالم مجدنا الثقافى فى الوطن العربى.

الأغانى: لا تعليق

الموسيقى: فرصتها محدودة

المسلسلات: أغلبها ثرثرة وتجارة وحوارات سطحية وأخطاء كثيرة فى السيناريو والإخراج، وكثيرا منها لا علاقة له بالمجتمع ومشكلاته ولا يتوخى الإجابة على أسئلة الحياة والإنسانية، وغير مشغول بتقديم رؤية فنية وفكرية لحاضر مصر ومستقبلها.. المهم تحقيق المكسب والشهرة

برامج المنوعات فى التليفزيون: تدعو للرثاء.. كلها مخصصة للحوار مع الأحباب من المطربين والممثلين، دون عروض فنية مبهرة وإعجازية كما نرى فى تليفزيونات العالم.

ثانيا الآداب

الشعر حائر بين كتابه، وهم ليسوا مخلصين له بشكل كاف.. الحياة تداعبهم وتراوغهم وهم يتصورون أنهم الأقدر على المراوغة ويجرجرون الشعر - ذلك النغم الجميل والقيثارة المحلقة - إلى الأزقة والمستنقعات.. فيتعثر ويقع ثم ينهض ويقع.. ثم

القصة: تقاوم وتحتاج إلى مزيد من العون

الرواية: فى ازدهار لكن النشر فى أزمة.. التشجيع غائب.. النقد ضاقت فى وجهه الدروب وأغلقت الأبواب، ولا أدب دون نقد.. والنقاد شغلتهم الصحافة والجامعة

أدب الطفل يمكن أن يزدهر مع النشر والجوائز.

الترجمة مزدهرة ولازال الأمل فى المزيد.

قصور وبيوت الثقافة

عددها فى مصر أربعمائة قصر وبيت، على فرض أنها تعمل بكل همة ونشاط وهذه مسألة تحتاج إلى بحث، فهل تتواءم مع عدد روادها البالغين عشرين مليونا على الأقل فى المرحلة العمرية بين ١٠ - ٣٠ سنة،. أى أن كل بيت يخدم ٥٠٠٠٠ مواطن (خمسين الفا)

ما الدور الذى يمكن أن يقوم به بيت ثقافة حتى لو عمل ليل نهار من أجل تثقيف هذا العدد، فما الحال والقاهرة بها أحياء كاملة، ليس بها بيت ثقافة واحد.

المفروض أن يكون هناك بيت ثقافة لكل مائة عمارة سكنية متوسطة الشقق والسكان، أو بيت ثقافة لكل ٥٠٠٠ نسمة فى العمر السابق ذكره (الطفولة والشباب) فضلا عن البقية من السكان صاحبة الحق الطبيعى فى الثقافة.

المسألة ليست إنفاق ٢٥ مليون على القصر الواحد (الإسماعيلية - الزقازيق الفيوم - المنيا - إسكندرية) المهم توافر المكتبات والمراسم وقاعات للعرض الفنى - ونزول إلى الجماهير والالتحام مع مشكلاتها ومعايشة قضاياها ونشر الثقافة الشعبية - ثقافة الحياة والسلوك والبحث عن الموهوبين

إن إنفاق ألوف المليارات على البنية الأساسية والمصانع والأنفاق والمشروعات والمبانى وتجهيزاتها لن يستمر ولن يفيد إلا بعد أن يتم التثقيف والتربية ،ورفع المستوى الوطنى والجمالى لدى الإنسان، حتى يعتبر قيمة مضافة للقوى والإمكانات وليس قيمة سالبة.. والمطلوب حضارة الإنسان لا حضارة المنشآت.

ومايزال السؤال ينتظر الإجابة.. هل فى مصر ثقافة؟

مشكلات مصر الرئيسية

تردد كثيرا فى الخطاب النهضوى المصرى طوال القرن العشرين، خاصة بعد الثورة أن الذى يهدد خطط التنمية هو الثلاثى الشهير: الفقر والجهل والمرض، وبعد الجهود الجبارة التى بذلت فى مقاومة ذلك العدو الشرس ذى الثلاث شعب، لم تأت نهاية القرن الماضى إلا وكانت الدولة قد تخلصت إلى حد كبير من هذا العدو وبقيت منه جيوب، إلا أن الجهل الذى كان يقصد به نقص التعليم لا يزال قائما وراسخا يمارس دوره بقوة وثقة، وبرغم توفر المؤسسات التعليمية أخذ الجهل يتمثل فى سلوكيات كثيرة ويصدر عن المتعلمين والمثقفين والمسئولين ورجال الأعمال ومعظم الفئات

لقد استطاع الجهل وحده أن يبقى وأن يجدد خلاياه ويطور من أساليبه ومنافذ ظهوره، لتتعدد فروعه وأشكال خدماته المدمرة.

وإذا كان الفقر والمرض قد تراجعا كثيرا فقد بقى الجهل ليؤسس مجموعة جديدة من المشكلات، ترتد كلها إليه وتنتمى لحزبه وهى زيادة السكان، كثرة الاستهلاك، الإدمان، وقلة التربية وتبديد الوقت.

هذه هى المشكلات الأساسية، والأبناء الكبار والشرعيون للجهل وتتفرع عن كل مشكلة، مئات المشكلات، وأحسب أن تعاملنا معها ساذج وسطحى وبطىء ولا يكشف عن درجة لائقة من الفزع الذى يتعين أن

يصيب كل فرد فينا ويحرمه النوم والراحة ويدفعه باستمرار للسؤال: ما السبيل للحل وما دورى فى ذلك؟

ماذا تم بشأن مشكلة زيادة السكان التى تهددنا فى الصميم؟ كانت نسبة الزيادة السنوية ٤ر٢٪ قامت الدولة وقعدت بالإعلانات والبرامج التليفزيونية والمراكز الصحية التى أنفق عليها مليارات الجنيهات لتصبح النسبة ١ر٢٪ ما معنى هذا؟ معناه الوحيد أننا نعبث ونكذب ونعيش دائما عالم الوهم الذى نستمرئه ونرتاح إليه ويحقق لنا الكثير من المتعة واللذة.

إن عدد السكان الذى يوشك أن يبلغ فى العام القادم ٧٠ مليون مواطن، يعيشون على ٥٪ من مساحة مصر التى تبلغ مليون كيلومتر مربع أى أنهم يسيرون ويعملون ويقيمون ويجرون بسياراتهم فوق خمسين ألف كيلو، بمعدل ٧٠ سم لكل مواطن فقط ٧٠سم.. يتحرك كل إنسان ويعمل وينجب ويسافر فى ٧٠سم.. النتيجة بالطبع هى القزمية.. المارد داخل القمقم، والنتيجة من الناحية العملية هى تدنى سمات وخصائص هذا الإنسان، وانكماش قدراته ومهاراته وتضاؤل مساحة عطائه وانعدام تطلعاته بالإضافة إلى محاولاته الدءوبة للتخلص من الضيق والكبت بالغضب والثورة والشجار والصراع. فضلا عن حقده إذا لاحظ أن شخصا أتيح له أن يتمتع بسنتمترات أكثر وبالتالى مزايا أفضل.

أين هى الفرصة المتاحة لممارسة الحياة، والطفولة المتطلعة للدنيا.. أين هى الحدائق التى ستجرى فيها.. لابد أن عليها فقط أن تحاول الاشتراك فى مارينا ودريم لاند وتلحق بعالم يمكنها من الاستمتاع بأوقاتها، وموقف الشباب صعب للغاية وأكاد أشعر أن هناك قنابل كثيرة ستنفجر لولا الادمان الذى وجد الشباب فيه الحل.. وهكذا يشيخ الشباب بدلا من أن ينفجر.

إن كثيرا من فئات الشعب لا تعيش الحياة ولا تدرك معنى الثقافة والجمال والصحة والحفاظ على البيئة وروعة الرياضة وممارسة الهوايات

شعب لا يمارس الهوايات.. ماذا يكون؟ ومادام لا يعرف كل هذا فلن يجود أى شىء ولن يحرص على التحسين والاتقان لأنه مجرد آلة أو ترس فيها.. شعب يفتقر تماما إلى البنيان الداخلى.. إلى النور المشع من الأعماق.. والأخطر أن أغلب الناس لا يشعرون أن هناك خطر يتهددنا، والسبب أن هناك مصادر كثيرة تقوم بدور فى تغييب الوعى وهشاشة الفكر وتسطيح الرؤية وعدم المواجهة الحاسمة للمشكلات

مشكلة السكان يتعين أن تتخذ بشأنها إجراءات حاسمة وجسورة، فمستقبل البلاد لا يجب تركه لعبة فى يد الجهلاء ومنهم من لا يزال ينتج عشرة وتسعة من الأولاد.. مستحيل.. إننا نلهو وسوف تحاسبنا الشعوب بشدة مهما بذلت وزارة الداخلية من جهود.

عشرة يعيشون فى غرفة فى قلب القاهرة ونحن نسعى لغزو الفضاء بالنايل سات. حرام والله.. حرام.. إننا نربى الجرائم فى الغرف.. والكل مدان حتى أنا.. والكتاب وأكبر المسئولين ورجال الدين وعلماء الاجتماع ووزراء التربية والتعليم والثقافة والشئون الاجتماعية والإدارة المحلية والجامعات والتليفزيون.الجهل متغلغل أيها السادة. ونافذ إلى النخاع

أذكياء..ولكن

هل هناك من يشك فى أن المصريين أذكياء؟ أحسب أن الأغلبية تؤيد ذلك ولا يساورها أدنى ريب فى أن أبناء جلدتهم حقا أذكياء، ومن قبيل التحوط فى الحكم نقول أكثرهم كذلك.. ومع ذلك فلابد أن هناك من لا يقر بهذا ولا يعترف به، ويرى أنها محض محبة زائدة تجاه بنى الوطن الشاربين من نفس النهر العظيم، وإنها شوفينية تكشف عن رؤية ضيقة فضلا عن أنها دلالة على الجهل بالآخر.. خاصة أن واقع الحال المصرى لا يؤيدها ولا يؤكدها.

أيا ما كان الأمر فمن حق من يرون أن المصريين يفتقرون إلى الذكاء أن نثبت لهم أنهم ليسوا كذلك، ومن جانبنا - الأمر مطروح لاجتهادات غيرنا - سنحاول توضيح أسباب ثقتنا بأن المصريين أذكياء، وعندما نقول ذلك فإنما نعنى الأغلبية التى لا تنفى وجود قدر لا بأس به من الأغبياء، ونزعم أن مظاهر الذكاء ودلائله تتجلى فى ملامح منها:

. - حضارة المصريين القدماء وإنجازاتهم التى يقر بها العالم أجمع ويستمتع بالاطلاع على معالمها ومدارسة ما تفتق عنه العقل المصرى قبل آلاف السنين، وتتوالى المؤلفات الغربية خاصة بشكل مطرد عن عظمة أصحاب هذه الحضارة.

- نماذج العباقرة المحدثين من طه حسين والعقاد إلى مشرفة وعلى إبراهيم وشوقى، ومحفوظ والحكيم وغنيم وسيد درويش وعبدالوهاب وأم كلثوم وغيرهم بل مئات - عاشوا على أرض الوطن وتمكنوا من تجاوز كل التحديات والظروف وتألقوا بمواهبهم وإرادتهم.

عشرات بل مئات العباقرة المصريين المقيمين بالخارج ما بين مخترعين وعلماء، وأساتذة جامعة ورجال أعمال ومستشارين وأصحاب مناصب عالمية.

آلاف الصناع المهرة الذين يعملون فى المصانع العامة والخاصة ويبتكرون الوسائل التى تنجز الأعمال وتذلل العقبات، ومحاولة الاستعاضة عن الاستيرادأو النقص فى قطع الغيار بتقديم البدائل الرخيصة أو الممكنة.

يستحيل أن ننسى حرب أكتوبر المجيدة لأنها بحق دلالة على ذكاء المصرى وجسارته مع أن الامكانيات كانت أقل كثيرا مما أتيح للمحتلين والمؤيدين لهم، وإن كان ذلك يتطلب الإشارة إلى أن أكثر الأحوال التى تزداد فيها همته ويعلو فكره وتتألق قدراته تحت نير التحديات الصعبة.

الأمثلة كثيرة والشواهد عديدة، ويتعين الانتقال إلى.. ولكن.. المصريون أذكياء ولكن.. لأن الأمر يضعنا مباشرة فى مواجهة السؤال الطبيعى والوحيد.. ما فائدة هذا الذكاء وجدواه، وما تأثيره فى رسم خريطة المستقبل؟

الرد بسرعة دون شبهة تسرع أن هذا الذكاء لا قيمة له لأنه حساب جارى بدون رصيد من فعل أو عمل، وبلا تسهيلات ومعاونة من ظروف اقتصادية، ومناخ وظيفى وسياسى، وفى ظل حياة تمشى بالقدرة لا تحكمها خطة ولا استراتيجية ولا نظم أو قواعد - وفى بعض الأحيان تفتقر إلى الحد الأدنى من الأخلاقيات التى تحمى المنجز وترعاه وتحفظ المكاسب وتصونها.

ليس تشاؤما ما قيل، ولكنه قراءة لواقع يتوجب إتاحة الفرصة لإطلالة عليه وحاضر يتطلب الملاحظة واستقراء ملامح المستقبل من وجهه.

ودون حاجة لتدقيق النظر والغوص عميقا فى بطن الحاضر احيلكم لمطالعة تلك المشاهد:

كمية الوقت المبدد على المقاهى يفوق الحصر، فالدائمون المنتظمون وهم المدمنون لهذه البؤر لا يقلون بحال عن ١٠٪ يضاف ١٠٪ أخرى من المنتسبين، ولسنا بحاجة إلى تعداد مثالب هذه المقاهى غير تبديد الوقت، مثل تبديد المال وعرق النهار وإهدار الطاقة فيما لا نفع فيه وفساد الصحة، وتخريب عد كبير من الأسر وإهمال الأبناء وحرمانهم من التربية ومن مبالغ. كبيرة يلتهمها الدخان، وكم من عبقرية مصرية ضاع فكرها مع الطاولة والدومنيو، وتأليف النكات والسخرية من خلق الله، ونسأل من جديد أسئلة ساذجة مثل، هل يوجد مثل هذا العدد المخيف من المقاهى فى أية دولة متقدمة أو على «وش» تقدم؟!!

عشرات القنوات التليفزيونية القادرة بوسائل شرعية وغير شرعية على جذب ما لا يقل عن ٥٠٪ من الشعب فى تأمل بثها الذى ينفى العقل تماما ويلغى الفكر ويحرص فقط على تقديم مسلسلات ممطوطة وبها كم هائل من الثرثرة، والمؤلفون المصريون عباقرة فى هذا الخصوص، ثم تعقبها برامج يدعى إليها نفس الممثلين ليتحدثوا عن حياتهم الخاصة أو عن رأيهم فى الطقس والرياضة والسياسة والعولمة والمأكولات والسيارات والزواج والدين، وبعدها إعلانات يظهر فيها نفس الممثلين ثم تأتى المسابقات عن المسلسلات والأفلام ويجيب الناس ببساطة ويحصلون على الجوائز المغرية، ويخلو الجهاز العظيم من الحض على الأخلاق واحترام القيم ويفتقر إلى الموضوعات الجادة ويتراجع دوره - المفترض - فى التوعية والتثقيف، ويتأكد دوره فى تقديم البرامج التى تكرس للتفاهة والجهل، ولذلك فخطره أشد من المقهى.

الغرام بالاستهلاك.. مرض مصر الحقيقى الذى وفد إلى بلادنا مع الانفتاح العشوائى الذى لم نستفد منه إلا تحسين وسائل الاستهلاك والإهلاك، والتغيير يتقدمها الشعار العار، «انسف حمامك القديم» وارم سيارتك أو استبدلها وغير الحيطان وغير الفرش وغير الأصدقاء.. الملابس الجديدة تتكدس.. ارمها واشتر غيرها، ومن لا يفعل يعتبر دقة قديمة وضد التطور ورجعيا وجلدة.. وفريق المطاردة الاستهلاكية مكون أساسا من التليفزيون وإعلاناته والسيدات والأولاد.. قوة ثقيلة مؤثرة، كل أعضائها تخرجوا فى جامعة التليفزيون بامتياز وأنصتوا له باحترام وقداسة.. نار تشتعل فى الجميع ولا يشغلهم غيرها - وليس تبديد المال هو العيب فى هذا الطاعون ولكنه يؤدى إلى فوضى الاستيراد، وهذه مشكلة، مجرد الحديث عنها إهانة، لأن السلع التى يقوم رجال المال باستيرادها تدعو للدهشة والأسى وتجعلك تبكى «بدل الدموع دم» على الأقل لمن لديه الحد الأدنى من الإنسانية ولا أقول الوطنية.. ينهار بسببها ميزان المدفوعات وأخوه الميزان التجارى كما أن الطاعون الاستهلاكى يدفع رجال الأعمال إلى استثمار اموالهم فى إنتاج سلع بسيطة وتافهة لأنه يتعجل المكسب ويفرح بالبيع السريع، ولا يفكر فى إنتاج ساعة أو راديو أو كبة أو خلاط أو أى قطعة محترمة من قطع السيارات، وهذا الطاعون يدفع الأسر إلى الوقوع دائما فى أسر تقليد الآخرين فى منظومة لا تنتهى.. طلبات.. طلبات بما يعنى تحويلنا إلى كائنات مشغولة بالشراء فقط وليس لديها فرصة لاستخدام ذكائها فى ابتكار أو اختراع أو إعمال فكر، ولكن فقط فى البحث عن مصادر المال لتلبية الطلبات.

انتشار التليفون المحمول بشكل مرضى لا أحسبه كذلك فى أى دولة، وقد زرت الكثير من دول العالم.. الأولاد عندنا والحمد لله فى مختلف مراحل التعليم يتكلمون فى المحمول، وأكثر سيدات المدن والشباب حتى العاطل.. ظاهرة بشعة تطوى الجميع فى تروسها بسبب ومبرر وبدونهما.. ويكفى أن يكون استعمالا للعياقة والمظهرية، والحديث يتوالى بلا توقف

ويكتمل فى التليفونات المنزلية والتجارية وتليفونات المؤسسات العامة والهيئات الحكومية.. ثرثرة لا حدود لها، ولا جدوى من معظمها، ولكنه تبديد الوقت والطاقة والذهن.. إنها البدعة القاتلة التى تشارك فى قفل الدائرة حول المصريين ومستقبلهم.

كان يمكن أن يستمر ذكاء المصريين فى مجالات تضاعف منه وتوفر له أجواء خلاقة، لكنه يتسرب كما تتسرب المياه إلى سراديب تحت الأرض تنتهى إلى بحر مالح.. مالح..

المصريون أذكياء جدا يا سادة.. لكن هذه المنحة الإلهية لم تستغل - إلا نادرا - فى صياغة عملية تمضى صوب آفاق العلم والتقدم والابتكار، والإنجاز، لتتحقق نقلة كبرى فى حياتنا فنحتسب ضمن الدول التى تستحق أن تعيش فى القرون القادمة.

حاجتنا إلى ثورة ثقافية

يجمع المنصفون على أن ثورة يوليو ١٩٥٢م قد أدت دورها إلى حد كبير، وانتهت مرحلتها الرئيسية بعد حرب أكتوبر المجيدة فى ١٩٧٣م، ثم جاءت مرحلة أخرى متباينة كل التباين ومقطوعة الصلة بما قبلها، وقد حاولت القيادة السياسية فى السبعينيات بحس وطنى لاشك فيه أن تتجه بالبلاد وجهة رأسمالية تعتمد آليات السوق والاقتصاد الحر سبيلا ومنهجا للتطور وإحداث نقلة حضارية، تعوض بعض السنوات التى حالت دون تقدمنا خلالها - رغم الطموحات الكبيرة - الكثير من التحديات الداخلية والخارجية.

ولاتزال هذه المرحلة تواصل مسيرتها فى محاولات جادة لتخفيف حدة المشكلات وتلبية الكثير من الضروريات الملحة والتعامل معها بأسلوب الفعل ورد الفعل، أو بأسلوب التنقل لإطفاء الحرائق، واستطاعت الحكومة بقيادة حسنى مبارك الرشيدة أن تحقق بعض المتطلبات وأن تحسن عددًا من القطاعات، لكن ذلك لا يتجاوز فى أحسن الحالات ٢٥٪ من المستهدف، خاصة أن حساب المهدر من الدخول والثروات هائل، مع الأخذ فى الاعتبار أن معظم التحسن طرأ على وسائل الاتصال والنقل والمبانى وجانب كبير من البنية الأساسية.

إن العمل الذى يتم على قدم وساق فى مختلف المجالات يفتقر إلى الرؤية الشاملة والدقيقة، وتلتبس عليه وعلى أصحابه الأهداف، وتتشتت منطلقات السعى لتحقيقها، أما عشوائية التخطيط وارتفاع المد الشخصى الاستغلالى النفعى وشيخوخة الكوادر القيادية بما يؤثر على تدافعية وحجم الإنجاز فى كثير من المؤسسات فإنها أمور يعرفها القاصى والدانى.

والنتيجة هى عجز الحكومة عن تنفيذ أهداف رسمتها القيادة السياسية، فضلا عن سوء الإدارة فى شتى المواقع إلا ما ندر، ومن ناحية الجماهير فقد حدث فى ربع القرن الأخير تراجع بشع فى منظومة القيم الأخلاقية والمبادىء الإنسانية مما هدد الترابط الاجتماعى، وبدا واضحًا ذلك التفكك الذى لحق بالبنى الفكرية مع زيادة التعصب وتفشى الأنانية، والحرص على رفض الآخر حتى لو كان عزيزًا، وافتقاد التسامح بكل أشكاله، والتدهور الرهيب فى المؤسسات التعليمية التى لا يختلف اثنان على أنها فى الأصل هى المنوطة بإصلاح كل فساد وحاضنة المستقبل وبناءة الأمم.

وهكذا يتجلى لنا أن اللوم لا يقع على الحكومة وحدها وإنما تتحمله معها وقبلها الجماهير والسلطات التشريعية والقضائية والمؤسسات العامة والأحزاب ووسائل الإعلام والجمعيات والنقابات، الأمر الذى يحتم ضرورة مناشدة رموز وأعضاء الحياة الثقافية والإعلامية والتعليمية والدينية أن يهبوا لاستنقاذ الوطن من براثن التسيب والتدهور والتحلل، بالمشاركة فى وضع برامج عاجلة وآجلة تستهدف أولا الثورة على أنفسنا جميعا وتفجير ثورة ثقافية شاملة من شأنها إعادة وضع القطار على القضبان، أو العربة على الطريق، بعد أن أوشكت أن تنزلق عجلاتها وطاقتها إلى رمال بلا نهاية، وقد شرعت أغوار هذه الرمال فى التحرك تحت الأسطح الناعمة.

لايتسع المجال ولا يتعين أن يتسع لتوجيه اتهامات لشخص ما أو لمؤسسات بعينها، وليست الصورة من الغموض بحيث تحتاج إلى توضيح

وجدال سفسطائى يبدد الجهد ويهدد الإمكانات ويكرس النزاعات دون طائل، فقد تعودنا فى كثير من المناسبات أن نبذل جهدا خرافيا فى النقاش، وعندما نكتشف أن الوقت قد أفلت منا وأن النهاية توشك أن تداهمنا، فإننا نسرع بإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وهذه العبارة الشهيرة لها مرادف آخر، هو ما لا يدرك كله.. لا يترك كله، فدائما نحاول اللحاق بالسبنسة وعادة ما نسقط قبلها أو فيها، لأن الجهد كله ينفق فى النقاش واستعراض قدراتنا لا فى تنمية الفكرة التى عرضها الآخر لتطويرها، ولكن لتحقيرها والتقليل من شأنها، وبذل الجهد الكبير لبيان مثالبها وشوائبها دون تقديم بديل أفضل.

إن ما يجرى فى مصر الآن شىء أقرب إلى العرض المسرحى السخيف والممل، فبينما الدول مشغولة بالبناء والابتكار والاختراع والتفوق والتميز وزيادة كم الانتاج وجودته، نصرف جل اهتمامنا لمشاهدة العرض المسرحى.. ناس على الخشبة تمثل وفى الوقت نفسه تنهب وتستغل وتلمع بابتذالها الرخيص، وفى القاعة أناس تتفرج وتتسلى راضية أو غير راضية، لا تملك من أمرها شيئا ولا ينفعها أو ينصفها فتات الديمقراطية الوهمى، متلذذة بقزقزة اللب والسوادنى وعيناها على الخشبة وأيديها بين الحين والحين تلتهب بالتصفيق.

الدنيا كلها تنتج أشياء لها قيمة ونحن ننتج الفشار والشيبسى وفى أحسن الحالات السيراميك، وألوف السلع التى نتداولها فى كل مكان من إنتاج الآخرين، والمصرى منها مغشوش.

نحن شعب فى معظمه لا ينتج، شعب يضيع كل يوم:

٣٠ مليون ساعة (١٠ مليون فرد × ٣ ساعات) على المقاهى

٢٠٠ مليون ساعة (٤٠ مليون فرد × ٥ ساعات) أمام التليفزيون

٢٠ مليون ساعة (١٠ × ٢) فى الشوارع

١٠ مليون ساعة (٥ × ٢) فى الشوارع

٥ مليون ساعة (٢ × ٥ر٢) فى المحاكم

المجموع: ٢٦٥ مليون ساعة فى اليوم

أى حوالى ثلاثين ألف سنة يوميا (السنة: ٨٧٦٠ ساعة) وهذا ما يهدر يوميا من الوقت غير الماء والكهرباء والصحة والفرص و الأرض الخصبة واموال البنوك والثروات.. والأعصاب وبالتالى التركيز والتفكير والسعادة.. شعبنا يستو رد تقريبا معظم ما يأكل ويستخدم، من اللبان والشاى واللحم والقمح حتى الشباشب والكبريت والورنيش والسواك والأمشاط والفلايات والإبر وأدوات الزينة.

أما عن القوانين والمقصود بها القواعد والمعايير التى تحكم الأفراد والمسؤولين والمؤسسات.. فلا تكاد توجد مقاييس أو معايير تحكم كل شىء دون خلل أ وشائبة أو استثناء، إن الدول فى الأغلب تعيش حياة مطمئنة نظرا لقوة القانون فيها.. وسلامة ودقة تنفيذه بصورة حاسمة فى الوقت المناسب، ولكن القادرين منا يقفزون فوق كل الأسوار، ويحطمون كل الحواجز، وينفذون إلى كل موضوع يشاءون، ويستولون على أى شىء يطلبون.

إننا شعب يعيش بالقدرة الإلهية والرضا الربانى ونتمتع بكرم إلهى لا تكفى صلواتنا جميعنا لشكره، أما الصورة الوردية التى يتم الإعلان عنها وإطلاق التصريحات بها من قبل مسؤولين وقيادات، فهى ترجع إلى سببين: إما أن أصحابها لا يعانون ولا يحسون ما يجرى لأن أقلهم يتمدد فى مكتب تكلفته ربع مليون جنيه وثمن السيارة التى يركبها ربع مليون، وربع ثالث لشقة وربع رابع لسفرياته وخامس لشقة المصيف، أما ما يسمى لامتلاكه فالشريف منهم يجمع ضعف هذه الأرباع الخمسة، والسبب الثانى هو فلسفة البعض فى تطييب الخواطر وتجنب الإزعاج والحرص على مشاعر البشر.

إننا نضيع الوقت على هذا الشعب ونبدد أمواله وطاقته إذا تركنا الأمور على هذا النحو،لأن العواقب ليست فقط مادية ولكنها وهى الأخطر معنوية، ولا يصعب على الكثيرين ملاحظةكم المشاعر السلبية التى تتزايد يوما بعد يوم.. إحباط.. حقد.. عدم انتماء.. إهمال.. أنانية.. كراهية.. سخط.. عدوان.. تدمير..

لذلك لا أدعو إلى تغيير الحكومة أو تغيير أحد فهذا شىء لا تتضمنه الدعوة، ولكن لأننا نعيش مناخا إنسانيا وقيميا رديئا فإن المطلوب هو تصحيح المناخ وتنقيته.

إن الطبقة العليا التى تضم كل المنتفعين والمتمتعين ومن استفاد منهم ودار فى أفلاكهم لا علاقة لها بالشعب المصرى الحالى.. الغلبان المحشور فى الأتوبيس، إنهم المصريون المقيمون فى شقق صغيرة جدا تمر بينها حارات ضيقة جدا وإلى جوارهم صناديق القمامة الضخمة والتى لا يبخل الأغنياء فى ملئها لهم كل يوم.

هناك فى مصر شعبان.. شعب يتكون من المسؤولين ورجال الأعمال والسياسيين، كل منهم له وضعه واتصالاته ومكاسبه وحصانته ومكانته.. وهو يعيش فى فترينة.. وهناك شعب آخر مكون من أسراب النمل التى تقف بالملايين خارج الفتارين الزجاجية، فإذا ملت التطلع إلى الفتارين تسلت بالتليفزيون الذى لا يكف عن تقديم وصلات الغناء والتمثيليات البلهاء والرقص وإحياء الليالى المبهجة.

إن أصحاب القرار فى هناء تام وانسجام.. أنهم ليسوا مجموعة أفراد ولكن دولة متناغمة وسعيدة.. مصالح متبادلة ومتشابكة ومصاهرة.

ربما يسأل البعض: وما علاقة الثورة الثقافية بكل هذا؟.. إننا نحتاج إلى ثورة شاملة فى كل المجالات، وجوابى هو: أن الثورة الشاملة تعنى التشكيك فى إخلاص القيادة، وأنا أرى أن القيادة السياسية على درجة

عالية من الوطنية، ولكن المنظومة المعرفية والإدراكية لمجمل أفراد الشعب تعرضت لهزات شديدة تأثرت معها أخلاقيات المصريين، ورؤيتهم لقيم العمل والإتقان والمحبة والتعاون والنخوة والإيثار وحب العلم وغير ذلك من البنى الداخلية المعنوية اللازمة لكل مجتمع كى تقلع طائرته نحو التقدم والازدهار.

وفى الوقت الذى شرعت فيه الثروات تتزايد والاستثمارات تتوجه لدعم الاقتصاد المصرى، وأوشكت مصر أن تضع قدمها على بساط التقدم تراجعت فى المقابل القوة الداخلية للإنسان المصرى وغدا أقرب إلى الهشاشة وأكثر انكبابا على الذات وانشغالا بتأمين جزيرته بكل الوسائل، وفاته أن يدرك أن حماية جزيرته لا يكون إلا بالتعاون مع الجزر الأخرى وحسن الجوار والتضامن.

هذا الانكباب على الذات قطع الطريق على العلم والمعرفة وشجع على تجاهل الإنسانية عامة فتكرست الأنانية والنفعية المقيتة وساد منطق أنا وبعدى الطوفان ونشأت أجيال منبتة الصلة بكل ما يمكن أن يقيم مجتمعا أو يقوى أمة.. المؤسسة التعليمية تفرز كل عام عشرات الألوف الذين القوا على أبوابها حقائبهم بما فيها من أطنان الكتب.

نريد ثورة ثقافية تذكرنا بشئ اسمه الضمير، وكيان عظيم اسمه الوطن، وسلاح مهم هو المعرفة والمعلومات، وصفة لا غنى عنها هى التحدى.. ثورة تنبهنا إلى أن الفنون فى بلادنا تهبط وتتردى وتحرص على التافه وأن الآداب التى كانت مجد مصر تتراجع.

أدعو إلى ثورة ثقافية يشارك فيها فقط المخلصون الشرفاء الذين يبتغون تعديل الأوضاع ورفع السيارة المقلوبة وءاعادة منظومة القيم، وإيقاظ الشباب الذى يحاول التخلص من الوطن ومن الحياة ومن الأهل ومن نفسه.

ثورة ثقافية بدون ميزانية أو زينات ولا يتقدمها المسؤولون وليس فيها تهانى فى ا لصحف وبرقيات تأييد أو شجب ولا مسابقات أو اتصالات بأرقام معينة، لأنها ليست مهرجانات، إنها حركة شعبية تطوعية يتقدمها المثقفون الوطنيون الذين يدركون هول ما نحن فيه، وبشاعة ما ينتظرنا إذا بقى الوضع على ما هو عليه.

إن الغرض من هذه الثورة هو تنفيذ مخطط جديد وشامل يتضمن مجموعة من البرامج التى تستهدف تنشيط كل ما معنوى وأدبى وخلقى وروحى وإنسانى، ثورة نبيلة وسامية تنتهج أسلوب الحوار الفكرى والعصرى من أجل التنوير الشامل للجميع، ترد فيه للمصريين مصريتهم وتربيتهم وتضامنهم بعد أن أصابهم ما كاد يطمس هويتهم ويعتصر روحهم، ولا يبقى لهم غير الرغبة فى الامتلاك التى تجرسها ثقافة العنف.. وما لم يتوافر هذا الإحساس فلا أمل.

إن قعقعة هائلة ولا طحن، وتدافع كبير ولا تقدم، ولهاث عال ولا جديد، وأفكار رائعة تنثر فى الفضاء دون أن يجمعها أحد ويستثمرها فى تشكيل فاعل وملفت ومحرض إلا نادرا أو فى أمور متواضعه القيمة.. إن قوة مصر الحقيقية يجب أن تتجلى فى حيوية شبابها، ومستقبل مصر المشرق يتعين البحث عنه فى سلوك شبابها وإرادته وتطلعاته وانتمائه وإنجازاته، فهل يمكن أن نطمئن على قوة مصر ومستقبلها إذا تأملنا حال شبابها؟

ولذلك أتصور أن ضمير الأمة ووعيها فى حاجة إلى تدخل عاجل.. ولسوف يتوجس بعض المثقفين من مقاومة الجالسين على الكراسى، القابعين على الخزائن.. المسكين بمفاتيح القرار، لأنهم لن يسمحوا لأحد أن يتقدم من جزيرتهم أو يفكر فى لمس مكاسبهم، وسوف يتحصنون بكل ما يملكون وما لا يملكون، وطبعا سيتكاتفون، وتنفعهم مسألة الأغلبية فى المجالس المختلفة التى حرصوا على توفيرها من أجل ديمقراطية شكلية.

لكن ذلك كله لن يمنع المد النبيل للثورة الثقافية من أن تعمل عملها من خلال تحركات سلمية فكرية معرفية، ولابد من المواجهة وطرق الأبواب..

أيها المثقفون إن مصر تناديكم، و التاريخ يرقب مسيرتكم وحركتكم، لأن المنعطف حاد والمأزق بالغ الشدة وبدونكم، تجرى الأمور تقريبا على نحو غير مأمون العواقب و الدعوة مفتوحة للجميع.. للمشاركة وطرح الرؤى والأفكار وهناك محاور عدة فى انتظار المناقشة.

إن ظهور أى نبض يشير إلى أن الدعوة تحظى بالترحيب اللائق سوف يدفعنا لعقد اجتماع تحضيرى بعيدا عن كل القصور الفخمة وخارج أطر المؤسسات الرسمية والحزبية، وإنما سيكون جلوس الحضور على العشب فى حديقة عامة تحت سماء مفتوحة تحف بهم نسمات الحرية، أو فى أى موضع يتمتع بالاستقلالية يمكن أن يقترحه المتحمسون لنجاح فكرة الزحف المقدس لإعلان الدور التاريخى للمثقفين بكافة ألوانهم وإنتماءاتهم.

وفى الختام

أكثر ما ذكرناه ينتمى إلى التشكيل العقلى والوجدانى للشعب المصرى حامل لواء التقدم وصاحب المصلحة الحقيقية فيه، ومن المؤكد أنه أصبح يدرك بما لايدع مجالا للشك أن التحديات التى يواجهها مع غيره من شعوب كثيرة أخرى أكبر مما كان يتوقع وأثقل مما كان يتوجس.. ولابد أن ثمة حالة جديدة من الوعى بما يدور فى العالم أضحت تهيمن على كثير من رؤى وأفكار العامة والبسطاء، ولابد أنهم يستشعرون مع الجميع احتمالية شبه مؤكدة لحدوث نوات عاصفة يمكن أن تهدد غير الحصين وتزلزل من يفتقد الصلابة والرسوخ.

لقد انكشفت إلى حد كبير معظم الأوراق وغدا من اليسير على كل ذى عقل إدراك أن التقدم منوط بالإنسان، بوصفه الفاعل وهو المستهدف فى آن.. وأى تقدم يروم تحقيق آمال لا يتصورها الإنسان لن تحظى إلا بالإخفاق أو على الأقل بالإغفال والعزلة.

إنها ليست رومانسية بأية حال لكنها الحقيقة.. العالم كله بعلمه وفكره وأمواله وصراعه وتقنياته وكافة ما يملك يفكر فقط ويأمل فى تحقيق أفضل سعادة للإنسان، فضلا عن سلامته البدنية والنفسية بل أن الدين نفسه سعى لذلك منذ آلاف السنين، وتوشك أدبيات الفكر تعتمد

أساليب محددة أهمها الديمقراطية وحسن الإدارة، واستخدام العقل وتقديس العمل، وتحسب لكى يتحقق الهدف أن يتمتع العاملون على كافة المستويات من أعلى السلطات إلى أدنى الفئات بالإيمان والإدارة والانتماء والعدالة ويقظة الضمير والموضوعية والثقافة.. على أن تكون المرجعية فى كل الأمور هى الدين.. لأنه مجموعة الأحكام الإلهية أو كتالوج التشغيل الإنسانى الذى أنتجه المصنع السماوى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

لقد بدا لى واضحا أننا بفكرنا التقليدى وآليات الأداء على كافة الأصعدة ومنطلقات الشعب الحاضر والمستقبل فضلا عن سلوكيات الكثير منه، قد عفى عليها الزمان ولم تعد تصلح لهذا العصر.. وجاءت الصفحات السابقة متمنية وساعية - فى خطابها إلى كل مصرى - كى يعيد النظر فى مجمل العلاقات بينه وبين الناس والوطن والإنتاج والعمل، إذ أنها تنطوى على كثير من أسباب التخلف، وليس يخفى على أحد أن الله منح مصر ما حرم منه شعوبا كثيرة، فالشمس والجو المعتدل والنيل والثروات المعدنية والموقع المتميز والسماء الصافية والتاريخ العريق والتجربة العميقة وحرية الصحافة والقيادة الحكيمة،.. كل ذلك يحق أن نفخر به ونزهو، و يبقى أن تسود حياتنا روح جديدة، حاولت الصفحات السابقة أن تشير إليها، لكنها ليست من صنع القيادة وحدها دائما.

هى دعوة لكل مصرى كى يشارك فى بناء الوطن الجديد، ولن يكون الوطن جديدا وملائما للقرن الجديد إلا بأساليب عملية وتواصلية جديدة الوطن هو نتاج ما يبذله الفرد الواحد، ومجموع ما يقدمه الجميع ولن يتقدم وطن يخذله ابن واحد من أبنائه، ويجب أن تكون مصر هبة المصريين كما كانت دائما، خاصة فى عهود المجد والأزدهار.

إن المهمة المطلوبة ليست فى استيعاب ما أشرنا إليه وتطبيقه بأقصى وأقسى ما نستطيع، ولكنها فى تعليمها وتربيتها وبثها فى قلوب وعقول

صغارنا بوسائل فنية وراقية، وبدون ذلك لن تكون ثمة نهضة حتى لو تفجرت الأرض من تحت أقدامنا بترولا وذهبا.

إن مطار الإقلاع مقره أعماقنا.. وعلى كل إنسان أن يبدأ بنفسه ويعرض عليها ماتناولناه.

لا أحسبنى فى رؤيتى أجور أو أتشاءم إذا قلت إن شأن المجتمع المصرى من حيث السلبيات والإيجابيات يماثل قيمة المكسيكى ذات القاعدة العريضة والقمة الصغيرة، وأرى أن القمة الضيقة هى الإيجابيات، والأرجح أن الإيجابيات تماثل لباس البحر لمن ينوى النزول إلى البحر أو حمام السباحة من الذكور، وهذه الإيجابيات تكفى بالكاد لتحسين صورتنا فى نظر أنفسنا والعالم وهى ليست أكثر من ستر عورة والكثير مما دونها يحتاج إلى تعديل وتطوير وترشيد.

وآمل إذا كان من بين المسئولين فى التليفزيون قارئ - أن تتحول محتويات هذا الكتاب إلى مواد أساسية لبرامج ومسلسلات وندوات على مدى عشر سنوات فيما يشبه المشروع المعلن لتحقيق الهدف الكبير وهو العمل على إيماك صياغة عقل ووجدان وقيم الإنسان المصرى وترشيد وتطوير علاقاته وأساليب عمله وحياته، بوصف ذلك هو مفتاح التقدم، وما أجدر التليفزيون بوصفه معلم الشعب الحقيقى بأن ينهض بهذه المهمة المقدسة، حاملا على عاتقة راية التثقيف والتوجيه والتربية وتوسيع رقعة الحرية والتأكيد على احترام الآخر الشريك فى الإنسانية والوطن والحياة.

وأتصور أن مجلس الحكماء وقد دعوت إليه، فى فصل العدالة وفى غير ذلك من المواضع فى مناسبات أخرى سابقة والذى حملته مهمة فض المنازعات وحل المشكلات، يمكنه أيضا أن يكون مرجعية اجتماعية لكل حى سكنى لرأب الصدع وحماية البيئة من مختلف ألوان التلوث ومساعدة المحتاجين بجمع التبرعات من الأثرياء والقادرين وتحقيق قدر طيب من التكافل والتضامن ورعاية الشباب ومساندة المرأة وحمايتها والطفولة من

أى عبث أو ظلم، وهذا يعنى أن تكون هناك لكل حى قيادة جماعية صغيرة فى غياب دور الأحزاب والمجالس المحلية والشعبية خاصة فى المدن.

وكل الآمال تقريبا معقودة على وزارة التربية والتعليم لكى تجدد نفسها تماما بما يليق بظروفنا فهى فى نظرى المنقذ الأول وصانعة المستقبل

ويبقى أن نوجه الدعوة لكل قارئ أن يشاركنا بالرأى والتعليق والإضافة والإضاءة والتعميق والتطوير لكل ماورد بهذا الكتاب ليأخذ - فى طبعته الثانية - الصورة المثلى والشكل الصحيح المنقح والمعبر الدقيق عن حاضر وآمال المصريين فى مستقبل عاشوا طويلا يأملون فيه، وهاهم قد أدركوا أوجه القصور وأسباب العثرات، التى حاولنا الإشارة إليها وجمعها فى كتاب واحد، أحسب أنه يمثل كل علامات الطريق مفصلة وماثلة تحت عيون جميع أفراد الأمة، وأثق أنهم سوف يحرصون على وضع الأيدى فى الأيدى والقلوب على القلوب حتى يتحقق الأمل وهو نهضة مصرنا الغالية، حفظها الله من كل سوء وكلل جهود أبنائها بالفلاح، وأنزلها فى القريب العاجل منزلة سامية ومنحها القدرة الكافية لتوفر لشعبها الرفاه والرخاء، إنه على كل شىء قدير.

صدر للمؤلف

مجموعات قصصية:

١ ـ عقدة النساء	١٩٧٨ المؤلف
٢ ـ كلام الليل	١٩٧٩ المؤلف
٣ ـ العجز	١٩٨٣ دار الهلال
٤ ـ عسل الشمس	١٩٩٠ هيئة الكتاب
٥ ـ شدو البلابل والكبرياء	١٩٩٥ مختارات فصول
٦ ـ الفندورة .	١٩٩٦ قصور الثقافة
٧ ـ زهرة البستان	١٩٩٩ قصور الثقافة

روايات:

١ ـ أشجان	١٩٨٠ العربية للنشر
٢ ـ الناب الأزرق	١٩٨٢ المؤلف
٣ ـ السقف	١٩٨٤ هيئة الكتاب
٤ ـ عشق الأخرس	١٩٨٦ أخبار اليوم
٥ ـ شفيقة وسرها الباتع	١٩٨٦ دار الغد العربى
٦ ـ موسم العنف الجميل	١٩٨٧ هيئة الكتاب
٧ ـ عصر واوا	١٩٩٣ دار الهلال
٨ ـ بذور الغواية	١٩٩٤ هيئة الكتاب
٩ ـ روح محبات	١٩٩٧ المكتب المصرى
١٠ ـ حكمة العائلة المجنونة	٢٠٠٠ دار الهلال

دراسات:

١ ـ نظرات فى المرأة والزواج	١٩٨٦ دار الغد العربى
٢ ـ محمد مندور شيخ النقاد	١٩٨٧ دار الغد العربى
٣ ـ نجيب محفوظ كاتب العربية الأول	١٩٨٨ قصور الثقافة
٤ ـ إحسان عبد القدوس عاشق الحرية	١٩٩٠ قصو رالثقافة

٥ ـ أدب الرحلة فى التراث العربى ١٩٩٥ قصور الثقافة
٦ ـ رعاية المواهب ١٩٩٨ قصور الثقافة

المحتويات

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٣٢٣/ ٢٠٠١

I.S.B.N 977 - 01 - 7590 - 0



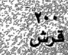
◆ ◆ ◆ ◆

بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لى طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعًا ملموسًا حيًا يتأثر ويؤثر، وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمة بالجهد والمتابعة والتطوير، خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنتشر فى كل دول العالم النامى وأسعدنى انتشار التجربة ومحاولة تعميمها فى دول أخرى. كما أسعدنى كل السعادة احتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها وتلهفها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كيانًا ثقافيًا له مضمونه وشكله وهدفه النبيل. ورغم اهتماماتى الوطنية المتنوعة فى مجالات كثيرة أخرى إلا أننى أعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة هى الابن البكر، ونجاح هذا المشروع كان سببًا قويًا لمزيد من المشروعات الأخرى.

ومازالت قافلة التنوير تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية، تعيد الروح للكتاب مصدرًا أساسيًا وخالدًا للثقافة. وتوالى «مكتبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن على التوالى، تضيف دائمًا من جواهر الإبداع الفكرى والعلمى والأدبى وتترسخ على مدى الأيام والسنوات زادًا ثقافيًا لأهلى وعشيرتى ومواطنى أهل مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك



٢٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

